

النبأ العظيم
نظرات جديدة في القرآن الكريم

نَبِيُّكَ

النَّبَأُ الْعَظِيمُ

نظرات جديدة في القرآن الكريم

تأليف

د. محمد عبد الله دراز

(١٣٧٧هـ)

اعتنى به

عمرو الشرقاوي

الفهرس الإجمالي

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة المعتني
١٣	المقدمة الأولى : تدعيم مقاصد كتاب «النَّبَأُ الْعَظِيمُ»
٣٠	المقدمة الثانية : موقف المسلمين من القرآن ، وسلامة النص القرآني من التحريف
٤٦	مبررات الإيمان بسلامة النص القرآني
٦١	المقدمة الثالثة : مدخل إلى القرآن الكريم
٧٨	مقدمة المؤلف للطبعة الثانية
٨٠	مقدمة المؤلف للطبعة الأولى
٨٢	البحث الأول : في تحديد معنى القرآن ، والفرق بينه وبين الحديث القدسي والنبوى
٨٥	تعريف القرآن
٨٩	البحث الثاني : في بيان مصدر القرآن ، وإثبات أنه من عند الله بلفظه ومعناه
٩٠	إقرار النبي ﷺ بأن القرآن ليس من عنده من أقوى الأدلة على أن القرآن كلام الله
٩١	أحوال النبي ﷺ دليل على صدقه في قوله : القرآن كلام الله
٩٣	احتياج النبي ﷺ إلى الوحي ، وتأخره ، دليل على كون القرآن من عند الله
٩٦	دلالة آيات العتاب على مصدرية القرآن
٩٩	توقف الرسول ﷺ في بيان القرآن ، ودلالته على المصدرية
١٠٥	حالته ﷺ عند نزول الوحي ، ودلالتها على مصدرية القرآن
١٠٦	سيرته ﷺ العامة ، ودلالتها على أن القرآن من عند الله
١٠٩	هل يمكن أن يكون القرآن إيحاءً ذاتياً من نفس محمد؟
١١٠	المعاني النقلية في القرآن لا تستبط بالعقل ، ولا تدرك بالوجدان
١١١	الأخبار الغيبية في القرآن ، ودلالتها على أن القرآن من الله
١١٦	التحدي القرآني ، ودلالته على المصدرية

الموضوع	الصفحة
هل أخذ القرآن عن معلم؟	١٢٧
رد القرآن على شبهة وجود معلم للرسول	١٣٣
ظاهرة الوحي ، دلالتها على المصدرية	١٣٨
خلاصة البحث في الحجج الخارجية الدالة على مصدرية القرآن	١٤٤
القرآن معجزة لغوية	١٤٨
دراسة في الأسلوب القرآني	١٦٨
بيان بعض الخصائص البيانية للقرآن الكريم	١٧٤
التأصيل لعلم الوحدة الموضوعية عند المؤلف	٢٠٦
النظم القرآني	٢١٦
مثال على الوحدة الموضوعية في السور القرآنية - سورة البقرة	٢١٩
السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني	٢٢٠

مقدمة المحتوى

الحمد لله حق حمده، والصلاحة والسلام على نبيه وعبده، وأله وصحبه من
بعده، وبعد:

فإن الله تعالى أنزل القرآن ليكون للعالمين نذيرًا، وجعله قيماً لا عوج له،
وجعل فيه آيته الباقية، ومعجزته الخالدة إلى أن يأذن الله برفعه من الصدور
والسطور.

وقد أقام الله فيه من البيانات والدلائل على صدقه ما يدركه كل طالب للحق
والهدى.

ومع ذلك، فإن بعض من طبع على قلبه، ورآم غير الهدى = حاول التشغيب
على القرآن، وهي دعوة قديمة، فقد قال بعض المشركين عنه: إن هذا إلا سحر
يؤثر، وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها فهـي تملـى بـكـرة وـأصـيلـاً!

وبعد هذا كله؛ خضع الجميع لسيطرة الكتاب، وتأثيره، وأقر له القاصي
والداني بعلوه ومكانته، ودانـتـ العربـ لـبيـانـهـ وـفـصـاحـتـهـ.

وبعد سنين = ظهرت الفرق، وتأولت الكتاب، ولوت أعنـاقـ النـصـ لـيوـافـقـ
الـهـوىـ والـرأـيـ، وصار الانطلاق من الرأـيـ للـنـصـ كـمحاـولةـ لـفـهـمـ النـصـ وـفـقاـ
لـلمـعـقـدـ.

وكان من حفظ الله للقرآن، أن جعل له من علماء الأمة من يحفظ ألفاظه
و معانيه، وينفي عنه انتقال المبطلين، وتأويل الغالبين، وتحريف المنحرفين.
وفي العصر الحاضر، ظهرت التأويلية المعاصرة، وظهرت النظريات الحداثية
وما بعدها لتعمل في حقل النص الديني، وتوجهـتـ هيـ الأـخـرىـ لـفـهـمـ القرآنـ

المجيد، وصاحبها موجة من الشبهات المتعلقة بالقرآن، والتي يمكن أن نصفها بحسب العرض الذي أوجزناه إلى قسمين رئيسين، فنقول:

إن الشبهات المتعلقة بالقرآن، تنقسم إلى قسمين رئيسين:

الأول: الشبهات المتعلقة بالمصدريّة والتاريخ.

وهذه الشبهات هي التي تتعلق بالقرآن، من حيث مصدرية الكتاب، وتعلق به من حيث تاريخه، ويدخل فيها الشبهات المتعلقة: بجمع القرآن، والشبهات المتعلقة بالتحريف في النص القرآني من حيث الزيادة أو النقصان، والشبهات المتعلقة بالقراءات القرآنية.

الثاني: الشبهات المتعلقة بالمعاني.

والشبهات المتعلقة بالمعاني تتفرع إلى قسمين هي الآخر -بحسب القدم والجدة-:

أولاً: العقائدية وأثرها في تفسير القرآن الكريم.

ثانياً: التأويلية المعاصرة.

ومن الكتب التي عالجت موضوع «مصدريّة القرآن» كتاب العالم الجليل الفذ، الأستاذ الدكتور محمد ابن الشيخ العالم الأصولي عبد الله دراز، فقد جاء هذا الكتاب كمفخرة من مفاخر التأليف المعاصر، جاء كنسق فريد في المؤلفات التي أثرت الدراسات القرآنية.

اللخیص مرکز عالج الشيخ في هذا الكتاب الحجج التي يعتمد عليها في معالجة هذا الموضوع الخطير، وقد اعتمدت الحجج التي ذكرها المؤلف رحمه الله على نقاط يحسن أن نبرزها في هذا التقديم.

- فقد ارتكز المؤلف كثيراً على مسألة صدق النبي ﷺ، في تبليغه عن الله تعالى، وحشد الأدلة على هذا الصدق من سيرته العامة ﷺ، وكريم خصاله وشمائله.

- واعتمد على إثبات مصدريّة القرآن -كذلك- بما فيه من الآيات الدالة على صدقه، بإخباره بالغيوب الماضية والمستقبلة، وتحقق الغيوب المستقبلية التي أخبر بها.

- ومن آيات صدق القرآن، وعلامات صحته، أن الله تحدى به العرب، أفسح الناس بياناً، وأملكتهم لناصية الكلام، تحداهم الله تعالى بأن يأتوا بمثل القرآن، وتدرج التحدي إلى أن وصل لسورة واحدة من مثل القرآن، وقد وقفوا من ذلك موقف العاجز، فلأن عجز العرب، فلعجز غيرهم من باب أولى وأخرى، ولقد استمر العجز إلى زمان الناس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- ومن دلائل الصدق أن القرآن كله نسق واحد، لا تجد تناfangاً بين سورة وأخرى، ولا تجد تناfangاً بين الآيات في السورة الواحدة، مع أن القرآن نزل في أوقات متفرقة، وأحوال وأزمنة متباعدة، لكنه بناء واحد، تتجلّى عظمته كل حين.
ومن الأدلة التي اعنى الشيخ بإثباتها :

- دليل الإقرار، لقد أثبت القرآن نفسه أن عمل النبي ﷺ كان يتمثل في الوعي والحفظ، ثم الحكاية والتبلیغ، ثم البيان والتفسير، ثم التطبيق والتنفيذ.
أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسيط، وليس له من أمرهما شيء، إن هو إلا وحي يوحى.

- ولو كان القرآن من عنده، فلم عجز العرب عن معارضته؟!
- ومن أعظم الأدلة على ما سبق: ما نزل من آيات العتاب، ومخالفة القرآن للنبي ﷺ في عدة أمور، ونزول الوحي بها، وتأخر الوحي عنه في أوقات احتياجه إليه، كحادثة الإفك، وصلاح الحديبية، وغير ذلك.

- كما أن النبي ﷺ لم ينسب كل أقواله إلى القرآن، بل إننا نعلم الفرق بين القرآن، وبين الأحاديث القدسية والنبوية، فلو كان القرآن مختلقاً من عنده، فلم ينسب جميعها إليه؟!

- وشدد الشيخ أن من غير الممكن أن يكون القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب، فإن من المعلوم أنه لم يلتقط ورقة، ولا بحيرى إلا ساعات معدودة لا تمكنه منأخذ كل هذا العلم عنهم، ولو افترضنا جدلاً أنه التقى بهم، أفلم يكن من الأخرى أن يدعوا لهم لأنفسهم ما ادعاه محمد إن كان كاذباً؟!

أما أخذه عن أهل الكتاب فمما لا يجوز في العقول، إذ كيف يأخذ عنهم، وقد أخبر عن تحريفهم، وكمانهم للحق، وقد سفه علمائهم، وأزرى بهم، وأظهر جهلهم وعجزهم.

ثم إن في القرآن ما لا يوجد في كتب أهل الكتاب، كقصة هود وشعيب عليهم السلام، فمن أين أتى بها؟!

بيان العمل في هذه مجلد الحجج التي ذكرها الشيخ في الكتاب، وقد ذكرناها بأوضح من هذا وأتم في التدعيم الذي قدمناه بين يدي الكتاب.

وفي هذا التدعيم سنقدم عرضاً لمقاصد كتاب النبأ العظيم، للشيخ العلامة محمد عبد الله دراز رحمه الله، وسنقوم بتدعم هذه الحجج التي ذكرها، بتيسير عرضها، بما يناسب شريحة كبيرة من القراء الكرام، ونضيف بعض الحجج التي من شأنها أن تضيّف اليقين على هذه الحقيقة العظيمة، وهي كون القرآن كلام الله، الذي أنزله على عبده محمد ليكون للعالمين نذيراً.

وستتبع ذلك ببيان موقف الفرق الإسلامية من القرآن العظيم، ونذكر بعض الأدلة العقلية على نفي التحريف عن القرآن المجيد، لنختم هذه المقدمات بحديث عن اتفاق الأمة الإسلامية على عظمته هذا الكتاب، ونذكر وجوهاً من عنايتهم بكتاب ربهم الذي أنزله لهدايتهم نوراً ورحمة لقوم يعقلون.

ونختم بتلخيص لكتاب «مدخل إلى القرآن» للمؤلف، لأنه مترابط مع كتابنا، ومتشابه معه في الطرح.

ولقد تلخص عملي في الكتاب في الأمور التالية:

١- قمت بتصحيح الكتاب على أصح نسخه المطبوعة، واعتمد على نسخة «دار الثقافة» كأصل، لأنها أقل النسخ من جهة الخطاء، ولأنها خلت من تدخل المحققين في النص كما حصل في سائر النسخ غيرها.

وصححت بعض النصوص من نسخة «دار القلم» بعنایة الشیخ الفاضل: مصطفیٰ فضلیة، وهو صاحب اعتماء كبير بكتب الشیخ دراز، وسیرته، ودراساته .. وغير ذلك مما يتصل بالشیخ رحمه الله، وهو صاحب فضل كبير في تعريف الدارسين بتراث الشیخ رحمه الله.

وعلى نسخة «دار طيبة» بتصحيح الشيخ: عبد الحميد الدخاخيني، وهي النسخة المتداولة من فترة بين طلبة العلم، وبها يتواصون.

وقد اعتور هاتين النسختين الأخيرتين ما لا بد منه في أي عمل بشري، فقد تكررت بعض النصوص، وسقط البعض الآخر، وكان من أشد ما وقع فيها أن المحققين -جزاهم الله خيراً- تدخلوا في نص الكتاب، وقد خلت نسختنا من كثير من هذا -بحمد الله-^(١).

- قدمت للكتاب بثلاث مقدمات:

الأولى: في تدعيم مقاصد الكتاب.

الثانية: في بيان إجماع الفرق الإسلامية على نفي التحريف عن القرآن، ومبررات الإيمان بسلامة النص القرآن، وذكر نماذج من عناية الأمة بالقرآن الكريم.

الثالثة: في تلخيص كتاب: «مدخل إلى القرآن»^(٢)، للدكتور محمد دراز رحمه الله، وهو كالمتمم لمقاصد هذا الكتاب، وهو مع أهميته، مغفل عنـه عند عموم طلبة العلم، وهو حري بالدراسة والنظر، واستخراج آراء الشيخ محمد دراز المتعلقة بالقرآن وعلومه، والتي بثـها في هذا الكتاب المبارك، وأصلـه إحدـى الرسائل التي قدمـها الشيخ بالفرنسية، وترجمـت للعربية.

-٣- أعدت تـخريـج أحـادـيث الـكتـاب كـاملـة، فـالتـخريـج فـي الـكتـاب بـأكـملـه لـي، وـقد تـرـك تـخـريـج بـعـض الـأـحـادـيث فـي طـبـعـات الـكتـاب الـمـخـلـفة.

-٤- شـرـحت ما يـمـكـن أـن يـشـكـلـ من كـلام الشـيـخ رحمه الله.

-٥- أـضـفـت بـهـامـش الـكتـاب عـبـارـات توـضـيـحـية لـفـقـرـات الـكتـاب، وـلم أـتـدـخـل فـي صـلـب الـكتـاب بشـيء.

(١) لن أعني بإثبات الفروق بين نسختنا، والنـسـخـ السابقة، فقد نفع الله بها، ولا يزال الـانتـفاع بها، لكنـي سـاذـكـر بـعـض النـماـذـج الـيـسـيرـة حتـى لا يـكون الـكـلام مـرسـلاً بلا دـلـيل أو بـرهـان.

(٢) عـقـدـت العـزـم أـن اـكـتـب عـن نـظـرـيـة الـوـحـدة الـمـوـضـوـعـية عـنـ الشـيـخ مـحـمـد درـاز، وـأن أـجـعـلـها كـالـمـقـدـمة الـرـابـعـة، لكنـي وـجـدـت بـحـثـاً لـلـدـكـتوـرـاه مـقـدـمـ منـ الدـكـتوـرـ مـحـيـ الدـين بنـ عـمارـ، بـعنـوانـ: «جهـودـ محمدـ عبدـ اللهـ درـازـ فـي التـفسـيرـ الـمـوـضـوـعـي .. درـاسـة وـتـحلـيلـ»، وـهـو متـاحـ عـلـى الشـبـكـةـ، فـليـنـظـرـ فـيـهـ منـ أـرـادـ التـوـسـعـ فـي درـاسـةـ هـذـهـ الـمـسـأـلةـ عـنـ الشـيـخ رحمه الله.

وفي ختام هذا التقديم، أود أن أهدي هذا العمل لأول من سمعت منه اسم الشيخ دراز، وتعرفت منه على هذا الكتاب العظيم، لقد تعرفت على الشيخ دراز أول ما تعرفت عبر كتابه «المختار من كنوز السنة»، ثم على كتابه الذي أشرف بالتقديم له، والعناية به «النبا العظيم» من شيخي، والذي هو مني بمقام أبي: أبي عبد الله أحمد بن أحمد العيسوي، حفظه الله، وأتم نعمه عليه وأرضاه.

وأسأل الله أن يتقبله بقبول حسن، وأن ينفع به طلبة العلم وأهله .. وإنني لأرجو ألا يبخل علي أحد طالع هفوة في هذا الكتاب -مني-، أو شيئاً يحسن إيراده مكان شيء، أن يعدل بإخباري، وإنني له لشاكراً، ولنصحه -إن شاء الله- لممثل .. والحمد لله رب العالمين.

كتاباته

عمرو صبحي علي الشرقاوي

amr.alsharqawi@gmail.com

المقدمة الأولى

تدعيم مقاصد كتاب «النَّبِيُّ الْعَظِيمُ»

القرآن :

المقصود بالقرآن في كلامنا، هو: كتاب الله، المنزل على محمد ﷺ، المحفوظ بين الدفتين، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل، والمتحدى بأقصر سورة منه. ولقد جاء في القرآن ذاته تحديد مصدره، وأنه كلام الله جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، وليس لمحمد عليه الصلاة والسلام في القرآن سوى:
(١) الوعي والحفظ، ثم (٢) الحكاية والتبليغ، ثم (٣) البيان والتفسير، ثم (٤) التطبيق والتنفيذ.

ويمكّنا أن نقسم الحجج على مصدرية القرآن إلى قسمين:
١ - الحجج الخارجية.

ونعني بها: البحث عن القرآن من خارجه، لا من جوهره.
٢ - الحجج الداخلية.

ونعني بها: البحث عن القرآن في جوهره.

إقرار محمد ﷺ
أن القرآن ليس
من عند

[القسم الأول: الحجج الخارجية]

الحججة الأولى: إقرار محمد ﷺ أن القرآن ليس من عنده

إن المصلحة تقتضي أن يدعى محمد ﷺ كون القرآن من عند نفسه، وبذلك ثبت زعماته، وتروج حجته عند كثير من الناس، إذ إنهم أقروا جمیعاً على علو هذا البيان على بيانهم.

ومع ذلك فإن محمداً ﷺ قد أقر أن القرآن ليس من كلامه، وأنه مبلغ له فحسب.

قد يقول قائل:

إن محمداً لم ينسب الكلام للإله إلا لاستفادة من ذلك جلب الناس إلى طاعته، وبسط سلطانه عليهم.

فنقول:

إن هذا الكلام فاسد من جهة ذاته، وأساسه.

فساده من جهة ذاته: أن القرآن نفسه أوجب على الناس طاعة محمد ﷺ، وجعل طاعته من طاعة الله تعالى.

وفساده من جهة أساسه: لأنه مبني على افتراض باطل، هو أن يكون محمد صلى الله عليه قد سوغ لنفسه أن يصل إلى مقصده، ولو بالكذب والتمويه. وهذا باطل؛ لأن سيرة محمد ﷺ، وأحواله تأبى ذلك.

فإن صفاته وشمائله قبل النبوة وبعدها، تأبى أن يكون كاذباً، فقد كان أعداؤه قبل أصحابه يشهدون له بالصدق، والأمانة، ولم يقل أحد منهم قط: إنه كاذب.

ثم إن في تأخر نزول الوحي عليه في الحوادث المهمة، والتي تتعلق بشأنه الخاص ، كحادثة الإفك ، والآيات التي تشتمل على عتابه عليه الصلاة والسلام ، وتوقيفه في تأويل بعض الآيات حتى ينزل الوحي ، وسائر أموره العامة = كل ذلك دليل على بطلان أن تكون هذه الشخصية من الشخصيات التي تتوصل إلى مرادها بالكذب والتمويه .

إن صاحب هذا الخلق العظيم وصاحب تلك المواقف المتواضعه بإزاء القرآن ، ما كان ينبغي لأحد أن يتمتري في صدقه حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هو واضح ذلك الكتاب ، وأن منزلته منه منزلة المتعلم المستفيد ، بل كان يجب أن نسجل من هذا الاعتراف البريء دليلاً آخر على صراحته وتواضعه .

الحجـة الثانية: في القرآن ما لا يستنبـط بالعقل ولا بالتفكير، وفيه ما لا يدرك بالوـجـدان ولا بالـشـعـور

قد يقول قائل: إن الفطرة السليمة، والبصيرة النافذة لـمـحـمـد ﷺ هي التي أهـلـته
لـإـنـتـاجـ هـذـاـ القرـآنـ .
والجواب:
أن في القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحـثـةـ التي لا مجال للـذـكـاءـ
والـاستـنـبـاطـ فيهاـ .

١- الواقع التاريخية لا مدخل للعقل والذكاء فيها.

من المعلوم أن الواقع التاريخية لا يمكن وضعها بإعمال الفكر والفراسـةـ ،
فالعلم بأحوال الأمم السابقة، وما حصل لهم، وبجملـ ما جـرـىـ من حوادـثـ في
تلك الأـزـمـانـ ، بل وبـمـفـصـلـ ما جـرـىـ أيضـاـ مع ذـكـرـ لأـرـقـامـ دقـيقـةـ = كل ذلك
لا يمكن أن يكون من ذـكـاءـ مـحـمـد ﷺ ، بل هو وحي أوـحـاهـ اللهـ إـلـيـهـ .

ولقد كان ملاحـدةـ الجـاهـلـيةـ أـصـدـقـ تعـليـلاـ لهـذـهـ الـظـاهـرـةـ من مـلاـحةـ العـصـرـ ، إذ
قالـواـ عنـ هـذـهـ الـأـخـبـارـ: ﴿أَسْطِرُ الْأَوَّلِينَ أَكَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

وقد أـجـابـ القرآنـ عنـهـمـ إـجـابةـ بـلـيـغـةـ ، فقالـ: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَّتُهُ، عَلَيْكُمْ
وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَيْثَتُ فِيهِمْ عُمـراـ مـنـ قـبـلـهـ أـفـلـاـ تـعـقـلـونـ﴾ [يونس: ١٦].

٢- الحقائق الدينية الغيبية لا مدخل للعقل فيها.

إن القرآن قد فصل ذكر حدود الإيمان، ووصف الجنة ونعيمها، والنار وعذابها، ووصف عوالم أخرى كالملائكة والجن، بل ذكر بعض الأرقام في ذلك المجال؛ كعدد الملائكة الموكلة بالنار.

أبعد هذا شك أن يكون القرآن قد افترى من دون الله، إن القرآن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين.

٣- أبناء المستقبل الجازمة دلالتها على مصدرية القرآن.

لقد جاء القرآن ببيان أن الدين قد كتب الله له البقاء والخلود، وأن هذا القرآن سيعجز العالم أجمع، وتحدى القرآن العرب كلهم بهذا، وثبت عجزهم، فمن أين لمحمد ﷺ هذا الغيب، ومن أين له الجزم به؟

ومن العيوب التي أخبر بها، والتي تكفي في صدقه، وصدق ما جاء به، ما أخبر عنه القرآن في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلَغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَفَعَلَ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهِدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأي ضمان هذا؟

وليس هذا فحسب، وإنما وقع هذا موقعه، فترك النبي ﷺ اتخاذ الحراس بعد هذه الآية، وثبتت هذه العصمة له في غير موطن^(١).

إنه لا بد أن يكون قد استقى هذه الأنبياء من مصدر علمي وثيق، واعتمد فيها على اطلاع واسع ودرس دقيق.

ولا يمكن أن تكون تلك الأنبياء كلها وليدة عقله وثمرة ذكائه وعقريته.

(١) انظر: صحيح البخاري: (٤١٣٦)، والترمذني: (٣٠٤٦).

الحجـةـ الـثـالـثـةـ:ـ أـمـيـةـ النـبـيـ ﷺـ،ـ

وـعـدـمـ أـخـذـهـ عـنـ مـعـلـمـ مـنـ الـبـشـرـ،ـ دـلـيلـ عـلـىـ كـوـنـ الـقـرـآنـ مـنـ عـنـ اللـهـ

لم يكن النبي ﷺ من يرجع بنفسه لكتب العلم، ودواعينه، لأنه باعتراف الخصوم ولد أمياً، وفي القرآن نفسه: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتَأْوِي مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُلُهُ، مَعْلُومٌ مِنَ الْبَشَرِ، دَلِيلٌ يُسَمِّينَكُمْ إِذَا لَأْرَتَابَ الْبُطْلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

على كون القرآن من عند الله وليس القراءة والكتابة قيمة ذاتية، وإنما قيمة القراءة والكتابة قيمة غائية تهدف إلى تحصيل العلم، وهو حاصل لمحمد ﷺ -عندنا- بالوحى.

ومع دلالة الآية السابقة على هذه المسألة، إلا أن مما يؤكّد تلك القضية أمور، منها :

١- اتخاذه كتاباً للوحى من خاصة صحبه.

٢- أنه لم يعرف موقع اسمه المكتوب في صلح الحديبية.

٣- الشهرة المستفيضة بعدم معرفته للكتابة.

وعلى أية حال، فإن من المتفق عليه؛ كونه ﷺ لم يكن يمارس القراءة والكتابة قبل بعثته .

ولم يكن له معلم من الأميين من قومه، وهذا لا شبهة فيه لأحد، فإن هؤلاء فقدوا أساس العلم في أنفسهم حتى اشتق لهم من الجهل اسم! وليس له معلم من غيرهم، ولا يمكن لأحد أن يدعي أن محمد معلماً من البشر.

فاما من ادعى أنه أخذ هذا العلم عن بحيري الراهب، أو ورقة بن نوفل، فقد ابتعد عن الصواب، وخالف الحق.

فإن لقائه بحيري الراهب أو ورقة بن نوفل لم يكن بمنأى عن الناس، فقد شاهده عمه أبو طالب، وزوجه خديجة، ولم يكن لقائه بهما إلا يسيراً، فماذا حدثنا التاريخ عن هذا اللقاء، وما الذي يمكن أن يكون قد تحمله في هذه الدقائق؟!

أيكون هذا العلم أجمع؟!!

ثم إن خصومه الألداء لم يستخدمو هذا السلاح، ولا شهروه في وجه محمد، وقد كان هذا السلاح أقرب إليهم وأمضى من كل ما لجئوا إليه.

على أن التاريخ قد أخبرنا أن هذين الرجلين، استبشا بلقيا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتوقع له أحدهما شأن عظيم، وتمنى الآخر أن يشهد بعثته فيكون من أنصاره!

- دعوى الأخذ عن اليهود والنصارى:

إن من المستحيل أن يكون القرآن قد أخذ عن اليهود والنصارى، ولینظر قائل تلك المقالة إلى حديث القرآن عن أهل الكتاب، وذكره لهم، وكيف يصور القرآن علومهم بأنها الجهالات، وعقائدهم بأنها الخرافات، وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات.

ولقد كان القرآن بمثابة الأستاذ الذي يصحح لأهل الكتاب من اليهود والنصارى أغلاطهم، وينعي عليهم سوء حالهم.

ويضاف لذلك كله ما كان عليه أهل الكتاب من كتمان للحق، وتحريف للكلم عن مواضعه.

وأما الراسخون في العلم من أهل الكتاب فقد آمنوا بالقرآن.

- دعوى أهل الشرك بأن محمد معلم من البشر!

لما ضاقت بالمشاركين دائرة الجد، ما وسعهم إلا فضاء الهزل، فادعوا أن محمداً تعلم من غلام في مكة، وقد كان هذا الغلام نصرانياً تعرفه الحوانيت والأسوق، أعجمي اللسان مع ذلك؟!

ولنا أن نقول: ما الذي منع قومه -إن كان قولهم الحق- من أن يأخذوا كما أخذ محمد، والغلام بين ظهرانيهم، وبذلك يستريحون من عنايهم بمحمد،

ويداونه من جنس دائئ، بل ما الذي منع الغلام نفسه من أن يتبوأ هذه المنزلة، أو يتولى بنفسه تلك القيادة؟

إن ذلك لا يفسر إلا بشيء واحد؛ أنه من تخرصات الجاهليين، إذ لم يجدوا ما يمكن أن يدحض الحجة الساطعة إلا بمثل هذا الهزل من القول.

- ومما سبق نصل إلى أنه لا يوجد للقرآن مصدر إنساني، لا في نفس صاحبه، ولا عند أحد من البشر، وأن كل من حاول أن يجعل القرآن (عملاً إنسانياً) أعباه أمره.

الحجـة الرابـعة: ظـاهـرة الـوـحـي دـلـيل عـلـى أـنـ الـقـرـآن مـنـ عـنـدـ اللـهـ

إن ظـاهـرة الـوـحـي حـالـةـ غيرـ اـخـتـيـارـيـةـ، وـلـيـسـ مـنـ الـحـالـاتـ الـمـرـضـيـةـ الـتـيـ قدـ ظـاهـرـةـ الـوـحـيـ
تـعـرـضـ لـبـعـضـ النـاسـ، لـأـنـهـ مـبـعـثـ نـورـ لـاـ ظـلـمـةـ، فـهـيـ تـمـدـ صـاحـبـهـ بـعـلـمـ الـقـرـآنـ مـنـ عـنـدـ
الـلـهـ دـلـيلـ عـلـىـ أـنـ
لاـ جـهـالـةـ، بلـ يـجـيـءـ مـعـهـ مـنـ الـعـلـمـ وـالـنـورـ مـاـ تـخـضـعـ لـهـ الـعـقـولـ.

فـقـوـةـ الـوـحـيـ قـوـةـ خـارـجـيـةـ، لـأـنـهـ تـتـصـلـ بـنـفـسـ مـحـمـدـ حـيـنـاـ بـعـدـ حـيـنـ، وـهـيـ قـوـةـ
عـالـمـةـ، وـهـيـ قـوـةـ أـعـلـىـ مـنـ قـوـتـهـ، لـأـنـهـ تـحـدـثـ آثـارـاـ فـيـ بـدـنـهـ، وـهـيـ قـوـةـ خـيـرـةـ
مـعـصـومـةـ، لـاـ تـوـحـيـ إـلـيـهـ إـلـاـ الـحـقـ.

فـمـاـ عـسـىـ أـنـ تـكـوـنـ تـلـكـ الـقـوـةـ إـنـ لـمـ تـكـنـ قـوـةـ مـلـكـ كـرـيمـ.
وـهـذـهـ حـجـةـ لـمـنـ يـؤـمـنـ بـالـغـيـبـ.

خلاصة الحجـجـ الـخـارـجـيـةـ:

كانـ قـصـارـيـ ماـ صـنـعـنـاـ أـنـنـاـ درـسـنـاـ الطـرـيقـ الـتـيـ جاءـ مـنـهـ؛ فـمـاـ وـجـدـنـاـ فـيـ خـلـاـصـةـ الـحجـجـ
اعـتـرـافـاتـ صـاحـبـهـ، وـلـاـ فـيـ حـيـاتـهـ الـخـلـقـيـةـ، وـلـاـ فـيـ وـسـائـلـهـ وـصـلـاتـهـ الـعـلـمـيـةـ،
وـلـاـ فـيـ سـائـرـ الـظـرـوفـ الـعـامـةـ أـوـ الـخـاصـةـ الـتـيـ ظـهـرـ فـيـهـ الـقـرـآنـ إـلـاـ شـواـهـدـ نـاطـقـةـ بـأـنـ
هـذـاـ الـقـرـآنـ لـيـسـ لـهـ عـلـىـ ظـهـرـ الـأـرـضـ أـبـ نـسـبـهـ إـلـيـهـ مـنـ دـوـنـ اللـهـ.

وـتـلـكـ كـلـهـ درـاسـاتـ خـارـجـيـةـ إنـمـاـ يـسـلـكـهـ رـجـلـ وـقـفـ مـعـنـاـ عـلـىـ طـرـفـ صـالـحـ مـنـ
هـذـهـ الـحـيـاةـ النـبـوـيـةـ وـمـلـابـسـهـاـ، وـكـانـ مـعـ ذـلـكـ سـلـيـمـ الـفـطـرـةـ يـتـعـرـفـ الـأـشـيـاءـ بـمـثـالـهـاـ
وـيـهـتـدـيـ إـلـيـهـ بـأـقـرـبـ أـمـارـاتـهـ.

فـمـثـلـ هـذـاـ سـيـرـضـيـ مـنـاـ بـهـذـاـ الـقـدـرـ وـيـهـتـدـيـ بـهـ.

وأما الذين لا يعلمون عن تلك الحياة النبوية إلا قليلاً - وكثير ما هم - والذين يريدون أن يأخذوا حجة القرآن لنفسه من نفسه، فهو لاء لا غنى لهم أن نقدم بهم خطوة أخرى نبين لهم فيها أن هذا الكتاب الكريم يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر، وينادي بلسان حاله أنه رسالة القضاء والقدر، حتى إنه لو وجد ملقي في صحراء لأيقن الناظر فيه أن ليس من هذه الأرض منبعه ومنبه، وإنما كان من أفق السماء مطلعه ومهبطه .

[القسم الثاني: الحجج الداخلية = البحث في القرآن نفسه]^(١)

ولب هذا القسم هو النظر في الإعجاز القرآني، وسنقسم هذه الحجة إلى عدة حجج، وهي:

الحججة الأولى: التحدي

إن القرآن المجيد لم يستطع أحد من وقت نزوله إلى عصرنا أن يعارضه، وإن التحدي بالقرآن كبار علماء الأدب والبلاغة لم تزدهم معرفتهم بهذه العلوم إلا خصوصاً للقرآن الكريم، وإيماناً بقدسيته، ومكانته.

وإن العرب -وهم أرباب الفصاحة والبيان- أعجزهم القرآن أن يأتوا بمثله، بل لم يستطع أحدهم أن يجاريه، ولا أن يطعن في عريبيته.

وأي طعن يوجه للقرآن من جهة عريبيته من طاعن متأخر عن أبي جهل، وأبي لهب وأضرابهم، فاعلم أنه باطل في ذاته؛ إذ لو كان صحيحاً لما غفل عنه هؤلاء الأعداء، وهم أبصر الناس باللغة، وأحرصهم على الطعن في القرآن.

وقد تحداهم القرآن، وكرر عليهم التحدي في صور شتى:
فدعاهم أن يأتوا بمثله.

(١) ينظر هذا القسم بأمثلته في كتاب: النبأ العظيم لزاماً، فإن هذا العرض ما هو إلا تجريد لما ذكره الشيخ بنقله، ولن تتصور هذا حق التصور إلا بمراجعة ما ذكره الشيخ بتمامه من الكتاب.

ثم أن يأتوا بعشر سور مثله.

ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله.

ثم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله.

وأباح لهم -مع ذلك- أن يستعينوا بمن شاؤوا.

ومع ذلك كله؛ استيأسوا من قدراتهم، واستيقنوا عجزهم، فركبوا متن الحتوف، واستنبطقوا السيف بدل الحروف، ومضت القرون تلو القرون ولم يستطع أحد أن يقف أمام التحدي القائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولا يصح القول أن العرب انصرفت همهم عن معارضة القرآن، لأمور:

١- لأن الأسباب الباعثة على المعارضة كانت موفورة متضاغفة، لا سيما مع استشارة حميتهم، والدعوة التي تكررت لهذه المعارضة، ولهمي أهون عليهم مما قاموا به^(١).

٢- أن العرب قعدوا حتى عن تجربة المعارضة، ولم يشرع منهم إلا أقلهم عدداً، وأسفهم رأياً، إذاً: فلقد كانوا في غنى بهذا العلم الضروري عن طلب الدليل عليه بالمحاولات والتجارب.

لقد كان القرآن نفسه مثار عجبهم وإعجابهم، ولقد كانوا يخرون سجداً لسماعه.

(١) أيخادونه عن دينه ليلين لهم ويركن قليلاً إلى دينهم أم يساومونه بالمال والملك ليكشف عن دعوته، أم يتواصون بمقاطعته، وبحبس الزاد عنه وعن عشيرته الأقربين حتى يموتوا جوعاً أو يسلموه، أم يمنعون صوت القرآن أن يخرج من دور المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم، أم يلقون فيه الشبهات والمطاعن، أم يتهمون صاحبه بالسحر والجنون ليصدوا عنه من لا يعرفه من القبائل القادمة في المواسم، أم يمكرون به ليشنتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، أم يخاطرون بمهمتهم وأموالهم وأهليهم في محاربته، أفكان هذا كله تشاغلاً عن القرآن وقلة عناية بشأنه؟ ثم لماذا كل هذا وهو قد دلهم على أن الطريق الوحيد لإسكاته هو أن يجيئوه بكلام مثل الذي جاءهم به؟ ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره في يدهم؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب، وكان القتل والأسر والفرار والذل كل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذي دلهم عليه. فأي شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز.

الحجـةـ الثانيةـ:ـ جـديـدـ لـغـةـ القرـآنـ

لم يخرج القرآن عن لغة العرب، ولا عن سنته في الكلام، ولكن الجديد في جديد لغة القرآن: أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد، القرآن وأمسها رحماً بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويوضع كل متنقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرأته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين.

لا يوماً أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً، ولا الساكن يبعي عن منزله حولاً .. وعلى الجملة يحيى كل من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان.

بل إن لغة القرآن لتختلف عن لغة مبلغ القرآن، وهو الرسول صلوات الله وسلامه عليه، نحن نرى الأسلوب القرآني فنراه ضرباً وحده، ونرى الأسلوب النبوي، فنراه ضرباً وحده لا يجري مع القرآن في ميدان إلا كما تجري محلقات الطير في جو السماء لا تستطيع إليها صعوداً، ثم نرى أساليب الناس فنراها على اختلافها ضرباً واحداً لا تعلو عن سطح الأرض، فمنها ما يحبون حبواً، ومنها ما يشتدد عدواً، ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه «السيارات» الأرضية إلى تلك «السيارات» السماوية!

بل يمكن أن يستrip البليغ العالم في لفظة من الألفاظ النبوية، تشتبه عنده بألفاظ الصحابة والتابعين، لكنه لا يستrip البتة في الأسلوب القرآني، فإن له طابعاً لا يلتبس بغيره.

**النظام
الصوتي،
والجمال
التركيبي**

- النظام الصوتي:

إن للقرآن خاصية في تأليفه الصوتي في شكله وجوبه، إن أول شيء أحسنته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكن تقسيماً منوعاً يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط الذي يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس به آنا بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى، وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حد الإسراف في الاستهواء، ثم إلى حد الإملال في التكرير.

فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتهمياً لها بتلك السهولة في منتشر كلامها سواء منه المرسل والمسجوع؛ بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب تغض من سلاسة تركيبه، ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه.

- الجمال التركيبي:

ترى في القرآن كلاماً ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتنزجت فيه جزالة البدائية وفخامتها برقة الحاضرة وسلامتها، وقدر فيها الأمر تقديرًا لا يبغي بعضهما على بعض. فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلامتهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل، عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تتألف قلوبهم.

ومن هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني.

الحجّة الرابعة: الخصائص البينية للقرآن الكريم

إن الأسلوب القرآني «تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها على تباعد ما بين الخصائص البينية للقرآن الكريم أطراها».

وقد تعددت الخصائص البينية في القرآن الكريم، ومنها :

١- القصد في اللفظ، والوفاء بالمعنى.

فإنك تجد في القرآن بياناً قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير، يؤدي من كل معنى صورة نقية وافية، وكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها - لم توجد.

٢- الجمع بين خطاب العامة والخاصة.

فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفي كلام بطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهمهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد.

٣- إقناع العقل، وإمتاع العاطفة.

في النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجдан، وحاجة كل واحدة منهمما غير حاجة أختها.

وفي القرآن وفاء هاتين الحاجتين على التمام، اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعِرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وانظر كيف اجتمع الاستدلال والتهويل والاستعظام في هذه الكلمات القليلة.

بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات اليقينية ووضوح المقدمات المسلمة ودقة التصوير لما يعقب التنازع من «الفساد» الرهيب، فهو برهاني خطابي عاطفي معاً.

٤- الجمع بين البيان والإجمال.

وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن ولا تجدها فيما سواه، تقرأ القطعة من القرآن فتجد في لفاظها من الشفوف، والملasse والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يت سابق به مغزاها إلى نفسها دون كد خاطر ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلاماً ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة، وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به بُحراً، ووقفت على معناه محدوداً؛ هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيك منه بإزاء معنى جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك.

٥- الوحدة الموضوعية.

لا يُستراب أن القرآن نزل مفرقاً حسب الواقع والداعي، وأن ترتيبه إنما وقع بوحي من الله، ولا شك أن القرآن أكثره يتناول شؤون القول، ويتنقل بين تلك الشؤون من وصف، إلى قصص، إلى تشريع، إلى جدل إلى ضروب شتى.

- ومع ذلك، وكون هذا الانفصال الزمني، والاختلاف الذاتي يستتبعان تفكيك الكلام، وتقطيع أوصاله؛ إلا أنها نجد السورة من القرآن كالشيء الواحد لا انفصام بين قطعة وأخرى، ولا بين مفتاح وختام.

إنه لا يجرؤ في قراره الغيب على وضع هذه الخطة المفصلة المصممة إلا أحد اثنين: جاهل جاهل في حضيض الجهل؛ أو عالم عالم فوق أطوار العقل.
لا ثالث.

إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشوأ، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً؛ فإذا هي -لو تبررت- بنية متamasكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أساس وأصول، وأقيمت على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصير أو تطول؛ فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة،

لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامن والالتحاق.

كل ذلك بغير تكلفة ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض وقطعه وأثنائه، يرييك المنفصل منصلاً، والمختلف مُؤْتَلِفاً.

المقدمة الثانية

موقف المسلمين من القرآن، وسلامة النص القرآني من التحريف^(١)

(١) اعتمدنا في تدوين هذا المبحث بكماله على ثلاثة كتب رئيسة:

- ١- الدليل التقلي، للدكتور أحمد قوشتي: (٤٤-٤٤)، ط. فكر.
- ٢- الصراع بين الأخباريين والأصوليين داخل المذهب الشيعي والإثني عشرى، للدكتور أحمد قوشتي: (٥٥-٦٦)، ط. مركز تكوين.
- ٣- العقائدية، وتفسير النص القرآني، للدكتور ياسر المطربى، ط. مركز نماء. كما اعتمدنا على بعض مصادر الشيعة، وهي:
 - ١- محطات في تاريخ القرآن، مرتضى فرج، ط. دار الانتشار العربي، وهو كتاب مهم جدًا، لولا ما فيه من تشيع، وأحكام مسبقة، ومع ذلك فإن طالب العلم يستفيد منه فائدة كبيرة.
 - ٢- نصوص في علوم القرآن، الأجزاء (٣، ٤، ٩)، تأليف مجموعة من علماء الشيعة. ويمكن الرجوع لمصادر أخرى، منها:
 - ١- دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم، د. محسن المطيري، ط. دار الشائر الإسلامية.
 - ٢- ثبوت القرآن بين أهل السنة والشيعة الإمامية، د. محمد الصياد، دار النور المبين.
 - ٣- تاريخ القرآن عند الشيعة الاثنى عشرية، عبد العزيز الصامر، ط. مركز تكوين.
 - ٤- تنزيل القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، منقد السقار، ط. مركز تكوين.
 - ٥- موثوقية نقل القرآن، عبد الله رمضان موسى، ط. مكتبة التوعية.

مُهْرَبَة

نعرف أننا لا نستطيع الوفاء بحق هذا المبحث في هذه المقدمة اليسيرة، لكننا سنحاول أن نضع الحجج الكافية لمن كان له قلب على سلامة النص القرآني مما حصل لغيره من الكتب.

لقد اتفقت كلمة المسلمين جمیعاً على أن القرآن كلام الله، وحججة من أعظم موقف الفرق حججه على عباده، وأبلغها دلالته، وتقرر بينهم «أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، القرآن الكريم وينبئ الحكمة، وأية الرسالة، ونور الأ بصائر والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه»^(١)، وهذا كله لا يحتاج إلى مزيد تقرير واستدلال؛ لأنَّه معلوم من الدين بالضرورة، وركيزة أساسية من ركائز العقيدة الإسلامية عند كل مقرٍّ بهذا الدين، ومُسلم به.

كما أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على أنَّ القرآن نُقلَ إلينا بتمامه وكماله كلمةً، وحرفاً حرفاً، سالماً من النقصان أو التحريف، ومحفوظاً من عبث العابين.

وقد حكى أبو محمد بن حزم - وهو من المتشبّتين في نقل الإجماع، ونسبته لأصحابه - الاتفاق على الأمرين السابقين من جميع الفرق المنتسبة إلى الإسلام؛ كأهل السنة، والمعتزلة، والخوارج، والمرجئة، والزيدية، فكلهم يوجب «الأخذ بما في القرآن، وأنه هو المتلئ عندنا نفسه، وإنما خالف في ذلك قوم من غلاة الروافض، هم كفار بذلك، مشركون عند جميع أهل الإسلام»^(٢).

فأما اهتمام أهل السنة بالقرآن، وعنایتهم به، من زمان الصحابة رضوان الله

(١) المواقفات: (٣/٢٠٠).

(٢) الإحکام في أصول الأحكام: (١/٩١).

عليهم = فمعلوم مشهور، صنفت فيه المصنفات، وقد اهتموا بالقرآن جمّعاً، وإقراءً، وتفسيراً، وعملاً^(١).

يقول ابن الوزير: «فَأَمَّا كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ نَظَرْتَ فِي إِعْجَازِهِ، فِي بِلَاغَتِهِ وَأَسْلُوبِهِ، أَوْ فِيمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَخْبَارِ غَيْوَبِهِ، عَرَفْتَ بِالضَّرُورةِ الْعَادِيَةِ»^(٢) عَجْزُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ -مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَنِ أَجْمَعِينَ- عَنِ الْإِتِيَانِ بِمُثْلِهِ، أَوْ سُورَةً مِنْ مُثْلِهِ. وَمَا أَوْضَحَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأُنَوِّعُ إِنْ شَاءُونَا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

إِنْ نَظَرْتَ فِيمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ، مِنَ الْمَنْعِ عَنِ الْمَفَاسِدِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَصَالِحِ، وَالْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ، وَالْأَحْكَامِ الْعَادِلَةِ، عَلِمْتَ بِالْبَرْهَانِ -إِنْ كُنْتَ مِنْ عَارِفِيهِ-، وَبِالْقُرْآنِ -إِنْ كُنْتَ مِنْ مُتَدَبِّرِيهِ- صِدْقَ قَوْلِ مَنْ أَنْزَلَهُ سَبَحَانَهُ: ﴿وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ الشَّيْطَانُ ۚ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۖ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢-٢١٠].

وَقَدْ جَمَعَ -سَبَحَانَهُ- فِي هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ -لَمَنْ تَأْمَلَهَا-: بَيْنَ الْوِجُوهِ الْثَّلَاثَةِ الْمُتَقْدِمَةِ، فَأَشَارَ إِلَى الْأُولَى، وَهُوَ الْعَجْزُ عَنِ مُثْلِهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، وَإِلَى الثَّانِي، وَهُوَ جَهْلُهُمْ بِالْغَيْبِ الَّذِي فِيهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، وَإِلَى الثَّالِثِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَصْدِرُ مِنْهُمْ مَا فِيهِ الْإِرْشَادُ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْمَنْعُ عَنِ الْشَّرِّ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾^(٣).

وَذَكَرَ أَئْمَةُ أَهْلِ السَّنَةِ أَنَّ أَحَقَّ مَا صَرْفَتْ إِلَى عِلْمِهِ الْعَنْيَةَ، وَبَلَغَتْ فِي مَعْرِفَتِهِ الْغَايَةَ، مَا كَانَ لِلَّهِ فِي الْعِلْمِ بِهِ رَضَا، وَلِلْعَالَمِ بِهِ إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ هُدًى، وَأَنَّ أَجْمَعَ ذَلِكَ لِبَاغِيِهِ، كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي لَا رَيْبُ فِيهِ، وَتَنْزِيلُهُ الَّذِي لَا مَرِيَةُ فِيهِ، الْفَائزُ

(١) انظر:

- ١- المدخل إلى التعريف بالمصحف الشريف، د. حازم حيدر.
 - ٢- العناية بالقرآن الكريم وعلومه من بداية القرن الرابع الهجري إلى عصرنا الحاضر، د. نبيل آل إسماعيل.
 - ٣- دليل الكتب المطبوعة في الدراسات القرآنية، معهد الإمام الشاطبي.
 - ٤- القرآن في حياة الصحابة والآل، عمرو الشرقاوي.
- (٢) لعل الأفضل: المعتادة.
- (٣) العواصم والقواسم: (٢٠٣-٢٠٤).

بجزيل الذخر وسنى الأجر تاليه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد^(١).

ويقول شيخ الإسلام في أهمية الاهتمام بالقرآن، وفهم معانيه: «وأما في «باب فهم القرآن» فهو دائم التفكير في معانيه، والتدبر لألفاظه، واستغناه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن؛ فإن شهد له بالتزكية - قبله، وإن رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد - وقفه، وهنته عاكفة على مراد ربه من كلامه.

ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن إما باللوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك - فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد رب من كلامه.

وكذلك شغل النطق ب﴿أَنذَرْتَهُم﴾ وضم الميم من (عليهم ووصلها بالواو وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك). وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت.

وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها باليان.

وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم. كذلك تأويل القرآن على قول من قلد دينه أو مذهبه فهو يتسعف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبة، وتقوية لقول إمامه.

وكل محظيون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره.

وكذلك يظن من لم يقدر القرآن حق قدره أنه غير كاف في معرفة التوحيد والأسماء والصفات وما يجب لله وينزه عنه؛ بل الكافي في ذلك عقول الحيارى

(١) جامع البيان، للطبرى: (٧/١).

والمتهوكيين الذين كل منهم قد خالف صريح القرآن مخالفة ظاهرة، وهؤلاء أغاظ الناس حجاباً عن فهم كتاب الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم^(١)، وكلامهم في هذا يطول.

وكذلك، فإن سائر الفرق الإسلامية على هذا الاعتقاد، لقد كان القرآن معظماً كمرجعية عند عموم الطوائف المنتسبة للإسلام، فالقصاص (ت: ٣٦٠هـ) -والذي ينتسب لاتجاه أهل الحديث- يذكر مقصد تأليفه كتابه «نكت القرآن»، فيقول: «هذا كتاب «نكت القرآن» الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام والمبينة عن اختلاف الأنام في أصول الدين وشرائعه . . . أودعتها -بعون الله تعالى- كتابي هذا عدة على المخالفين، وحجة على المبتدعين؛ إذ هي بحمد الله شافية كافية»^(٢).

وكذلك الأمر عند الاتجاه الكلامي، فالمعزلة - والتي تعتبر أكثر المذاهب العقائدية اعتماداً على العقل -، تؤكد هذه المرجعية، فيقول الخياط (ت: ٣٠٠هـ) فيما يحكيه عنهم: «من أخبار الله عند المعتزلة القرآن، وهو حجتهم على من خالفهم في توحيد، أو عدل، أو وعيد، أو أمر بمعرفة، أو نهي عن منكر»^(٣). ويُقرّرها القاضي عبد الجبار المعتزلي بقوله: «فأمّا ما يتضمنه القرآن من المعاني والدلالة، والأحكام الشرعية واستقامة جميع ذلك على النور والامتحان وزوال التناقض عند التفريع والاستنباط ووضوح القول في ذلك على الأوقات، حتى إنَّ أهل كل علم يلتजئون إليه في أصول علومهم، ويبنون عليه كتبهم؛ فإنَّ المتكلمين إنما بنوا الكلام في التوحيد على ما ذكره -تعالى- في كتابه، نحو قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ الْأَيَّلِ وَالنَّهَارِ لَأَوْلَى الْأَلْبَابِ﴾ . . . وعلى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَ إِنْرَهُمْ فِي رَيْهِ﴾ . . . إلى غير ذلك؛ واعتمدوا في التوحيد والبعث، والنشور، والإعادة وفي حديث

(١) مجموع الفتاوى: (٥٠/١٦).

(٢) نكت القرآن، ابن القصاص، (١/٧٧).

(٣) الانتصار، ابن الخياط، (ص/٧٨).

الأجسام وإثبات الأعراض ووجوب النظر والتفكير، على ما ذكره في كتابه ممّا يطول ذكره ...»^(١).

والأمر نفسه عند الاتجاه الشيعي، فالطوسى الإمامى (ت: ٤٦٠ هـ) يذكر أنَّ أحد مقاصد تفسيره: ذكر الاستدلالات العقائدية التي فيها رد على المخالفين، فيقول: «الكلام على المتشابه والجواب عن مطاعن الملحدين، وأنواع المبطلين، كالمجبرة والمشبهة والمجسمة وغيرهم، وذكر ما يختص أصحابنا من الاستدلال بموضع كثيرة منه على صحة مذهبهم في أصول الديانات وفروعها ...»^(٢).

وقد حكى ابن الوزير في (ترجح أساليب القرآن على أساليب اليونان)^(٣)، عن الشيعة والزيدية والمعتزلة والأشعرية احتواء القرآن الدلائل الكافية.

ونسبه الفخر الرازى في (الأربعين)^(٤) إلى كل الطوائف بـ[عدم القدرة] على الزيادة في تقرير دلائل الاعتقاد على ما ورد في القرآن.

وسأفصل في هذا المدخل موقف بعض الفرق الإسلامية من القرآن الكريم، لتأكيد على إجماع أهل الإسلام على تلك المرجعية، والتأكد على عظمة هذا الكتاب، وأن تعظيمه هو الموقف العام لدى الفرق الإسلامية على اختلافها.

وهذا من الأدلة المهمة على عدم تحريف القرآن الكريم، وعدم طروء تحريف في نص القرآن الكريم، وقبول الكافة لهذا النص، وأنه لا يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية على تنازعها، لمن أكبر الحجج على صحة النص المنزل الموجود معنا^(٥).

أولاً: موقف المعتزلة من حجية القرآن وقطعية ثبوته

تابعت أقوال أئمة الاعتزال في بيان حجية القرآن الكريم، وإثبات دلالته على موقف المعتزلة المسائل العقدية، وإمكانية الاحتجاج به، والتعويل عليه، سواء بالتصريح، وإقامة القرآن وقطعية ثبوته

(١) المغني، القاضي عبد الجبار، (٣٢٥/١٦).

(٢) تفسير البيان، الطوسى، (٣/٥٨١).

(٣) (١٥-١٦).

(٤) (٣٠٤).

(٥) انظر في هذا المعنى: المدخل إلى القرآن الكريم، د. دراز: (٤٢).

الأدلة والبراهين على ذلك، أو بالرد والتفنيد لأباطيل مَنْ طعن في القرآن، أو أثار الشُّبه والشكوك حوله.

وقد عد المعتزلة القرآن أحد المصادر التي يستشهد بها على معرفة الحقائق، والوصول إليها، يقول واصل بن عطاء: «الحق يعرف من وجوه أربعة: كتاب ناطق، وخبر مجتمع عليه، وحجة عقل، وإجماع»^(١)،

وحكى عنه زوجته «أنه كان إذا جنه الليل صف قدميه يصلي، ولوح دوحة موضوعان بجانبه، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتها، ثم عاد في صلاته»^(٢).

وقد صنف المعتزلة في تفسير القرآن، وكتبوا في إعجازه.

وقد سخر الجاحظ قلمه السيال وبيانه الرفيع في نصرة مذهب المعتزلة، والرد على مخالفيه، ومن ذلك احتجاجه للقرآن ودفاعه عنه، وقد بلغت جهوده في هذا الصدد درجة دعت الخياط إلى المبالغة في الثناء عليه ومدحه، جازماً بأنه ليس في المتكلمين أحد نَصَرَ الرسالة واحتَجَ للنبوة مثلما فعل الجاحظ، ولا يُعرف كتاب في الاحتجاج لنَظَمِ القرآن وعجب تأليفه غير كتابه الموسوم بـ«نظم القرآن»، وقد ذُكر أنه أجهد فيه نفسه، وبلغ أقصى ما يمكن لمثله في الاحتجاج للقرآن والرد على كل طعن^(٣).

وتتميز أقوال الجاحظ بخصيصة ينفرد بها عن سائر أصحابه المتكلمين، تتجلى في فصاحته الواضحة، وبلاعته العالية، ولغته الجزلة، التي تربط كثيراً من جفاف الأسلوب الكلامي وعباراته المغلقة.

ففي حديثه عن القرآن وحجيته، وعظيم منزلته ومكانته، يصفه بأنه «حجۃ على الملحد، وتبیان للموحد، وقائم بالحلال المتنزّل، والحرام المفصل، وفاصل بين الحق والباطل، وحاکم يرجع إليه العالم والجاهل، وإمام تُقام به الفروض والنواقل، وسراج لا يخبو ضياؤه، ومصباح لا يخزن ذکاره، وشهاب لا يطفأ

(١) فضل الاعتزال: (٢٣٤).

(٢) المنية، والأمل: (٤٤-٤٣).

(٣) الجاحظ، حياته وأثاره: (٣٢٦-٣٢١).

نوره، ومعدن لا تنقطع كنوزه^(١)، ولا يخفى الفرق بين الأسلوب وبين النهج الكلامي ذي التقسيمات، والتفرعات المتشعبية، والمسالك العقلية الدقيقة التي يستعصي فهمها إلّا على قلة من المتخصصين.

وإذا انتقلنا إلى الجامعين بين الاعتزال والتشيع بفرعيه الريدي والاثني عشري، فسوف نجدهم لا يخرجون عن موقف المعتزلة العام في تقرير حجية القرآن، ومكانته في الاستدلال، والمطالع لرسائل العدل والتوحيد يلحظ بوضوح تياراً يتميز بكثرة الاستشهاد بالنص القرآني سواء من ناحية كم الآيات وعددها، أو من ناحية كيفية الاستدلال بها.

ونصل إلى القاضي عبد الجبار الذي انتهى إليه التراث الاعتزالي عبر مراحله المختلفة فأصله، وأقام منه بناء يتسم بالتناسق الفلسفية، وبلور أصول المذهب، واستفاض في شرحها، والدفاع عنها، و موقفه من حجية القرآن كموقف سائر أصحابه، وإن تميز بنوع من البسط والتفصيل أعاده عليه عصره المتأخر -نسبياً- واطلاعه على تراث متقدمي أصحابه، ثم شعوره بكثرة ما وُجه إلى الفكر الاعتزالي من تهم تصفه بقلة الاهتمام بالنصوص، وعدم إزالتها منزلة الصدارة في الاستدلال، ومن ثم جاءت كتاباته لنفي هذه التهمة وما شابها.

وي Finch القاضي في أكثر من موضع على أهمية الاستدلال بالقرآن في مسائل العقيدة وسائر العلوم، مبيناً أن «أهل كل علم يلتبعون إليه في أصول علمهم، ويبنون عليه كتبهم، فإن المتكلمين إنما بنوا الكلام في التوحيد على ما ذكره تعالى في كتابه»^(٢).

ويتفق المعتزلة مع سائر الأمة في القول بقطعية ثبوت النص القرآني جملةً وتفصيلاً، ووصوله إلينا كما أنزل على الرسول ﷺ، سالماً من أي تحريف بالزيادة أو النقصان، ومن إنصاف أبي الحسن الأشعري وأمانته العلمية أنه لم يبخس المعتزلة حقهم في هذه المسألة، ولم يحمله ما بينه وبينهم من خصومة ونزاع على أن ينسب إليهم ما لم يقولوه، لا سيما وأن الموضوع يمس جانباً

(١) أمراء البيان: (٣٤٨/٢).

(٢) المغني، للقاضي: (١٦/٣٢٩-٣٣٠).

خطيرًا من جوانب العقيدة، فعندما عرض لحكاية مذهب الرافضة في القرآن، وذكر أن بعضهم زعم وقوع النقص أو الزيادة فيه، عَقَّبَ على إثر ذلك بإيضاح مذهب من تأثر بالمعتزلة من الرافضة، وأنهم يخالفونهم، ويعتقدون أن القرآن «ما نُقص منه، ولا زيد فيه، وأنه على ما أنزل الله تعالى على نبيه لم يُغَيِّرْ، ولم يُبَدِّلْ، ولا زال عما كان عليه»^(١).

وأقوال المعتزلة الخالص أكثر تفصيلاً، وأوضح دلالة، فالجاحظ يدللي بدلوه في هذه المسألة، ويقطع بصحة النص الذي اجتمع عليه المسلمين سلفاً وخلفاً، والمتمثل في مصحف عثمان رض؛ حيث اتفق على صحته أول الأمة وأخراها، وما كان هذا حاله فهو ظاهر الصواب، واضح البرهان^(٢).

ويؤكد الحاكم الجسمي أن سلامه النص القرآني من النقص أو الزيادة أظهر من أن يُنْصُرَ الخلاف فيها، وقد صدر كتابه «التهذيب في التفسير» بخطبة منبئة عن مذهبه، فالله تعالى «أنزل القرآن، وصانه عن التحريف والزيادة والنقصان، ونسخ به سائر الأديان»^(٣).

وحذا الزمخشري حذو سابقيه؛ فعقد مقارنة بين حفظ الله للقرآن، وبين الكتب السماوية السابقة، التي لحقها أنواع من التغيير والتبدل، وأرجع السبب في ذلك إلى تكفل الله تعالى بحفظ القرآن، فكان «حافظه في كل وقت، من كل زيادة ونقصان، وتحريف وتبدل، بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتول حفظها، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار، فاختلقو فيما بينهم بغيًا، فكان التحريف»^(٤).

ومن جملة اعتقاد المكلف في القرآن -عند القاضي عبد الجبار- أنه محروس عن المطاعن لا زيادة فيه ولا نقصان، وهو يحكم بالكافر -في أسلوب جازم، وعبارة قاطعة- على من ينكر شيئاً منه، سواء أكان سورة أم آية، وينسب حكم التكفير إلى المسلمين جميعاً، «فالآمة مكفرة لمن يجحد السورة منه والآية، كما

(١) مقالات الإسلاميين: (١٢٠/١).

(٢) رسائل الجاحظ: (١٢٢).

(٣) التهذيب، الورقة الأولى، عن الحاكم الجسمي، عدنان زرزور: (٦٥).

قلت (عمرو): وقد حق الكتاب ونشر.

(٤) الكشاف: (٢/٥٧٢).

يُكفرون مَن يجحد تحريم الخمر، والزنى، ووجوب الصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان؛ لأنهم يعلمون ذلك بالنقل على سبيل الاضطرار كما يعلمون غيره^(١).

وتبدو أهمية هذا النص في تحديده موقف المعتزلة من ثبوت النص القرآني على سبيل القطع واليقين، كما يقدم حجة قوية أمام الاتهامات التي طالتهم، بما نخلص من خلاله إلى أنهم لا يخرجون عن آراء بقية الأمة، وليس بينهم وبين أهل السنة خلاف يذكر في هذه المسألة.

ثانيًا: موقف الأشاعرة من حجية القرآن وقطعية ثبوته

لا يحتاج الموقف الأشعري إلى مزيد إطالة في عرضه، أو التدليل عليه، موقف الأشاعرة فنصوص أئمة المذهب كثيرة ومتنوعة في هذا الصدد، وصلتهم بالدراسات القرآنية القرآن وقطعية على اختلاف أنواعها -وخصوصاً التفسير- صلة بارزة، واضحة للعيان، بدءاً من ثبوته مؤسس المذهب أبي الحسن الأشعري، ومروراً بالباقلاني وابن فورك، وعبد القاهر البغدادي، إلى أن نصل إلى أساطين المذهب من المتأخرین. وكثير من أئمة التفسير من المتأخرین على مذهب الأشاعرة في العقيدة، ومصنفاتهم محررة جامعة، ومختصرة نافعة.

ويحكي الأشعري إجماع سلف الأمة على التصديق بالقرآن، والإقرار بكل ما ورد فيه جملة وتفصيلاً، فقد «أجمعوا على التصديق بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ في كتاب الله ... والإقرار بنص مشكله ومتشابهه، ورد كل ما لم يحط به علمًا بتفسيره إلى الله مع الإيمان بنصه»^(٢)، والقول الأمثل والمنهج المختار عنده هو التمسك بكتاب الله وسُنّة رسوله، وأقوال الصحابة والتبعين، وكتطبيق عملي لهذا المسلك النظري أورد الأشعري في كتابه «الإبانة» -مع صغر حجمه- ما لا يقل عن مائتين وخمسين آية، بحيث لا تكاد صفحة تخلو من ذكر آية أو أكثر، على عكس ما نراه في كتب المتكلمين من المتأخرین، والتي ربما مرت عشرات

(١) شرح الأصول الخمسة: (٦٠١-٦٠٧).

(٢) رسالة إلى أهل الشغر: (٩٨)، وأصول الدين، لعبد القاهر: (٢٨٧).

الصفحات ولا يُذكر فيها نص واحد، بل تقتصر على إيراد الحجج العقلية، وذكر الشبه، والرد عليها.

ويعد الباقلاني -المنظر الثاني للمذهب- أبرزَ مَن اهتم بهذه القضية من الأشاعرة؛ حيث أولاًها عنابة خاصة، وركز عليها، علماً منه بأن دين الإسلام قائم في أساسه على القرآن الكريم، وأن آية محاولة للتشكيك في صحة هذا الكتاب والطعن فيه ليست إلّا سلماً للقضاء على الدين، وهدم ثوابته الرئيسية.

وقد خصها بكتابين مفردين، «إعجاز القرآن»، لإثبات أن القرآن كلام الله، موحّي به من عنده، وأنه حجة من أعظم الحجج، فيه الحكمة، وفصل الخطاب، مجلوة عليك في منظر بهيج، ونظم أنيق، ومعرض رشيق، غير متعارض على الأسماع، ولا متلو على الأفهام، ممتلىء ماء ونضارة، ولطفاً وغضارة، يسري في القلب كما يسري السرور، ويمر إلى موقعه كما يمر السهم، ويضيء كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، وكتابه هذا من الكتب الرائدة في باب إعجاز القرآن، وحظي بإعجاب الكثرين، ودارت حوله دراسات عدّة، ووُصف بأنه باب في الإعجاز على حدة.

أما الكتاب الثاني، فقد أفرده لإثبات صحة نقل القرآن وقطعيّة ثبوته، وعنوانه يدل على مضمونه لأول وهلة؛ حيث أسماه «الانتصار لنقل القرآن» وعقد فيه فصولاً مطولة لإثبات صحة المصحف العثماني، والرد على شبه الرافضة التي أثاروها حوله، واتهاماتهم للصحابة بالنقص والزيادة فيه، كما تعرض لما دار من خلاف حول الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، القراءات التي فُرِئَ بها، وغير ذلك من الموضوعات المختلفة المتعلقة بنقل القرآن، وكيفية جمعه، وطريقة أدائه، منتهياً إلى أن «جميع القرآن الذي أنزله الله تعالى، وأمر بإثباته، ولم ينسخه، ولا رفع تلاوته، هو هذا الذي بين اللوحين، الذي حواه مصحف عثمان رضي الله عنه، ولم ينقص منه شيء، ولا زيد فيه شيء، نقله الخلف عن السلف»^(١)، وقد نقل عنه ابن تيمية، والزرκشي، والسيوطى، وغيرهم.

(١) نكت الانتصار للقرآن: (٦٥، ١٢٠، ٢٣٩، ٣١٥).

ولائمة الأشاعرة نصوص كثيرة في إثبات قطعية النص القرآني، وتکفیر مَنْ يُنکر شيئاً منها، ومن ذلك قول الحليمي: «مَنْ أَجَازَ أَنْ يَتَمکَّنَ أَحَدٌ مِنْ زِيادَةِ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ نَقْصَانَهُ مِنْهُ، أَوْ تَبْدِيلِهِ، أَوْ تَحْرِيفِهِ؛ فَقَدْ كَذَّبَ اللَّهَ فِي خَبْرِهِ، وَأَجَازَ الْوُقُوعُ فِيهِ، وَذَلِكَ كُفَّرٌ»^(۱).

وسائل الفرق الإسلامية على هذا الرأي، فقد عُرف عن الخوارج تعظيمهم البالغ لكتاب الله، ومواظبتهم على قراءته، والتبعده به، وصحيح أنه شَابَ هذا التعظيم غلو وسوء فهم أدى بهم إلى ما وصلوا إليه من ابتداع وضلال، لكنه لا يؤثر على تعظيمهم للقرآن، واعتقادهم عدم تحريفه، وقد أشار ابن تيمية إلى أن الخوارج يُعَظِّمون القرآن، ويُوجِّهُونَ اتِّبَاعَه^(۲).

لكن يبقى لنا الحديث عن موقف الرافضة من القرآن الكريم.

ثالثاً: موقف الرافضة من القرآن الكريم

قبل البدأ في بيان هذه المسألة، يحسن بنا أن نعرف أن الاتجاه الشيعي موقف الرافضة الإمامي ينقسم من حيث المنهج إلى اتجاهين: الاتجاه الأخباري، والاتجاه الكريمية الأصولي:

فالأخبارية هم: من يعتمد في استنباط الأحكام على الأخبار فقط، كما يعرفهم بذلك شيخ الأخباريين المتأخرین الإسترابادي^(۳).

أي: إنَّه اتجاه يعتمد على النقل فقط، ولا يرى للعقل مكاناً واعتباراً.

والأصوليون هم: «الذين يلجؤون في مقام استنباط الأحكام إلى الأدلة الأربع من الكتاب، والسنة، والإجماع، ودليل العقل»^(۴).

(۱) المنهاج في شعب الإيمان: (۳۲۰/۱).

(۲) التسعينية، ضمن الفتاوی الكبرى: (۱۵۲/۵).

(۳) انظر: الفوائد المدنية، الإسترابادي، (۹۱، ۴۸، ۴۷)، ونظرية السنة في الفكر الإمامي، حيدر حب الله، (۲۱۶)، ومصادر التلقي والاستدلال العقدية عند الإمامية الثانية عشرية، إيمان العلواني، (۴۴/۱).

(۴) انظر: الأصوليون والأخباريون فرقاً واحدة، لفرج العمران، (۱۸)، ومصادر التلقي والاستدلال العقدية عند الإمامية الثانية عشرية، العلواني، (۴۱/۱).

وقد ظهر التمايز بين هذين الاتجاهين مع بداية دخول علم الكلام على المذهب الشيعي على يد المفید والطوسی في القرن الرابع، ومن بعدهما الشیرف المرتضی والرضی، ومن أقدم النصوص التي تدل على وجود هذا الانقسام، ما قاله المفید مناقشًا شیخه الصدوق: «الذی ذکرہ الشیخ أبو جعفر رَحْمَةُ اللّٰہِ عَلٰیہِ فی هذَا الباب لا یتحصل، ومعانیه تختلف وتتناقض، والسبب فی ذلك أنَّه عمل علی ظواهر الأحادیث المختلفة، ولم يكن ممَّن یرى النظر، فیمیز بین الحق منها وبالباطل، ویعمل علی ما یوجب الحجة، وَمَنْ عَوَّلَ فی مذهبه علی الأقوایل المختلفة وتقلید الرواۃ كانت حاله فی الضعف ما وصفناه»^(۱).

وله كتاب سماه: «مقابس الأنوار في الرد على أهل الأخبار»^(۲)، وهي تسمية صريحة تدل على وجود هذا التيار فيهم من زمان متقدم. ومن أجل ذلك گُرف هذا التيار الأخباري بـ(أصحاب الحديث)، والذين منهم الصدوق الذي يصفه تلميذه المفید -كما سبق- بـأنَّه: «علی مذهب أصحاب الحديث فی العمل بظواهر الألفاظ، والعدول عن طريق الاعتبار»^(۳).

ويقول المرتضی ناقداً أصحاب الاتجاه الأخباري: «ودعنا من مصنفات أصحاب الحديث من أصحابنا، فما فی أولئک محتاج، ولا من یعرف الحجة، ولا کتبهم موضوعة للاحتجاجات»^(۴).

ومن أصرح النصوص فی ذکر هذا التقسيم وأقدمها، نص ابن المطہر الحلی (ت: ۷۷۶ھ)، حيث يقول: «أَمَّا الإِمامَيْة؛ فَالأخْبَارِيُّونَ مِنْهُمْ مَعَ أَنَّ كُثْرَةَ الشِّیعَةِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ مَا كَانَ إِلَّا مِنْهُمْ لَمْ یَقُولُوا فِي أَصْوَلِ الدِّینِ إِلَّا عَلَى أَخْبَارِ الْأَحَادِ الْمَرْوِيَّةِ عَنِ الْأَئْمَةِ رَحْمَةُ اللّٰہِ عَلٰیہِ، وَالْأَصْوَلِيُّونَ مِنْهُمْ كَأَبِي جعفر الطوسی رَحْمَةُ اللّٰہِ عَلٰیہِ وغیره وافقوا علی قبول خبر الواحد، ولم ینکرہ سوی المرتضی وأتباعه»^(۵).

(۱) تصحیح اعتقادات الإمامیة، المفید، (۴۹).

(۲) رجال النجاشی، النجاشی، (۴۰۱).

(۳) تصحیح اعتقادات الإمامیة، المفید، (۱۳۸).

(۴) رسائل المرتضی، (۱/۲۶، ۲۷).

(۵) نهاية الوصول، الحلی، (۲۹۶).

وقد ذكر بعض أهل المقالات هذا التقسيم في المذهب الشيعي: كالشهرستاني (ت: ٤٥٤هـ)، وكلامه يُعتبر من أقدم النصوص في كتب المقالات التي تذكر أنَّ الأخبارية فرقة قائمة ضمن الكيان الإمامي، يقول عنهم: «وكانوا في الأول على مذهب أئمتهم في الأصول، ثم لَمَّا اختلفت الروايات عن أئمتهم، وتمادي الزمان اختارت كل فرقة منهم طريقة فصارت الإمامية بعضها معترضة إِمَّا وعیدیة، وإِمَّا تفضیلية وبعضها أخبارية، إِمَّا مشبهة، وإِمَّا سلفية، ومن ضل الطريق وتاب له لم يبال الله به في أيِّ وادٍ هلك»^(١).

وذكرها كذلك الإيجي (ت: ٧٥٦هـ)^(٢) وغيره.

وهذه النصوص تدلُّ على تقدُّم وجود هذه الظاهرة بخلاف من يرى أنَّ وجودها كان متأخرًا على يد الإسْتَرَابَادِي، (ت: ١٠٣٦هـ).

وبعد معرفة انقسام الشيعة الإثنى عشرية إلى هذين الاتجاهين، فلنك أن تعلم أن الشيعة انقسموا حول قضية وقوع التحرير في القرآن إلى اتجاهين أيضًا^(٣):

الاتجاه الأول: قول جل الأخباريين وعدد من علماء الأصوليين، وهم يرون وقوع التحرير في القرآن الكريم -عياديًا بالله- سواء أكان تحريرًا بالزيادة أو النقصان.

الاتجاه الثاني: قول جماهير الأصوليين، وهم يرون نفي وقوع التحرير، وسلامة القرآن من أي نوع من أنواع الزيادة أو النقصان.

وقد حاول بعض علماء الشيعة نفي هذا الاتهام، ونقل الإجماع على سلامة النص القرآني من وقوع التحرير بالزيادة أو النقصان، غير أن هذا ما لا يمكن أن يكون، لا سيما مع وجود الكتب التي تصرح بوجود التحرير.

ولكن هذا يثبت شناعة هذا القول مما دفع علماء الشيعة أنفسهم إلى إنكار هذا ردود بعض علماء الشيعة الأمر، والتشنيع على قائله، وقد قال الشريف المرتضى^(٤): «إن العلم بصحة نقل على مسألة القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والواقع العظام والكتب المشهورة التحرير

(١) الملل والنحل، الشهرستاني، (١٦٥/١).

(٢) المواقف، الإيجي، (٦٩١/٣).

(٣) انظر أقوالهم في: أصول مذهب الشيعة، للقفاري: (٢٠٠/١)، وما بعدها.

(٤) نقلًا عن أصول مذهب الشيعة: (٢٩٣/١).

وأشعار العرب المسطورة، فإن العناية اشتدت والدوعي توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حد لم يبلغه فيما ذكرناه، لأن القرآن معجزة النبوة، وما مأخذ العلوم الشرعية، والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية حتى عرّفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وأياته، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً ومنقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد».

ثم ذكر أنه لو رام أحد الزيادة أو النقص من كتاب مشهور ككتاب سيبويه والمزنني لعرف ونقل، لأن أهل العناية بهذا الشأن «يعلمون من تفصيلهما ما يعلّمونه من جملتهما حتى لو أن مدخلاً أدخل في كتاب سيبويه باباً في النحو ليس من الكتاب لعرف وميز، وعلم أنه ملحق، وليس من أصل الكتاب، وكذلك القول في كتاب المزنني».

ومعلوم أن العناية بالقرآن وضبطه أصدق من العناية بنقل كتاب سيبويه ودواوين الشعراء».

وقد قام سائر علماء المسلمين بالرد عليهم، وتکاد كلمة المعتزلة والأشاعرة تتفق على وسمهم بتلك التهمة.

وقد أَلْفَ يحيى بن الحسين، الزيدبي المعتزلي، كتاباً اسمه: «الرد على من زعم أن القرآن قد ذهب بعضه»، ويظهر من عنوانه أنه في الرد على الشيعة الإمامية، كما يعطي إشارة إلى تبرئة الزيدية من تلك التهمة، كذلك شنَّ الخياط حملة شديدة على الروافض في كتابه «الانتصار»، واحتسبهم بالنصيب الأوفر من هجومه، وكرر في أكثر من موضع أنهم يزعمون أن: «القرآن بُدُّل وغُيّر، وزُيَّد فيه وُنِقِّص منه، وُحُرِّف عن مواضعه»^(١).

وفي عهد القاضي عبد الجبار وصلت صلة التمازج، والتقارب السياسي والفكري، بفعل تراكم المؤثرات المتبادلة بين الاعتزاز والتشيع بفرعيه: الزيدبي، والاثني عشرى، إلى أقصى تطور لها؛ لكن هذا التواصل لم يحل بين القاضي وبين نقد الموقف الشيعي من القرآن.

(١) الانتصار: (٤٧، ٤٨، ٥٨، ١١٤)، وغيرها.

وحيثما عدَّ مخالفي المعتزلة في القرآن، جعل من بينهم الإمامية الروافض، الذين جوزوا وقوع الزيادة والنقصان، وزعموا أنه كان على عهد رسول الله ﷺ أضعاف ما هو موجود بيننا، وقد ألزمهم القاضي متابعةً للجاحظ بصحة المصحف العثماني استناداً إلى إقرار علي بن أبي طالب به، وعدم إنكاره عليه^(١)، كما وافق شيخه أبا علي الجبائي في استبعاد أن يكون قاتل تلك المقالة مسلماً؛ لأن الخطأ في الاجتهاد لا يصل بحال إلى هذه الهرولة السحرية من الطعن في القرآن، ونسبة التحرير إليه، فلا بد أن يكون مبتكرها ممن أكل الحقد على الإسلام قلبه فأنشأ هذا المذهب للطعن فيه تحت شعار التشيع، وحب أهل البيت^(٢).

وائمة الأشاعرة بدورهم ينسبون القول بالتحرير إلى الرافضة، وإن اختلفوا في انطباق ذلك على المذهب كافة، أو على بعض أفراده فحسب^(٣).

وسنحاول فيما يجيء من هذه المقدمة، تلخيص أوجه التسليم بعدم تحريف النص القرآني، ومبررات الإيمان بسلامته.

(١) ثبيت دلائل النبوة: (٤٥/١)، (٦٤)، (١٢١).

(٢) المعني: (١٦٢/١٦)، وانظر: (١٦٢/١٦)، (١٥٣/٢٠)، (١٦٢/٣٨) وشرح الأصول الخمسة: (٦٠١، ٦٠٢)، وثبيت دلائل النبوة: (٤٥/١)، (٤٦)، (١٣١).

(٣) مقالات الإسلاميين: (١١٩/١)، ونكت الانتصار: (٤٢٦).

مبررات الإيمان بسلامة النص القرآني

١- العناية بالقرآن في عهد النبي ﷺ^(١).

كان القرآن ينزل على النبي ﷺ طيلة بعثته المباركة، ولم يكن القرآن إنشاءً من قبله، وإنما كان النبي ﷺ قائماً بصفة التبليغ لما يوحى إليه.

القرآن في العهد
النبي

ولقد سبب الله الأسباب لحفظ القرآن، فكان منها جهود تلك الثلة المباركة في حفظ القرآن في صدورهم، ثم كتابته، ثم جمع هذا المكتوب، ثم توحيده في مصحف جامع يظل بين أيدي الناس إلى أن يرفعه رب العالمين آخر الزمان.

واعلم أن القرآن لم يجمع بين دفتين زمن النبي ﷺ، مع أنه كان يكتب بين يديه - لأن الحاجة لم تدع إلى ذلك، ولأن القرآن ما زال ينزل ويضاف إليه، وينسخ منه.

لكن العناية القصوى بالقرآن في عهد النبي ﷺ تمثلت في حفظ القرآن في قلوب الراسخين في العلم من أصحاب النبي ﷺ، وتذوينهم له، وتلاوتهم له آناء الليل وأطراف النهار^(٢).

(١) انظر في قضية الجمع القرآني، كتاب: قضية الجمع القرآني في سؤال وجواب، لأحمد سالم، نشر: مركز تفكير.

(٢) انظر: القرآن الكريم في حياة الصحابة والآل، عمرو الشرقاوي، ميرة الآل والأصحاب، لتفق على بعض أوجه العناية بالقرآن المجيد.

ولقد تواترت الدواعي للاهتمام بالقرآن الكريم من قبل المسلمين الأوائل ومنها :

١- بِلَاغَةُ الْقُرْآنِ.

فقد مثل القرآن هزة كبيرة في البلاغة العربية، وكانت العرب تحفظ الكلام البليغ، وتناقله، فكيف إذا كان كلام الله الذي بلغ الغاية في البلاغة.

٢- حَثَ النَّبِيُّ عَلَى حَفْظِ الْقُرْآنِ، وَالْعِنَايَةُ بِهِ.

وقد حفظ لنا التاريخ أن جعفر بن أبي طالب قرأ سورة مريم على النجاشي في أول الإسلام عند هجرتهم للحبشة، وذهب مصعب بن عمير مهاجراً من مكة ليعلم الناس في المدينة القرآن، وكان الرجل يسلم فيدفعه النبي ﷺ إلى بعض الصحابة يعلمه القرآن.

٣- الْأَجْرُ الْمُتَرْتَبُ عَلَى حَفْظِ الْقُرْآنِ، وَرَفْعَةُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ولقد كان حفظ القرآن شائعاً بين الرجال، والنساء والأطفال.

٤- الْعِنَايَةُ بِالْقُرْآنِ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ.

لما دعت الحاجة - وهي استحرار القتل بالقراء في موقعة اليمامة - كان الجمع القرآن في عهد أبي بكر الأول للقرآن في عهد أبي بكر رض، وقد قام بعملية الجمع زيد بن ثابت رض، وقد اتكاً زيد على الأساسيةين اللذين كانا قد جمع بهما القرآن زمن النبي ﷺ، وهما :

١- صدور الرجال.

٢- الصحف المفرقة وما يشبهها من أدوات الكتابة.

ويمكننا تلخيص مميزات هذا الجمع في النقاط التالية:

(١) أن كتابته قامت على أدق وسائل التثبت والاستيقان، فلم يقبل فيه إلا ما أجمع الجميع على أنه قرآن وتواردت روایته.

(٢) أنه جمع في مصحف واحد مرتب الآيات والسور.

(٣) موافقته لما ثبت في العرضة الأخيرة.

(٤) اقتصاره على ما لم تنسخ تلاوته، وتجریده مما ليس بقرآن.

- (٥) اشتماله على الأحرف السبعة التي ثبتت في العرضة الأخيرة.
- (٦) إجماع الصحابة على صحته ودقته، وعلى سلامته من الزيادة والنقصان، وتلقيهم له بالقبول والعناء.
- وبعد أن تم الجمع الأول، صارت الصحف إلى أبي بكر، ثم إلى عمر، ثم إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر -رضي الله عنهم أجمعين-.

٣- العناية بالقرآن في عهد عثمان.

القرآن في عهد عثمان بات القرآن الكريم بعد الجمع الأول محفوظاً في مصاحف تجمع سوره وأياته كاملة بين دفتين، أحدها هو مصحف أبي بكر القابع في بيت حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، وقد كان نفر من الصحابة الذين حملوا القرآن عن النبي ﷺ يكتبون القرآن بأيديهم وفق ما سمعوه من النبي ﷺ، ونظراً لنزول القرآن على سبعة أحرف فقد كان يقع أن يكون الذي مع صحابي منهم هو على حرف خلاف الذي مع صحابي آخر، ونظراً إلى أنه وقع في العرضة الأخيرة نسخ، ونظراً إلى أنه ليس كل واحد من أولئك الصحابة شهد تلك العرضة - فقد وقع أن اختلف صحابة النبي ﷺ في القرآن اختلافاً لا يخرج عن كونه اختلافاً في الأحرف التي تدور عليها آيات القرآن، وما يمكن أن يكون منها منسوباً وما يمكن أن يكون منها محفوظاً، ولو بقي هذا الاختلاف في المحفوظ في الصدور يتداوله حملة القرآن عن أشياخهم - لهان الأمر، ولكن من جنس اختلاف الصحابة في الأحرف السبعة حتى في زمان حياة النبي ﷺ، ولكنه تعدد إلى الذين ينظرون في الصحف لا يتبيّنون وجه هذه الكلمة المكتوبة في هذا المصحف ولم تختلف صورتها باختلاف المصاحف، ولم يوجد في مصحف ما لا يوجد في آخر؟

وهنا مست الحاجة إلى جعل هذا المكتوب في مصحف واحد على صورة واحدة تسد باب اختلاف الذين لا يعلمون، ولم يكن أمام عثمان رضي الله عنه خيراً من أن يكون إمام هذه العملية التوحيدية هو مصحف أبي بكر رضي الله عنه.

وكانت أركان هذه العملية التوحيدية ثلاثة، وهي:

- (١) أن تنسخ الصحف الأولى التي جمعها زيد بن ثابت في عهد أبي بكر الصديق في مصاحف متعددة.

(٢) أن ترسل نسخة إلى كل مصر من الأمصار؛ فتكون مرجعًا للناس منه يقرؤون ويقرئون، وإليه يحتكمون عند الاختلاف.

(٣) أن يحرق ماعدا هذه النسخ.

وقد تم هذا الجمع عبر لجنة مكونة من أربعة أشخاص، وهم: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

وقد أجمع الصحابة على هذا الجمع العظيم، وقد قال علي رضي الله عنه: «رحم الله عثمان، لو وليته؛ لفعلت ما فعل في المصاحف».

وما حدث من بعض الصحابة (عبد الله بن مسعود)^(١)، كان تمسّكًا منه بقرائته، والروايات الصحيحة التي تخبر بما قاله ابن مسعود هي الروايات التي لم يذكر فيها الأمر بغل المصاحف، وهي التي أخرجها الشیخان، والوجه الصحيح والمحفوظ عن ابن مسعود أنه أراد أن يستمسك بالقراءة، لأنّه أخذها عن رسول الله صلوات الله عليه وسلم، وقد ورد رجوع ابن مسعود إلى رأي الجماعة^(٢).

وبعد ذلك حصلت عمليات تطوير خط المصحف الشريف، وظلت هذه المحاولات، وهذه الحياة إلى زمان الطباعة، وانتشار المصاحف عبر الأقطار الإسلامية، وانتقالها إلى المسلمين جيلاً بعد جيل.

وليس في القرآن بحمد الله خطأ استطاع أن يثبته كائناً من كان من وقت تدوينه إلى زمان الناس، وما أثير من شبّهات حول الرسم، أو ما ادعى أنه مخالف للعربية، تصدّى له علماء الإسلام بالبيان، والتمحیص، ومصنفاتهم حاضرة قريبة من طالب الحق والهدى^(٣).

(١) أفرد الدكتور محمد الطاسان هذه المسألة بالبيان في كتابيه:

١- المصاحف المنسوبة للصحابية، من إصدارات مكتبة التدمرية.

٢- تحقيق موقف الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود من الجمع العثماني، من إصدارات كرسى القرآن الكريم وعلومه.

(٢) المقدمات الأساسية، للجديع: (١١٩-١٢١).

(٣) انظر: رسم المصحف، للدكتور غانم قدوري الحمد، وداعوى الطاعنين، للدكتور عبد المحسن المطيري، فقد ذكر عدداً من مصنفات علماء الإسلام في الرد على الطاعنين في القرآن.

٤- تلقي القرآن بالمشاهدة.

لقد كان القرآن محفوظاً في الصدور كما هو مكتوب في الصحف، وكان الناس ولا يزالون يتلقون هذا القرآن عن أشياخهم، إلى أن يتصل السنن بكتاب أصحاب النبي ﷺ، وهؤلاء الصحابةأخذوه عن رسول الله ﷺ.

وهذه الحجة مما يعرف تفصيلها من كتاب تاريخ القراءات، وبيان جهود العلماء المبذولة في ضبط الأوجه القرآنية التي يقرأ بها القرآن^(١).

إذاً: فقد كان الاعتماد في نقل القرآن على ما حفظ، على نطاق واسع، في القلوب والصدور، لا على ما حفظ في السطور.

فمن الذي يتصور وقوع التحرير في سورة الحمد (الفاتحة)، وهي السورة التي تقرأ في محاريب المسلمين كل يوم عدة مرات، وكذلك سائر القرآن كان يقرأ في محاريب المسلمين مرة بعد مرة، أفيتو اطئ كل هؤلاء على التحرير، ولا نجد إنكاراً عليهم، سبحانك هذا بهتان عظيم!

٥- عدم وجود فجوة تاريخية في مسار القرآن.

بخلاف التوراة التي انقطع سندها بعد موسى عليه السلام بستة قرون على الأقل، وتعددت نسخها، واختلفت فيما بينها، وبخلاف الإنجيل الذي ظل يتناقل شفهياً، ثم تم اختيار أربعة أناجيل عام (٣٢٥ م) مما يربو عدده على الأربعين أو الخمسين إنجيلاً، مع إحدى وعشرين رسالة من رسائل لا تعد ولا تحصى، ثم أضيف له بعد ذلك رسائل أخرى، وظل الخلاف بين تلك الأنجليل واضحاً لكل دارس - ظل القرآن بلغته الأصلية لم يترجم عن لغة أخرى، بخلاف التوراة والإنجيل.

لقد وصل القرآن إلينا، بلغته الأصلية التي كان عليها، فلم يتعرض لما قد تتعرض له الترجمة، من اختلاف، وكونها عرضة للاشتباه في الفهم، ونحو ذلك. وقد نقل إلينا بالمشاهدة، وتدوله عدد كبير من الناس، ودون في زمان النبي ﷺ، وجمع بعده في دفتين بعد مدة وجيزة جداً، كما سلف، وإن المطلع على

(١) انظر: مقدمات في علم القراءات، د. القضاة، ود. أحمد شكري، ط. دار عمار.

المخطوطات الموجودة للمصحف الشريف^(١)، والتي هي عتيقة، وترجع إلى العصور الأولى من نزول القرآن، يعلم كم أن الله تعالى قد أحاط القرآن بعناية خاصة، لئلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه تنزيل من حكيم حميد. ومع كل العواصف التي عصفت بأمة الإسلام إلا أن أحداً منهم لم تمتد يده للقرآن ليحرفه، بل ولم يستطع، وأنى له ذلك، بل إنهم على اختلافهم وتناحرهم كانوا معظمين للقرآن معتنين بشأنه، كما يعرف من تاريخ كتابة المصحف والعناية به^(٢).

٦- مصاحف الصحابة^(٣).

وهي مسألة كثيرة ما يدنن حولها مثيراً الشبهات، وبعد بحث طويل في دراسة مصاحف الصحابة، سجل الباحث^(٤) النتائج التالية:

- ١- إضافة المصحف إلى أشخاص أو أماصار أو مؤسسات أو غيرها إضافة تعريفية.
- ٢- ما تضمنته مصاحف الصحابة من رسوم ظهر في مصنفات أئمة الرسم.
- ٣- وجود الاختلاف بين المصاحف المنسوبة للصحاباة هو داخل ضمن الاختلاف بين القراءات، وهو بلا نزاع بين المسلمين اختلاف تنوع وتغاير، لا اختلاف تضاد.
- ٤- انعقد إجماع الأمة مع عثمان رضي الله عنه في الجمع الذي قام به، وما روی عن الصحابي الجليل ابن مسعود، فإنما هو لشبهة عرضت له، والثابت عنه تمسكه بقرارته.

(١) انظر: المصاحف المطبوعة بعناية الدكتور طيار آتي قوله، والتي طبعت باستانبول في مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، بمنظمة التعاون الإسلامي.

(٢) وللأسف، فإن هذا الموضوع لم يأخذ حقه من العناية والدرس، ولعل الله ييسر في الكتابة فيه، فإنه بديع، ويمكن الرجوع إلى كتب القرآن، للوقوف على عناية المسلمين بالقرآن المجيد، ومنها: رسم المصحف، للدكتور غانم قدوري الحمد، ويمكن الرجوع كذلك للكتب التي اعتمنت بإثبات الدراسات القرآنية، لتقف على عناية المسلمين بالمصحف الشريف، كتابةً، وتفسيرًا، وإقراءً، وإنجازًا، والعلوم التي قامت به، وحوله - لتقف على غيض من فيض، وقطرة من بحر في عناية أهل الإسلام بالمصحف الشريف، فكيف يُدعى بعد ذلك في القرآن تحريفاً؟!!

(٣) انظر: المصاحف المنسوبة للصحاباة، د. محمد الطasan، من إصدارات مكتبة التدمرية.

(٤) الدكتور محمد الطasan.

من أوجه عناية الأمة بالقرآن الكريم^(١)

احتفل المسلمون بكتاب الله ﷺ احتفالاً لا يدانيه احتفال، واعتنوا به اعتناءً عظيماً، كان وما يزال محل فخر واعتزاز على الأمم كلها.

١- فجانب التفسير والعناية به كان مثلاً مشرقاً في هذه الأمة.

وتراجم الذين اعتنوا ببيان كتاب الله ﷺ وشرحه -التي اطلعنا عليها والتي بين أيدينا- تربوا على أكثر من ألفي علم اعتنوا بخدمة القرآن الكريم من حيث بيان معانيه وأحكامه، وإلا فأعداد من لم نقف على تراجمهم من المفسرين أعلى من ذلك بكثير، ونتاج الأمة في هذا المجال لا حِجب وعظيم.

ومن المصنفات في علم التفسير ما هو مفقود لا نعلم عنه شيئاً، وإنما سمعنا عنه وقرأنا عنه في بطون الكتب، وهناك كتب لم تزل مخطوطه ولم تخرج إلى عالم الطباعة، وهناك كتب قد طبعت.

هذه الأقسام الثلاثة تكون ما يزيد على أكثر من اثنى عشر ألف مصنف، وهو رقم تقريبي، وكان لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة محاولة يسيرة في إحصاء ما كتب حول كتاب الله ﷺ شرحاً وتفسيراً من صدر الإسلام إلى عام (١٤٢٤هـ)، فخرج هذا الجهد بإحصائية زادت على سبعة آلاف كتاب تناولت بيانَ كلام الله ﷺ باللغة العربية فقط^(٢)، مما بالك باللغات الأخرى؟ لغات الشعوب الإسلامية، أو اللغات العالمية الأخرى، ممن تعاطى إيضاح معاني كلام الله أو شرحه.

(١) انظر: مدخل إلى التعريف بالمصحف الشريف، د. حازم حيدر: (٣٩-٣١).

(٢) وخرج هذا العمل بكتاب مطبع في ثلاثة مجلدات بعنوان: «فهرست مصنفات تفسير القرآن الكريم».

ومن أهم اتجاهات التفسير العناية بنقل آثار الصحابة والسلف في بيان كلام الله تعالى، وممّن تصدّى لهذا الجانب من أهل العلم : الإمام مالك، والإمام عبد الرازق بن همام الصناعي، والإمام أحمد، وغيرهم.

والتفاسير التي تجمع أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من السلف، ممن تصدّى لبيان كلام الله - كما يقول الحافظ ابن حجر- أربعة :

التفسير الأول: تفسير عبد بن حميد الكشّي (ت: ٢٤٩هـ)، ومنه قطعة مطبوعة، تمثل سوريَّة آل عمران والنساء .

التفسير الثاني: تفسير «جامع البيان» لابن جرير الطبرى (ت: ٣١٠هـ)، وهو مطبوع متداول .

التفسير الثالث: تفسير القرآن لمحمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت: ٣١٨هـ)، والمطبوع منه قطعة من أثناء سورة البقرة إلى أثناء سورة النساء .

التفسير الرابع: تفسير ابن أبي حاتم الرازى (ت: ٣٢٧هـ)، وهو مطبوع مع نقص فيه .

يقول الحافظ ابن حجر: «فهذه التفاسير الأربع قلَّ أن يشذ عنها شيء من التفسير المروي، والموقوف على الصحابة، والمقطوع عن التابعين»^(١).

فلذلك من جاء بعدهم من العلماء؛ كالسيوطى (ت: ٩١١هـ)، والشيخ الأمير محمد بن إسماعيل الصناعي (ت: ١١٨٢هـ)، وغيرهم من اعتنوا بالناحية الأثرية في التفسير، لا يكادون يخرجون عن هذه التفاسير الأربع، فماداً تصنيفهم وعلومهم التي سردوها في تفاسيرهم التي ألفوها - كالدر المنشور، ومفاتيح الرضوان- لا تخرج في جملتها عن هذه التفاسير الأربع.

- ومن العلماء من اهتم ببيان أحكام القرآن فاعتنى بشرح هذه الأحكام وتبيينها، سواء وفق ترتيب القرآن الكريم، وتسلسله، من سورة الفاتحة والبقرة وما تلاهما من سور، أو اعتنى ببيان هذه الأحكام بطريقة موضوعية؛ كالإمام

(١) العجائب في بيان الأسباب، للحافظ ابن حجر العسقلاني: (٢٠٣/١)، ونقله عن السيوطى في آخر تفسيره «الدر المنشور» (٨٢٠/١٥).

أبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي (ت: ٣٢١هـ) - صاحب العقيدة الطحاوية - الذي انبرى لتفسیر أحكام القرآن الكريم وفُقِّن المنهج الموضوعي في التفسير، على غرار مصنفات كتب الفقهاء؛ إذ تناول الآيات التي تتكلم على الطهارة في موضع، والآيات التي تتكلم على الصلاة في موضع، والآيات التي تتكلم على الزكاة في موضع، ثم شرحاً وفسرها، بخلاف جمهرة من اعتنى بتفسير آيات الأحكام، إذ كانوا يفسرون الآيات وفق ترتيب سور القرآن الكريم، فيتناولون ما في سورة البقرة من آيات الأحكام، ثم ما في سورة النساء من آيات الأحكام وغيرهما من السور، التي فيها أحكام فقهية بارزة.

٣- وهناك تفاسير في تاريخ علم التفسير فيها شيء من اللطافة، يجدر أن نقف عندها ولو وقفةً يسيرةً، من هذه التفاسير:

- تفسير القرآن الكريم لأحد أمراء سجستان، يسمى: خلف بن أحمد السجستاني، وفاته سنة (٣٩٩هـ)، وهي توافق سنة وفاة أبي الحسن طاهر بن غالبون الحلبي المقرئ، صاحب كتاب «الذكرة»، هذا الأمير ألف تفسيراً كبيراً بمشاركة أهل العلم من بلده، وكان يأتي بهم وينفق عليهم، وينقلون أقوال أهل العلم في هذا التفسير من الفقهاء والقراء والنحويين وأهل اللغة وأهل البيان والمعانى، ويسيطرونها بإشرافه ومعونته، حتى أكمل هذا التفسير، ويقال: إنه كان يقارب مائة وعشرين مجلداً^(١).

- «أنوار الفجر المنير»، وهو تفسير كبير جداً لابن العربي المالكي - أبي بكر بن العربي (ت: ٥٤٣هـ) - غير كتابه «أحكام القرآن» الموجود بين الأيدي، وغير كتابه الآخر المسمى: «قانون التأويل» المطبوع الذي يمثل رحلة علمية له مع سرد شيء من علوم القرآن الكريم، ويقال: إن هذا التفسير يقع في ثمانين مجلداً، ويقول الذهبي: «أتى فيه بكل بديع»^(٢). يعني أتى في هذا التفسير بكل رائق ومستحسن.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: (١١٦/١٧)، والأعلام، للزركلي: (٣٠٩/٢).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٢٠/١٩٩)، وانظر: طبقات المفسرين، للداودي: (٢/١٦٥).

وهذان التفسيران لا نعلم عنهما شيئاً، وكتاب ابن العربي يقال: إنه في تركيا^(١)، لكن لم تتحقق من صحة هذا الأمر.

- ومن التفاسير اللطيفة كتاب لأحد العلماء في القرن الثامن معروف بابن النقاش الدكالي (ت: ٧٦٣هـ)، وليس أبا بكر بن النقاش المتقدم الذي هو من علماء القرن الرابع، هذا العالم له تفسير اسمه: «السابق واللاحق» يقول الحافظ ابن حجر: «التزم فيه ألا ينقل حرفاً عن كتاب من تفسير أحدٍ ممن تقدم»^(٢)، فهذا شرط عالٍ جداً: أن تأتي وتفسر كلام الله تعالى، ولا تنقل شيئاً عن سبقك، فهذا اشتراط فيه شيء من الغرابة والندرة.

- وكذلك يشابه هذا الكتاب حاشية من حواشى تفسير البيضاوى، وتفسير البيضاوى «أنوار التنزيل» من أشهر التفاسير وأكثرها سিرونة في القرن الماضي، وكان لأهل العلم أيام الخلافة العثمانية اعتماداً عظيم بهذا التفسير، بل قيل: إن من شروط المهمة لمن أرتد أن يتولى منصب مشيخة الإسلام - ما يسمى بشيخ الإسلام في الدولة العثمانية- أن يكون ملماً ومظلعاً وعارفاً بدقة تفسير البيضاوى.

فهذا التفسير أقيمت عليه شروح وحواشٍ وتعليقات وتعقيبات تربوا على الثلاثة آلاف حاشية، ومن حواشيه حاشية لأحد العلماء الدمشقين، هو: محمد أمين بن عابدين (ت: ١٢٥٢هـ)، صاحب حاشية «رد المحتار على الدر المختار» في الفقه الحنفي، الذي التزم في حاشيته على البيضاوى: أن لا يذكر شيئاً ذكره المفسرون^(٣)، مثلما اشترط ابن النقاش الدكالي.

- ومن اللطائف أيضاً في هذا الجانب، وهذه النماذج ذكرها لبيان هذه العنايات، وتنوع هذه الجهود في خدمة هذا الكتاب العظيم، تفسيران أيضاً من تفاسير القرآن الكريم كلاهما فسر القرآن الكريم بالحروف المهملة؛ بمعنى: أنه

(١) قال الكوثري في مقالاته (٤٧٤): «والمعروف أنه موجود في بلادنا، إلا أنني لم أظفر به مع طول بحثي عنه».

(٢) الدرر الكاملة: (٢٣٦/٥).

(٣) انظر: حلية البشر، للبيطار: (٣/١٢٣٠)، ومعجم المفسرين: (٤٩٦/٢).

ليس فيهما مثلاً حرف «ج» ، ولا حرف «خ» ، ولا حرف «غ»؛ أي: ليس فيهما حرف منقوط يذكر في أثناء التفسير، إنما فيهما حروف مهملة، مثل حرف الحاء، والعين، والصاد، ونحوها.

فهذا أمر فيه غرابة كبيرة جدًا ، فأول هذين التفسيرين «سواطع الإلهام» لأحد العلماء اسمه: فيض الله بن مبارك الأكابرادي، (ت: ١٠٠٤هـ)، وتفسيره مطبوع، وإن كان الرجل فيه انحرافاً عقدياً ، لكنه نحا في تفسيره هذا المسلك.

والتفسير الثاني: لعالم من علماء دمشق المتأخرین وهو: ابن حمزة الدمشقي: محمود بن محمد تَسَبِّبُ الْحَمْزَوِي (ت: ١٣٠٥هـ)، له كتاب اسمه «در الأسرار» طبع منه مجلد، فسر فيه القرآن بالحروف المهملة، إذ لم يذكر حروفاً منقوطة في تفسيره، ولم يُفَدْ من تفسير الهندي شيئاً^(١).

وتاريخ علم التفسير حافل طويلاً، وقد حاول السيوطي رحمه الله (ت: ٩١١هـ) أن يذكر شيئاً من تاريخ التأليف في هذا الجانب وعنانية الأمة به في مقدمة حاشيته على تفسير البيضاوي، التي سماها: «نواهد الأبرار وشوارد الأفكار»، والتي رصد في مقدمتها تاريخ التأليف في علم التفسير وعنانية العلماء به^(٢).

ثم جاء العالم التركي الحاج خليفة (ت: ١٠٦٧هـ) - وهو مشهور بين العرب ب حاجي خليفة، ومحظوظ عند الأتراك بكاتب جلبي - وألف كتاباً سماه: «كشف الظنون»، جمع فيه أسماء الكتب المؤلفة في العلوم الإسلامية والعربية ونبذة عن محتوياتها، وأخذ ما قاله السيوطي في مقدمة حاشيته على تفسير البيضاوي كاملاً ثم زاد عليه، مع إفادته كذلك من مقدمة تفسير الثعلبي، الذي وصف عدداً من التفاسير وكتب غريب القرآن ومشكله^(٣).

٤- ومن أهل العلم من صنف في بعض علوم القرآن بصورة مفردة؛ كفضائل القرآن، ومنهم من ألف في الناسخ والمنسوخ، ومنهم من ألف في فنون متعددة كثيرة مفرقة.

(١) انظر: نموذج من الأعمال الخيرية لمحمد منير آغا (٣٩٦).

(٢) انظر: مقدمة نواهد الأبرار: (٦٨٢-٦٩٣).

(٣) انظر: مقدمة تفسير الثعلبي: (٢٠/٦٠)، وكشف الظنون (٤٢٧/٢)-(٤٣٢/١)-(١٤٧٥-١٤٨٠)[].

٥- ومنهم من تكلم على مباحث علوم القرآن وأنواعه بشكل مجموع ومنحصر في مكان واحد، أمثال الحارث بن أسد المحاسبي (ت: ٢٤٣ هـ) في كتاب سماه: «فَهْمُ الْقُرْآن»، ويُشَعِّرُ الكتاب مِنْ أَوْلَ وَهَلَةً أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَلَى التَّفْسِيرِ، أو كيف فَهْمُ الْقُرْآن، ولكنه وضعه في أبواب تكلم فيها على أنواع مختلفة من علوم القرآن^(١).

وتلا الحارث المحاسبي جماعة من أهل العلم؛ كابن الجوزي في «فنون الأفنان»، والسَّخاوى في «جمال القراء»، والزركشى في «البرهان في علوم القرآن»، والسيوطى في عدد من كتبه.

ومن أوسع من كتب في أنواع علوم القرآن بشكل مجموع ومنضبط في مكان واحد، أحد علماء مكة في القرن الثاني عشر، وهو ابن عَقِيلَةِ الْمَكِيِّ (ت: ١١٥٠ هـ)، الذي ألف كتاباً سماه: «الزيادة والإحسان» جمع فيه نحو (١٥٤) نوعاً من أنواع علوم القرآن، أصولها في كتاب السيوطى «الإتقان»، لكنه فرع عليها، وعدَّ وزادَ وهذَّبَ ونقَّحَ فيها^(٢).

٦- ومن علماء هذه الأمة من اهتم بقراءات القرآن الكريم، وضبط أحكامها وقواعدها في كتب مفردة، وهو جانب عظيم من عنایة الأمة في هذا المضمار، وعنایة أهل العلم في هذا الجانب يصعب حصرها، وتعسر الإحاطة بها، فهناك كتب عظيمة وكثيرة جداً في علم القراءة تجاوز عددها الآلاف.

ومن أجمع هذه الكتب، وأكثرها حشدًا لذكر قراءات القرآن الكريم كتاب «الكامل» لأبي القاسم يوسف بن جباره الْهُذَلِيِّ (ت: ٤٦٥ هـ) -طبع قريباً- حوى القراءات العشر المشهورة، وأضاف إليها أربعين قراءة أخرى من قراءات الصحابة ومن بعدهم.

(١) وهو مطبوع مع كتاب «العقل للحارث نفسه».

(٢) حقق في خمس رسائل جامعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وطبعتها جامعة الشارقة، ومركز تفسير.

(٣) بتحقيق: جمال ابن السيد رفاعي الشايب، مؤسسة سما للنشر والتوزيع.

ولأحد العلماء من مكة وهو: عبد الكريم بن عبد الصمد الطّبرى، معروف بكتابه: أبي عشر، كتاب يقال له «سوق العروس»، ضمنه مؤلفه (١٥٥٠) رواية وطريقاً، وهو مخطوط^(١)، لكن يفتقد الجزء الأخير منه، وهو من سورة المطففين إلى آخر الكتاب.

ولا يعلم أحد جمع في علم القراءات أكثر من الْهُذْلِي والطّبّري إلا ما حواه كتاب عيسى بن عبد العزيز الإسكندرى، من علماء القرن السابع (ت: ٦٢٩هـ) الذي سماه: «الجامع الأكابر والبحر الآخر»، وهو فيما يعلم أكبر كتاب في القراءات، ضمنه (٧٠٠٠) رواية وطريق^(٢).

ومن مظاهر هذه العناية في هذا الجانب جهود الحافظ ابن الجزّار رحمه الله في علم القراءات، وكأن الله سبحانه اصطفاه لضبط هذا العلم، وتأطيره بإطار معين، بحيث أصبح هذا الإطار الذي حدده ابن الجزّار معيناً ثرياً يعرف منه كل من جاء بعده؛ إذ نظر رحمه الله إلى كتب القراءات التي في تلك الحقبة؛ أي: في القرنين الثامن والتاسع الهجريين؛ لأنّه عاش بين سنة (٧٥١هـ) - إذ كانت ولادته سنة وفاة ابن القيم رحمه الله - إلى عام (٨٣٣هـ) ففي هذه الفترة الرحبة من حياته وقف على أهم كتب القراءات في زمانه، فسبر ما يقارب (٥٧) كتاباً من كتب القراءات فمخضها، ودقق في أسانيدها، واشترط شرطاً عالياً - لم يشترطه أحد قبله ممن صنف في علم القراءة - وهو أن يكون كل راوٍ عن الآخر في سند القراءة ثبت لقيه له وصحت معاصرته له، فضلاً أن يكون هذا الرواوى عدلاً ثقةً فيما يقول ويروي في باب علم القراءات^(٣).

(١) انظر: ملحق التراث، جريدة المدينة، العدد (٩٠٤٦)، مقالة لفضيلة الدكتور أيمن سويد بعنوان: «مرة أخرى: جامع أبي عشر ما زال مخطوطاً ولم يتحقق».

(٢) ولا أعلم عن وجوده شيئاً. قال ابن الجزّار: «فكتابه الذي جمعه وسماه الجامع الأكابر لم يُجمع مثله في هذا الفن؛ فإنه لم يترك من القراءات شيئاً قلّ ولا جلّ إلا نادراً، من رأهرأي العجب. أخبرني شيخنا العلامة سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني أنّ عنده نسخة كاملة»، غایة النهاية: (٨٤٧/١)، ط. الخاجي، وانظر: النسر (٣٥/١).

(٣) النشر: (١٩٢-١٩٣).

فهذا شرط لم يلتزمه أحد قبل ابن الجزري رحمه الله، فجمع كتاباً عظيماً في القراءات هو كتاب «النشر في القراءات العشر»، الذي ألفه في نحو عشرة أشهر في تركيا في مدينة بورصة سنة (٧٩٩هـ)^(١) وغداً هذا المصنف أهم كتاب من كتب القراءات ، من التاريخ الذي ألفه فيه الإمام ابن الجزري إلى عصرنا الحاضر، فكل من اعنى بعلوم القراءات لا بد أن يعود إلى هذا الكتاب وينتفع منه ويستفيد .

٧- وهناك عنايات وفيرة ومتعددة للأمة في خدمة كتاب الله، لا أريد أن أخوض فيها كثيراً، فمن أهل العلم من اهتم بلغة القرآن واللهجات التي نزل بها، ومنهم من اعنى ببيان غريب ألفاظه، أو إعرابه، ومنهم من اعنى بالشواهد الشعرية الخادمة له، ومنهم من اعنى بالإعجاز إلى غير ذلك من صور الاهتمام والعناية .

٨- ومن أهل الخير من اهتم بالعناية بالوقف للقرآن الكريم، وتسبيل ثمرة ما يوفره من أرض، أو عقار، أو أسهم في شركات يعود ريع ما تدرُّه في طرق تعليم القرآن، والنفقة على المتعلمين والقراء . وهذه العناية وإن كانت موجودة عند السالفين ولها جوانبها البارزة والظاهرة، لكن في الآونة الأخيرة أصبح لها اهتمام جيد عند بعض من وفقه الله لهذا السبيل .

فهذا غيض من فيض من مظاهر عناية هذه الأمة بالكتاب العزيز واهتمامها به .
وبعد؟

فإن أعظم دليل على عدم تحريف القرآن، هو القرآن ذاته، فقد احتفظ القرآن بكل خصائصه التي كان عليه زمان النبوة، لقد ظل مؤثراً في الأمة، ومعجزاً على مر الدهور، لا يزال الناس يأخذون منه، ويردون عليه لا تنفذ عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

لا يزال نوره هو النور .
وهدايته هي الهدایة .

(١) النشر: (٤٦٩/٢).

وحكمة هي الحكمة.

وبصائره هي البصائر.

ومواعظه هي المواعظ.

لا يزال هو الخير، والبركة، والصراط المستقيم.

لا يزال هو النبأ العظيم.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ هَنُولَهُ مِنْ يُؤْمِنُ
بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِإِيمَانِنَا إِلَّا الْكَفَرُونَ ﴾٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَشْلُوْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا نَخْطُلُهُ
بِإِيمَانِكَ إِذَا لَأْرَتَابَ الْمُبْطَلُونَ ﴾٤٨﴾ بَلْ هُوَ إِيمَانُنَا بِيَقِنَتٍ فِي صُورِ الَّذِينَ أَتُوا الْعِلْمَ وَمَا
يَجْحَدُ بِإِيمَانِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِيمَانَنَا مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا
أَنْزَلْنَا عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾٥٠﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُسَلِّمُ
عَلَيْهِمْ إِنْكَارُكَ فِي ذَلِكَ لِرَحْمَةٍ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧-٥٢].

المقدمة الثالثة

مدخل إلى القرآن الكريم^(١)

(١) كنت قد عزمت أن أنقل من هذا الكتاب على حواشـي النـبـأ ما تـم به الفـائـدة، ثم رأـيت أن أـفردـه بـمـلـخصـ خـاصـ بـهـ، وـسـترـىـ أنـ بـعـضـ المـبـاحـثـ تـنـدـاـخـلـ معـ مـبـاحـثـ النـبـأـ، وـلـاـ بـأـسـ بـذـلـكـ، فـإـنـ التـكـرـارـ مـنـهـجـ قـرـآنـيـ!

وفي الحقيقة فإننا ندعـو القـاريـءـ الـكـرـيمـ إـلـىـ مـطـالـعـةـ كـتـابـيـنـ للـعـلـامـةـ درـازـ، وـذـلـكـ بـعـدـ مـطـالـعـتـهـ لـلـنـبـأـ العـظـيمـ، هـمـاـ:

- ١ـ «مـدـخلـ إـلـىـ الـقـرـآنـ»ـ، وـالـذـيـ تـقـدـمـ مـلـخصـاـ لـهـ هـنـاـ.
- ٢ـ «حـصـادـ قـلـمـ»ـ، وـهـوـ كـتـابـ مـهـمـ فـيـ إـدـرـاكـ الـوـحدـةـ الـمـوـضـوعـيـةـ، وـمـتـمـ لـكـتـابـاـنـ الـعـظـيمـ «الـنـبـأـ»ـ.

الباب الأول: حقائق تاريخية أولية

الفصل الأول: حياة الرسول قبل البعثة

نشأ النبي ﷺ يتيمًا في مكة، وتولى جده عبد المطلب رعايته، وبعد فقد جده تولى عمه الملقب بأبي طالب رعايته.

صاحب النبي ﷺ عمه إلى التجارة في الشام، واتصل في تلك الرحلة براهيب يدعى (بحيرى)، وببعض العلامات التي رآها بحيرى على محمد صلى الله عليه، استظهر أن شأنًا عظيماً سيكون له.

وقد شهد في الجاهلية عدة أحداث، منها: حلف الفضول، وترميم الكعبة، وكان يعرف حينها: الصادق الأمين، وقد استحوذ على محبة كل من عاشره.

وكان يرحل إلى الشام للتجارة، وتزوج بخديجة زوجها، وكان له منها: عدة أولاد.

وكانت أول مظاهر بعثته ﷺ أنه كان لا يرى رؤيا إلا تحققت، ثم مال إلى الخلوة في غار حراء، ثم مر بعد ذلك بأول تجربة له مع الوحي.

عاد إلى بيته بعد مجيء الملك، وهو محموم بحمى باردة، وطلب من خديجة أن تعطيه بعضاً ثقيل يذهب خوفه.

وبعد أن أبدى مخاوفه لخديجة، هدأت روعه، وأخذته لابن عمها ورقة بن نوفل، وهوشيخ كبير له مطالعة كبيرة في علوم الكتب السماوية، وأدرك ورقة أن هذانبي الزمان، وأخبره: أنه إن أدركه يومه، لينصرنه نصراً مؤزرًا.

الفصل الثاني: كيف جمع نص التنزيل الحكيم؟

نزل القرآن كأجزاء متفرقة، تتبادر أطوالها من سورة كاملة إلى آية واحدة، جمع القرآن وأحياناً إلى جزء من الآية، وكان الناس ينتظرون الوحي بشغف، ويمنون أن يتلقوه فور نزوله.

وكان أعداء القرآن يتلقونه كذلك، لكن تلقيهم كان للبحث عن نقاط الضعف فيه، أو لإشباع حاجتهم الملحة في التذوق الأدبي.

ولم يقتصر القرآن في تلك المرحلة على كونه مجموعة من الآيات تتلى وتقرأ، وإنما كان كتاباً مدوّناً بالمداد، فقد كان للوحي كتبته، يكتبوه على أي شيء كان في متناول أيديهم، ولكن العهد النبوي مضى، ولم يكن هناك نسخة تامة من القرآن.

وحتى تناح الفرصة لسور القرآن لكي يتم بناؤها التدرجى، كان ينبغي الانتظار إلى أن يكتمل الوحي كله لإخراج نسخة تامة، غير أن هذا لم يحل بين المؤمنين وبين المعرفة الشفوية لموضع كل آية جديدة من كل سورة على وجه التحديد، وفي كل مرحلة من مراحل نزول الوحي.

تم جمع القرآن كوحدة واحدة في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق، ثم أعيد الجمع في عهد عثمان^(١)، وقد ظن بعض الشيعة أن عثمان قد بدل في نص القرآن، أو أنه أسقط شيئاً يتعلق بعلي بن أبي طالب، فلو صح ذلك لراجعه حملة القرآن، وما أكثرهم في وقت نشر مصحف عثمان.

(١) تجاوزنا تلخيص هذه المسألة، لأنها سبقت في المقدمة، وأبقينا على الزيادات المهمة.

وحتى ابن مسعود أقر بصحة مصحف عثمان، مع مخالفته السياسية حينذاك، ويستحيل أن نعمل قبول الكافة لمصحف عثمان بأنه انقياد غير متبصر من جهتهم، وقد عد هذا الدليل أقوى دليل على أن النص القرآني «أحسن صورة من الكمال والمطابقة»^(١).

ونود التأكيد أن دور عثمان رضي الله عنه تلخص في نشر النص المقرؤ في زمان النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، وإنما ينسب المصحف له من جهة أنه الأمر بالجمع، لا من جهة أنه قد تدخل في النص.

ولم يقصد عثمان رضي الله عنه أن يلغى اختلاف القراءات، بل إنه قصد:

١- إضفاء صفة الشرعية على القراءات المختلفة، التي كانت تدخل في إطار النص المدون، ولها أصل نبوي مجمع عليه، وحمايتها، وفي هذا من لوقوع أي شجار بين المسلمين بشأنها.

٢- استبعاد ما لا ينطابق مطلقاً مع النص الأصلي، وقاية للMuslimين من الوقوع في انشقاق خطير فيما بينهم، وحماية للنص ذاته من أي تحريف.

وفي تلك المرحلة بقيت القراءات الشفوية كما هي، ولم يرد أن عثمان ألزم جماعة المسلمين كلها بقراءة بعينها دون أخرى.

وبعد ذلك تم إعدام المصاحف الفردية، لإنقاذ وحدة النص الديني، وتم هذا الفعل باستشارة الناس، واتخذ هذا الإجراء باتفاق جميع الصحابة.

(١) ذكر المصنف أن هذا كلام «نولدكه»، المستشرق الألماني الشهير، والذي كتب في تاريخ المصحف. ونقل المصنف شهادة بعض الغربيين على سلامة النص القرآني، وهما: (لوبلو)، (و. موير)، وأنه لم يطرأ أي تغير على القرآن الكريم، وأن الفرق الإسلامية على تنازعها ليس لها إلا قرآن واحد.

الفصل الثالث: كيف تم تبليغ المبدأ القرآني إلى العالم؟

إننا نعني بالمبأ القرآني «الإسلام»، فقد سار بخطوات منتصرة نحو الشمال والجنوب، ونحو الشرق والغرب، حتى إنه في فترة قصيرة نسبياً انتشر في نصف العالم المعروف في ذلك الحين.

حين جاء الإسلام تغير كل شيء بين يوم وليلة، ولم يقتصر على الواجهة السياسية والاقتصادية في المدن الكبرى فقط، وإنما تغلغل في الأعمق النفسية لهذه الشعوب جمياً: فاللغات والأفكار والقانون والأعمال والعادات وتصور العالم وفكرة الله! - كل ذلك قد طرأ عليه تغيير جذريٌّ وسريع^(١).

(١) تحدث الشيخ باقي الفصل، عن الحرب في الإسلام، ودراوتها، وقد تركناه، إذ لا مجال له فيما قصدنا إليه.

الباب الثاني: القرآن من خلال مظاهره الثلاثة ... الديني .. والخلقي .. والأدبي

الفصل الأول: الحق أو العنصر الديني

إن أول ملامح القوة في الدعوة الإسلامية، تكمن في الصورة التي قدمت بها الحقيقة الدينية في محاولة منها لوضع حد للخلافات التي ثارت بشأنها . لقد أوضح القرآن العقيدة بصورة لا يملك الإنسان معها أن يحيد عنه ، لأنها يقدم الفكرة التي اتفق عليها سائر الرسل .

إن النظرية الدينية في القرآن تؤسس عبر شطرين :
الشطر الأول: لا شيء في الوجود يستحق العبادة والخضوع سوى الله الواحد القهار .

- ركز القرآن على فكرة هامة ، وهي فكرة العودة إلى الوحدة الأولى ، تلك الوحدة التي كانت تجمع الناس ، وهي أن الإسلام دعوة عامة لكل الرسل ، لا يختلف نبي عن نبي في شأنها .

- أن هذه العقيدة هي عقيدة فطرية ، حتى وإن غمرت وحجبت تحت معتقدات أخرى ، لقد جاء القرآن ليحذف الشوائب التي علقت بهذه الفطرة الأولى .
الشطر الثاني: الإيمان بالحياة الأخرى .

لقد بنى القرآن الإيمان بهذه الحقيقة على أن الذي أنشأ الإنسان أول مرة ، قادر أن يعيده بعد مماته ، إن الذي يحول الأرض وهي جافة جرداً إلى أرض خصبة ، قادر أن يعيد للإنسان حياته .

النظرية الدينية
في القرآن

إن الإيمان باليوم الآخر، هو قرار رباني ألزم الله تعالى به نفسه، إن الآخرة أحد مستلزمات العدل الإلهي ، والحكمة السامية ، ﴿إِنَّ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ، ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ .

وهكذا نرى أن القطبين اللذين تأسست عليهما الديانة الموحدة التي يدعوا القرآن إليها ، يقومان إما على حقائق سبق الاعتراف بها ، أو تبني على مبادئ واضحة .

إن أي برهان نظري لا يتطلب أكثر من هذه القوة في التدليل والإقناع .

الفصل الثاني: الخير أو العنصر الأخلاقي في القرآن

إن النفس الإنسانية لا تتغذى بالحقائق النظرية وحدها، هناك حاجة إلى القاعدة العملية القادرة على توجيه نشاطه في كل لحظة من حياته.

لقد ركز القرآن أن الدين عقيدة وقانون، أي: اعتقاد وطاعة.

- غرس الله في داخل كل منا بصيرة أخلاقية غريزية.
- اعتمد القرآن على غريزة الإنسان في معرفة العدل والظلم، والخير والشر.
- ولما كانت الحاجة الطبيعية ليست بنفس القوة والفاعلية عند كل الناس لتلزمهم بالخصوص لقاعدة السلوك، فقد وضع القرآن منهجاً كاملاً في التربية.
- اعتمد القرآن على أن الأخلاق دعت الرسل إليها، فقد حمل الرسل الأخلاق إلى الناس، وأدانوا النزعة المادية، وحب الدنيا، والفجور، والغض.
- لقد وعظ لقمان ابنه.

- لا عجب إذاً أن القرآن يقول: ﴿وَهُدِيَّكُمْ مُّنَّنَّ الَّذِينَ مِنْ فَلَّكُمْ﴾^(١)!

إن القرآن قد جمع في داخله في النظرية الأخلاقية حكمة الأولين، وأتم بناء الرسل السابقين^(٢).

(١) عقد المؤلف مقارنة بين المبادئ الأخلاقية في التوراة والإنجيل والقرآن، فلتنتظر: (٩٨).

(٢) عرض المؤلف بعض خصائص النظرية الأخلاقية في الإسلام، ومنها:

- ما يرجع للفضيلة الشخصية.
- كالنية، وأن الخير المطلق في ابتغاء وجه الله الذي لا بد من استحضاره في القلب عند أداء العمل.
- ما يرجع للفضيلة في العلاقات بين الأفراد.

الفصل الثالث: الجمال أو الجانب الأدبي

إن الشروط الأخلاقية كافية في البرهنة على ربانية هذه الرسالة، وإن النفوس التي تمتلك بصيرة، لا تحتاج لأكثر من توفر العاملين السابقين: تعليم الحقيقة، والدعوة إلى الفضيلة.

لكن عامة الناس يهتمون كثيراً للشكل الخارجي، بعيداً عن مтанة المحتوى، فالمحسوس لديها يسبق المعقول.

ولذلك فقد جاء القرآن نموذجاً لا يبارى في الأدب العربي، إنه المثل الأعلى القرآن، لما يمكن أن يسمى أدباً بوجه عام، فلغته تأخذ بالقلوب، وتفحم بالحججة، والأدب العربي وتجلب السرور الهداء لا الصاحب.

١- لغة القرآن مادة صوتية، تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر، وخشونة لغة أهل البدية، إنها تجمع بين رقة الأولى، وجزالة الثانية.

٢- إنها ترتيب في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماساً من الشر، وأقل نظماً من الشعر.

٣- كلماته منتقاة، لا توصف بالغريب إلا نادراً، تمتاز بالإيجاز العجيب، والنقاء في التعبير.

= لقد أنشأ الحضارة الأخلاقية، إنه تقنين حقيقي في الأدب، والذوق الاجتماعي، والتحشم في المظهر.

- ما يرجع للفضائل الجماعية، والفضائل العامة.

حرصه على إرساء الأخوة، وعدم الظلم، وعدم التعامل بالربا، وعتق العبيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- ما يرجع للفضيلة في المعاملات الدولية وبين الأديان.

- ٤- إنه أسلوب يجمع بين العقل والعاطفة على رغم ما بينهما من تباعد.
- ٥- وهو في وحدة سوره ، وترتيبها ، وتناسق أجزائها آية وأي آية!

الباب الثالث: المصدر الحقيقي للقرآن

الفصل الأول: البحث عن مصدر القرآن في الفترة المكية

كانت حياة العرب في مرحلة نزول القرآن حياة (الضلال المبين)، وزمانهم القرآن في مكة زمن (الجاهلية الأولى).

وفي وسط هذه الجموع من الجهل المفضوح، كانت تمييز صفوه قليلة العدد تعرف في الأثر باسم «الحنفاء».

وكانت الأنظمة الدينية المعروفة في ذلك الوقت تمثل في عدة طوائف، منهم الصابئين، وهم طائفة وثنية.

ونحن نرى أن الوثنية التي كانت سائدة في الحجاز لا تقدم لنا تفسيراً سليماً عن مصدر القرآن الكريم.

ولو نظرنا للبيئة اليهودية وال المسيحية، سنجد أنه من المتعذر أن تكون أصلاً للقرآن، فإنه لم يلتقي بعلماء اليهود والنصارى لوقت يسمح له بالأخذ عنهم.

١- أما لقاوه ببخارى الراهب فهي مقابلة عارضة، وكانت في حضور جميع أفراد القافلة، وأنه كان مسؤولاً لا مستمعاً.

٢- وأما رحلاته للتجارة في الشام، فلا يمكن التعويل عليها، لأمور:

- مشاغله التي كان ذاهباً لها.

- أنه مع قومه، ورفقائه.

- أن اللغة الأجنبية مثلت حاجزاً مهماً.

- أن معارضيه لم يستخدمو هذه الحجة وهي أقرب لهم مما افتروه.

وفي دراسة التاريخ الكنسي في هذا الوقت ما يدفع هذه الفريدة من أساسها. هذا إذن هو المشهد الحي الذي يمتد أمام نظر المشاهد، فحيثما اتجه وجد ضلاًّ يحتاج إلى الهدایة، وانحرافاً يتطلب التقويم، ولن يجد أبداً نموذجاً أخلاقياً ودينياً يصلح لأن ينقله محمد أو يبني عليه نظامه الإصلاحي.

أما الاتصال بالكتب المقدسة؛ فغير ممكن لأمور:

١- أن محمداً ﷺ لم يكن يقرأ ويكتب، وليس هناك ما يدل على أنه قرأ كتاباً فقط^(١).

٢- أن الكتب السماوية في ذلك الوقت لم تكن مكتوبة بالعربية. ولا يمكن أن يكون القرآن قد أخذ عن شعر بعض العرب، كأمية بن الصلت وغيره لأمور:

١- قد نفى القرآن أن يكون شعراً، وبالتأمل في شعر بعض الشعراء سنجده أنهم كانوا يصفون أموراً كشرب الخمر، وهو ما لا نجد له أثراً في القرآن.

٢- أن العرب الذي هم أهل الفصاحة والمعرفة، لم يدع أحداً منهم أن القرآن مسروق أو منحول من الشعر الموجود في ذلك العصر أياً كان قائله.

ولا يمكن أن يكون القرآن ثمار التأملات الشخصية للنبي ﷺ، لأمور:

١- أن في القرآن من المعلومات ما لا يخضع لمثل هذه التأملات، كالتاريخ والقصص الموجود في القرآن.

٢- أن تفاصيل المعلومات المبثوثة في القرآن، كصفات الله المتعددة، وأسمائه الحسنى، والمصير الذي ينتظر الإنسان بعد موته، وغير ذلك من التفاصيل المبثوثة في القرآن، مع عدم تراجعه عن أي حقيقة من تلك الحقائق، كل ذلك لا يمكن أن يبلغه العقل مهما بلغ من الصفاء والقوة.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا إِلَيْمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهَدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهَدِي إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ٥١﴾ صرط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض إلا إلى الله تصرير الأمور^[٥٢] [الشورى: ٥٢].

(١) أجاب المؤلف عن بعض الشبه الاستشرافية في هذا الموضوع، (١٤٩).

الفصل الثاني: البحث عن القرآن في الفترة المدنية

في هذه الفترة حصل اتصال مع طائفة منظمة دينياً، وهم اليهود، والسؤال القرآن في الذي يمكن طرحه، هل يمكن أن يكون القرآن قد أخذ عن هؤلاء اليهود شيئاً؟!^{١١} المدينة إن الناظر في القرآن يلمح موقفه الشديد من المجتمع اليهودي بصفة عامة، فقد ذكر القرآن عدداً من صفاتهم، ومنها: أنهم لم يحضروا كتابهم، وكانوا يتعاملون بالربا، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ويستبيحون الرشوة والكذب. فلا يمكن القول بأن القرآن مأخذ عن أخبار اليهود^{١٢}.

ولا بد من القول: إنه لم يجسر أي مؤرخ يقدر مسؤوليته أن يزعم أخذ النبي صلى الله عليه على شخص أو أشخاص تلقى منهم محمد ﷺ.

(١) تكلم المؤلف بكلام متميز عن ادعاءات بعض المستشرين حول هذه المسألة، فلتنتظر: (١٦٨). وتحدث عن ادعاءات المستشرين، باختلاف التعاليم المكية عن المدنية في القرآن، وفي سياق الرد، نبه على عدة نقاط منها:

- ١- أن القصص القرآني لم يختلف بين القرآن المكي والمدني.
- ٢- أن معرفة العرب بإبراهيم وإسماعيل معرفة قديمة، لوجودهم في جوار الكعبة، بيت الله الذي أمر إبراهيم ببنائه، ثم إن قصة إبراهيم وردت في القرآن المكي كذلك.
- ٣- أن عدد الصلوات ظل ثابتاً في مكة والمدينة.
- ٤- أن فكرة «الله» والحديث عنه لم يختلف في القرآن المكي عن المدني، وأن فكرة «إله الحرب» في القرآن المدني، لم تكن إلا تنفيذاً لإنذار عام وتصريح أعلن عنه، وتكرر ذكره قبل ذلك في مكة.
- ٥- أن فكرة النسخ خضعت لأن الحوادث تتطلب حلولاً متنوعة، وأن الله تعالى نص في بعض الآيات على كونها مؤقتة، مثل: ﴿هَقَّ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، و﴿أَفَيَجْعَلُ اللَّهُ هَنَّ سِيلًا﴾، والنسخ انعكاس لفكرة التدرج، والمسلك التدريجي في التعليم والتشريع ليس عيباً، وإنما هو أنجح المناهج في تكوين النفس الوعية المستنيرة المشبعة بالحكمة، والأمم المنظمة، والخلق المتنين.

إن القرآن يخبرنا عن علماء أهل الكتاب، وإنهم على قسمين:

١- الغالبية العظمى، والتي كانت تكن العداء الكبير للإسلام وأهله، وكان هؤلاء يسعون أشد السعي لإحراج محمد، وكانوا ينكرون النصوص الموجودة في كتبهم إمعاناً في العداوة والبغضاء.

٢- وكان فريق منهم استمعوا للنبي ﷺ، وطابقوا صفاته بما كانوا يعرفونه من صفة النبي الخاتم، وهؤلاء سرعان ما انقادوا للحق، وأتوا إليه مذعنين، كعبد الله بن سلام، وكان من أوسع اليهود علمًا.

وصارت علاقة أمثال عبد الله بن سلام، أو من آمن في تلك المرحلة من أصحاب الديانات الأخرى، كسلمان الفارسي، أو مارية القبطية = كل هؤلاء كانوا يقفون موقف التابع، وكان النبي ﷺ هو المتبوع.

وأخيراً، فلا بد من التفريق بين الاقتباس، والاتفاق، فلا شك أن القرآن يتافق مع الكتب السابقة في كثير من المبادئ والتعاليم، لأن الكتب خرجت من مشكاة واحدة.

خاتمة

لقد بحثنا - مسترشدين بالواقع التاريخية افتراض وجود مصدر بشري لتعاليم القرآن، فتتبعنا مؤسس الإسلام في مراحل حياته المزدوجة: الحياة العادلة وحياة الرسالة، في مسقط رأسه أو في موطنه الأخير، في رحلاته وفي اتصالاته، وتعرضنا لقدرته على القراءة ولمدى توفر الوثائق تحت يده.

فجميع سبل البحث التي وقعت تحت أيدينا وناقشناها ثبت ضعفها وعدم قدرتها على تقديم أي احتمال لطريق طبيعي أتاح فرصة الاتصال بالحقائق المقدسة. ورغم الجهد الذهني الذي نبذله لتضخيم معلوماته السمعية ومعارف بيئته، فإنه يتذرع علينا اعتبارها تفسيرًا كافياً لهذا البناء الشامخ من العلوم الواسعة والمفصلة التي يقدمها لنا القرآن الكريم في مجال الدين والتاريخ والأخلاق والقانون والكون.

لقد كان الوحي نقطة تحول في علم الرسول ﷺ.

إن الرسول ﷺ كان يمتلك أخلاقاً حسنة في حياته قبل البعثة، شهد بها خصومه، بل كان يعرف بينهم بالصادق الأمين، ولم يكن هو نفسه يتوقع أن يكلف بدور المرسل من عند الله.

لكن حياته تحولت يوم نزل عليه الوحي.

وفي إدراك خصائص الوحي إدراك لمصدره أيضًا.

١- لقد كان الوحي ينزل منجماً ومجزاً، ولم يكن النبي ﷺ يصطنع الوحي، بل كان ينزل عليه بلا معرفة سابقة منه، بل ولا تهيؤ^(١)!

(١) كحادثة الإفك.

٢- وكان النبي ﷺ يقف من الوحي موقف التعظيم، ويخشى أشد الخشية أن ينسب لله تعالى ما لم يقله، ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُكَدِّمَ، إِنْ تَلْقَأَنِي نَفْسِي﴾.

٣- ولم يكن الوحي يعكس شخصية الرسول ﷺ، ففي أكثر الأوقات لا يذكر عنه شيئاً، وتأمل -مثلاً-: حين مات عمه أبو طالب، وزوجته خديجة، وحزن لذلك حزناً شديداً، ومع ذلك لم يشر الوحي إلى ذلك.

بل نجد في الوحي آيات اللوم والعتاب له عليه الصلاة والسلام.

٤- ولا يمكن أن يكون الوحي نابعاً من الإخلاص الشخصي للنبي ﷺ، أو أنه من الأوهام اللا شعورية، وأنه اجترار لمعارف قديمة كانت طي النسيان، وذلك لأمور :

- لأننا لا نجد في التاريخ ما يمكن أن ينهض ليفسر استقامة الخط الذي اتبعه القرآن، وتفسير خطواته الجازمة الفاصلة.

- لا يوجد أدنى علامة تشير من قريب أو بعيد لخلل عقلي، بل العكس هو الصحيح.

ولأنه لا يمكننا التعرض لتجربة الوحي لنتأكد من صحتها، إلا أنه يمكننا التتحقق من صحة الوحي بأمور، منها :

١- الاتفاق في جوهر تعاليمه مع ما قرره الأنبياء السابقون، وهذا التطابق يفتح أعين الغافلين على صدقهم، وصحة مبادئهم التي تناولت بالوصف الحقائق العليا من زوايا مختلفة.

٢- الحقائق العلمية - المتفقة تمام الاتفاق مع المشاهد الحسي، والواقع العلمي - المثبتة في القرآن^(١).

(١) من المهم مراجعة هذا الفصل في الكتاب: (١٨٧)، وما بعدها، لأن المؤلف ذكر رؤيته لمسألة الإعجاز العلمي، وهي رؤية جديرة بالمطالعة.

قال الدكتور دراز تحت عنوان حقائق علمية: «ولكن القرآن في دعوته إلى الإيمان والفضيلة لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحاديث الجارية وحدها؛ وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة، ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة، لا بغرض دراستها وفهمها في ذاتها فحسب؛ وإنما لأنها تذكّر بالخلق الحكيم القدير، ونلاحظ أن هذه الحقائق التي يقدمها تتفق تماماً مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث»، ثم ذكر بكلمة أمثلة لذلك.

٣- الأخبار المستقبلية، والتي أخبر القرآن بتحققها، ووَقَعَتْ كَمَا أَخْبَرَ.

إن منهج القرآن الكامل ينبع دليلاً كافياً على مصدره الرباني، لقد انتشرت الدعوة القرآنية في البداية في الجزيرة العربية بين العرب، ولكن غايتها هي أفراد البشرية أجمعين.

= وعلق على ذلك بقوله: «عند اختيارنا للآيات التي استشهدنا بها في هذه الفقرة، حرصنا على تلافي ما يعاب به على الطريقة التوضيحية المعروفة بالتأويل، والتي تتلخص في تفسير آيات القرآن بحيث تتفق نتائج التفسير مع النتائج العلمية المقررة.

ولكن الحماس دفع بعض المفسرين المحدثين إلى المبالغة في استخدام هذه الطريقة التوفيقية لصالح القرآن؛ بحيث أصبحت خطرًا على الإيمان ذاته؛ لأنها إما أن تقلل من الاعتماد على معنى النص باستنطاقه ما لا تتحمله ألفاظه وجمله، وإما أن تقول أكثر مما يجب على آراء العلماء، وحتى على افتراضاتهم المتناقضة، أو التي يصعب التحقيق من صحتها.

وبعد أن نسبعد هذه المبالغات عن البحث، نرى أن من مقتضيات الإيمان-التي لا غنى عنها-أن نضاهي الحقائق الفورية التي نجدها في القرآن مع نتائج العلماء المنهجية البطيئة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء الأول من كتاب «النَّبأ العظيم» مولود جديد . . . قديم . . . جديد في مقطعه ونهايته، قديم في مطلعه وبدايته.

كان مسقط رأسه في الحرم الجامعي، منذ نيف وعشرين عاماً؛ ولكنه لم يبرز منه يومئذ إلا عنقه وصدره . . أما أطراfe فلم تنشأ ، وأما خلقه فلم يكتمل إلا اليوم .
لقد شهد طلاب الأمس بداية أمره، حين كان يملأ عليهم نجوماً متفرقة، في فترات متلاحقة أو غير متلاحقة، وكانوا كلما اجتمعت منه صفحات معدودة لا تزيد عن عقد وبعض عقد، استعجلوا طبعها، وجعلوا يستحقون همة المؤلف لوضع لاحتقتها .

ثم أتت بعد ذلك شئون^(١) حالت دون إتمام وضعه، بله إكمال طبعه؛ فبقي القدر الذي طبع منه حبيساً في دار الطبع، أو مقصوراً على الرعيل الأول من

(١) أمضى المؤلف في خارج القطر المصرياثني عشر عاماً: من غرة ربیع الأول ١٣٥٥هـ إلى سلخ ربیع الثاني ١٣٦٧هـ (مايو ١٩٣٦ - مارس ١٩٤٨م) مبعوثاً من الجامعة الأزهرية إلى الجامعات الأوروبية.

فدرس هناك بضعة ألسن من لغة أهل الغرب، وألم بمناهج علمائهم في البحث، ووضع هناك باللغة الفرنسية رسالتين جامعيتين: عن القرآن، وعن دستور الأخلاق في القرآن . . ثم أمضى تسعة أعوام آخر

بعد عودته إلى مصر مشغولاً بشئون علمية نيزت به على عجل. من أهمها:

١- محاضرات في علم تاريخ الأديان بكلية الآداب بجامعة القاهرة.

= ٢- محاضرات في فلسفة الأخلاق بقسم التخصص بالجامعة الأزهرية.

طلاب هذا البحث .. حتى أذن العلي القدير - وكل شيء عنده بمقدار - أن يضيف المؤلف إليه اليوم خليّات آخر، اكتمل بها قوامه، وأخذ بها أهبته للخروج من نطاق الثقافة الجامعية، إلى فضاء الثقافة العالمية، لكي يتحدث إلى كل عقل واع ناقد، لا يأخذ إلا على بصيرة وبيبة، ولا يذر ما يذر إلا على بصيرة وبيبة؛ وإلى كل وجدان تجربتي ذائق، لا يكتفي بالخبر عن المعاينة؛ ولا يستغني بالوزن عن الموازنة.

إنه حديث يبدأ من نقطة البدء.

فلا يتطلب من قارئه انضواءً تحت راية معينة؛ ولا اعتناقاً لمذهب معين، ولا يفترض فيه تخصصاً في ثقافة معينة؛ ولا حصولاً على مؤهل معين، بل إنه يناشده أن يعود بنفسه صحيحة بيضاء؛ إلا من فطرة سليمة؛ وحسنة مرهفة؛ ورغبة صادقة في الوصول إلى الحق في شأن هذا القرآن.

وإنه إذا لواصل إن شاء الله .

في شعبان سنة ١٣٧٦ هـ (مارس ١٩٥٧ م)

محمد عبد الله دراز

= ٣- تدوين محاضراته هذه وتلك وإنراجها في رسالتين باللغة العربية .. على أن المؤلف ما زال في أثناء هذه المشاغل كلها يعاوده الحنين إلى إكمال هذا الجزء، وما برح في تلك الأثناء يتلقى من أبناءه وزملائه الرسائل تلو الرسائل لمتابعة هذا البحث، ولكنه لم ييسر له تحقيق بعض هذه الأمنية إلا الآن. وسبحان من لا يشغله شأن عن شأن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي فضلنا بالقرآن على الأمم أجمعين، وآتانا به ما لم يؤت أحداً من العالمين: أنزله هداية عالمية دائمة، وجعله للشرائع السماوية خاتمة، ثم جعل له من نفسه حجة على الدهر قائمة. والصلوة والسلام على من كان خلقه القرآن، ووصيته القرآن، وميراثه القرآن، القائل: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١).

اللهم كما أعطيتنا حظاً من وراثة هذا الذكر الحكيم، فيسرت علينا حفظه وتدكره، وحببت إلينا تلاوته وتدبره، نسألك أن تجعلنا من خيار وارثيه الذين هم بهدايته مستمسكون، والذين هم على حراسته قائمون، والذين هم تحت رايته يوم القيمة يبعثون، في جند إمامنا الأعظم، ورسولنا الأكرم، محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وأصحابه، وأتباعه وأحبابه.

أما بعد:

فهذه بحوث في القرآن الكريم، قدمتها بين يدي دروس التفسير لطلبة كلية أصول الدين بالجامع الأزهر المعمور، أردت بها أن أنعث كتاب الله بحليلته وخصائصه، وأن أرفع النقاب عن جانب من الحقائق المتصلة به، وأن أرسم الخطة التي ينبغي سلوكها في دراسته.

(١) رواه البخاري عن عثمان بن عفان: (٥٠٢٧)، ولغفظه: عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عثمان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، قال: وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان، حتى كان الحجاج قال: وذاك الذي أقعدني مقعدتي هذا.

وقد راعيت في أكثر هذه البحوث شيئاً من التفصيل والتحليل، وشيئاً من التطبيق والتمثيل، فلم أكتف بالإشارة حيث تمكنت العبارة، ولا بالبرهان إذا أمكن العيان، راجياً بذلك أن تنفتح لها عيون الغافلين؛ فيجدوا نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وأن تنشرح بها صدور المؤمنين، فيزدادوا إيماناً إلى إيمانهم.

ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قادر وبالإجابة جدير.

في سنة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م.

محمد عبد الله دراز

البحث الأول

في تحديد معنى القرآن

والفرق بينه وبين الحديث القدسي والنبوى

القرآن في الأصل مصدر على وزن فُعلان بالضم، كالغفران والشكران والتکلان. تقول: قرأته قرءاً وقراءةً وقرآنًا بمعنى واحد، أي تلوته تلاوة، وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَيْنَاهُ مُجَمَّعَهُ، وَقُرْءَانَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَلَيْسَ قُرْءَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧، ١٨] وما بعدها، أي قراءته.

ثم صار علمًا شخصيًّا^(١) (٢) لذلك الكتاب الكريم. وهذا هو الاستعمال الأغلب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلّٰهِيْكُمْ﴾ [الإسراء: ٩]. ويسمى -أيضاً- الكتاب، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّمَّا ذَلِكَ الْكِتَبُ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ [آل عمران: ١٢].

(١) يطلق بالاشتراك اللغطي على مجموع الكتاب، وعلى كل قطعة منه، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول: إنه يقرأ القرآن ﴿وَإِذَا قُرِئَهُ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوْهُ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

(٢) علم الشخص هو: «اللفظ الذي يدل على تعين مسماه تعيناً مطلقاً»، فإنك إذا قلت: القرآن، فإن السامع لا يفهم من كلامك إلا الكتاب الكريم، المجموع بين الدفتين، المفتتح بسورة الفاتحة، والمختوم بسورة الناس.

ويقابل علم الشخص، علم الجنس، وهو الاسم الذي لا يدل على فرد بعينه، بل يدل على جنس بأكمله، كأسامة لجنس الأسود، وثعالثة لجنس الثعالب، ونحو ذلك. (عمرو

روعي في تسميته قرآنًا كونه متلوًا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابًا كونه سر تسمية القرآن: القرآن، والمكتاب
مدونًا^(١) بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه.

وفي تسميته بهذه الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضوعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً، أن تضل إداهما فتذكر إداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئة التي وضع عليها أول مرة. ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن محفوظاً في حرز حرizer، إنجازاً لوعده الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرَأَنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَكَوْفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتکفل الله

(١) هذا بيان لوجه الصلة فيما بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه، وهو مبني على ما اشتهر من استعمال القراءة في خصوص التلاوة، وهي ضم الألفاظ بعضها إلى بعض في النطق، واستعمال الكتابة في خصوص الرسم، وهو ضم بعضها إلى بعض في الخط. فإذا رجعنا إلى أصلهما الأصيل في اللغة وجدنا مادتي «ك ت ب» و«ق ر أ» تدوران على معنى الجمع والضم مطلقاً.

ويُلمح هنا الأصل الأول بكون كل واحد من اللقبين ملاحظاً فيه وصف الجمع، إما على معنى اسم الفاعل أو اسم المفعول، فيكون معناه «الجامع» أو «المجموع»، وهذا اللقب لا يعني فقط أن هذا المسمى جامع للسور والآيات، أو أنه مجموع تلك السور والآيات، من حيث هي نصوص مؤلفة على صفحات القلوب، أو من حيث هي نقوش مصقوفة في الصحف والألواح، أو من حيث هي أصوات مرتبة منظومة على الألسنة، بل يعني شيئاً أدق من ذلك كله، وهو أن هذا الكلام قد جمع فنون المعاني والحقائق، وأنه قد حشدت فيه كتائب الحكم والأحكام، فإذا قلت: الكتاب أو القرآن، كنت كأنما قلت «الكلام الجامع للعلوم» أو «العلوم المجموعة في كتاب».

وهكذا وصفه الله تعالى إذ أخبر بأنه نزله ﴿تَبَيَّنَ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وكذلك وصفه النبي ﷺ حيث قال: «فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»*.

* الحديث: أخرجه الدارمي: (٣٣٧٤)، والترمذى: (٢٩٠٦)، وهو ضعيف.

يقول ابن كثير: «وقد يشار إلى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح»، فضائل القرآن: (٤٦). (عمرو)

بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى: ﴿وَالرَّبَّنِينَ وَالْأَجَابُرُ إِمَّا سُتُّحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، أي بما طلب إليهم حفظه.

والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأييد، وأن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة، زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان ساداً مسدها، ولم يكن شيء منها ليسد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه، وهو الحكيم العليم.

ولما كان القرآن بهذا المعنى الأسمى جزئياً حقيقة^(١) كان من المتعذر تحديده بالتعريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص^(٢). وذلك شأن كل الجزئيات الحقيقة لا يمكن تحديدها بهذا الوجه؛ لأن أجزاء التعريف المنطقية كليات، والكلي لا يطابقالجزئي مفهوماً^(٣)، لأنه يقبل الانطباق على كل ما يفرض مماثلاً له في ذلك الوصف ذهناً وإن لم يوجد في الواقع فلا يكون مميزاً له عن جميع ما عداه، فلا يكون حداً صحيحاً.

وإنما يحدد الجزئي بالإشارة إليه حاضراً في الحس، أو معهوداً في الذهن^(٤).

(١)الجزئي الحقيقي: هو المفهوم الذي يتمتع صدقه على أكثر من واحد. (عمرو)

(٢) مصطلحات منطقية، تدرج تحت ما يسميه المناطقة: «الكليات الخمس»، وهي: (الجنس - النوع - الفصل - الخاصة - العرض العام)، والجنس: هو الكلي الذي يستعمل على كل الماهية المشتركة بين متعدد، مختلف في الحقيقة، مثاله: حيوان، فهو كلي يتناول الإنسان والفرس والغزال، وغيرها، وهي أفراد مختلفة في حقيقتها، لكنها مشتركة في جزء من الماهية، وهي الحيوانية، ولذلك يقال على كل منها (حيوان).

والفصل: كلي يتناول من الماهية الجزء الذي يميز النوع عن سائر الأنواع المشاركة له في الجنس، مثاله: ناطق، فهو كلي يتناول جزء ماهية الإنسان، وهذا الجزء يميز النوع الإنساني عن سائر الأنواع. والخاصية: مفهوم كلي هو من صفات الشيء الخارجة عن ماهيته، والخاصية بها، كالضحك، فهو خاص بالإنسان لا يشاركه غيره فيه - هكذا يقول المناطقة-.

انظر: ضوابط المعرفة، لحبنكة: (٤١-٣٩)، ومنطق المظفر: (١٠٦-١١٤). (عمرو)

(٣) سقطت هذه الجملة - المهمة - من طبعتي (دار القلم)، (طيبة)، وإنما نبهت على هذا السقط دون غيره، لأهميته.

(٤) مقصود الشيخ رحمه الله في هذه الفقرة: أنه لا يمكن تعريف القرآن بالتعريف المنطقية، لأنـه جزئي حقيقي، والجزئيات الحقيقة تعرّف بالإشارة إليها، وأنـما ذكره العلماء من تعريف للقرآن، فإنـما هي تعريف تقريبية لتمييزه عن الأحاديث القدسية، والأحاديث النبوية. (عمرو)

إِنَّمَا أَرَدْتُ تَعْرِيفَ الْقُرْآنَ تَعْرِيفًا تَحْدِيدِيًّا فَلَا سَبِيلٌ لِذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ تُشَيرَ إِلَيْهِ مَكْتُوبًا فِي الْمَصْحَفِ أَوْ مَقْرُوءًا بِاللِّسَانِ، فَتَقُولُ: هُوَ مَا بَيْنَ هَاتِينِ الدَّفَتِينِ، أَوْ تَقُولُ: هُوَ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . . . إِلَى: مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ).

أَمَا مَا ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ تَعْرِيفِهِ بِالْأَجْنَاسِ وَالْفَصُولِ كَمَا تَعْرِفُ الْحَقَائِقُ الْكُلِّيَّةِ فَإِنَّمَا أَرَادُوا بِهِ تَقْرِيبَ مَعْنَاهُ وَتَمْيِيزَهُ عَنْ بَعْضِ مَا عَدَاهُ مَا قَدْ يُشارِكُهُ فِي الْاسْمِ وَلَوْ تَوَهَّمَا؛ ذَلِكَ أَنَّ سَائِرَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَحَادِيثُ الْقَدِيسَةُ وَبَعْضُ الْأَحَادِيثُ النَّبُوَّيَّةُ تُشَارِكُ الْقُرْآنَ فِي كُونِهَا وَحْيًا إِلَهِيًّا، فَرِبِّمَا ظَنَّ أَنَّهَا تُشَارِكُهُ فِي اسْمِ الْقُرْآنِ أَيْضًا، فَأَرَادُوا بِيَانِ اخْتِصَاصِ الْاسْمِ بِهِ بِيَانِ صَفَاتِهِ الَّتِي امْتَازَ بِهَا عَنْ تِلْكَ الْأَنْوَاعِ.

فَقَالُوا: «الْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، الْمَنْزَلُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، الْمُتَبَعِّدُ بِتَلَاقِهِ». تَعْرِيفُ الْقُرْآنِ
«فَالْكَلَامُ» جَنْسٌ شَامِلٌ لِكُلِّ كَلَامٍ، وَإِضَافَتُهُ إِلَى «الله» تَمْيِيزُهُ عَنْ كَلَامٍ مِنْ سَوَاءِ
شَرْحُ التَّعْرِيفِ مِنَ الْإِنْسَنِ وَالْجَنِّ وَالْمَلَائِكَةِ.

وَ«الْمَنْزَلُ» مُخْرِجٌ لِلْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهِ فِي نَفْسِهِ، أَوْ أَلْقَاهُ إِلَى مَلَائِكَتِهِ لِيَعْمَلُوا بِهِ لَا لِيَنْزَلُوهُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ؛ إِذَا لَيْسَ كُلُّ كَلَامِهِ تَعَالَى مَنْزَلًا، بَلِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْهُ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ ﴿فُلَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلْمَتٍ رَقِّي لَنْفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ شَنَدَ كَلْمَتُ رَقِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَادًا﴾ [الْكَهْفُ: ١٠٩]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفَلَمْ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحَرٍ مَا فَنِيدَتْ كَلْمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الْقَمَانُ: ٢٧].

وَتَقْيِيدُ الْمَنْزَلِ بِكُونِهِ «عَلَى مُحَمَّدٍ» لِإِخْرَاجِ مَا أَنْزَلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِ، كَالْتُورَةِ الْمَنْزَلَةِ عَلَى مُوسَى، وَالْإِنْجِيلِ الْمَنْزَلَةِ عَلَى عِيسَى، وَالْزِبُورِ الْمَنْزَلَةِ عَلَى دَاوِدَ، وَالصَّحْفِ الْمَنْزَلَةِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَقِيدُ «الْمُتَبَعِّدُ بِتَلَاقِهِ» - أَيِّ الْمَأْمُورُ بِقِرَاءَتِهِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا عَلَى وَجْهِ الْعِبَادَةِ - لِإِخْرَاجِ مَا لَمْ نُؤْمِرْ بِتَلَاقِهِ مِنْ ذَلِكَ، كَالْقِرَاءَاتِ الْمُنْقَوْلَةِ إِلَيْنَا بِطَرِيقِ الْأَحَادِيثِ الْقَدِيسَةِ، وَهِيَ الْمُسْنَدَةُ إِلَى اللَّهِ عَزِيزٍ إِنْ قَلَنَا: إِنَّهَا مَنْزَلَةٌ مِنْ عَنْدِ اللَّهِ بِالْفَاظِهَا.

أما الأحاديث النبوية فإنها بحسب ما حوتها من المعاني تنقسم إلى قسمين:
 «قسم توفيقي» استنبطه النبي بفهمه في كلام الله أو بتأمله في حقائق الكون،
 وهذا القسم ليس كلام الله قطعاً.

و«قسم توفيقي» تلقى الرسول ﷺ مضمونه من الوحي فيه للناس بكلامه.
 وهذا القسم وإن كان ما فيه من العلوم منسوباً إلى معلمه وملهمه سبحانه، لكنه
 -من حيث هو كلام- حري بأن ينسب إلى الرسول ﷺ، لأن الكلام إنما ينسب
 إلى واضعه وقائله الذي ألفه على نحو خاص ولو كان ما فيه من المعنى قد
 تواردت عليه الخواطر وتلقاء الآخر عن الأول.

فالحديث النبوي إذاً خارج بقسميه من القيد الأول^(١) في هذا التعريف.
 وكذلك الحديث القدسي إن قلنا: إنه منزل بمعناه فقط، وهذا هو أظهر القولين
 فيه عندنا؛ لأنه لو كان منزلًا بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشع
 ما للنظم القرآني، إذ لا وجه للتفرقة بين لفظين متزلاً من عند الله. فكان من
 لوازم ذلك وجوب المحافظة على نصوصه، وعدم جواز روايته بالمعنى إجماعاً:
 وحرمة مس المحدث لصحيحته. ولا قائل بذلك كله.

وأيضاً فإن القرآن لما كان مقصوداً منه مع العمل بمضمونه شيء آخر وهو
 التحدي بأسلوبه والتبعيد بتلاوته احتياجاً لإنزال لفظه، والحديث القدسي لم ينزل
 للتحدي ولا للتبعيد بل لمجرد العمل بما فيه، وهذه الفائدة تحصل بإنزال معناه،
 فالقول بإنزال لفظه قول بشيء لا داعي في النظر إليه، ولا دليل في الشع عليه،
 اللهم إلا ما قد يلوح من إسناد الحديث القدسي إلى الله بصيغة «يقول الله تبارك
 وتعالى كذا» لكن القرآن التي ذكرناها آنفًا كافية في إفساح المجال لتأويله بأن
 المقصود نسبة مضمونه لا نسبة ألفاظه، وهذا تأويل شائع في العربية.

إإنك تقول حينما تنشر بيّنا من الشعر: «يقول الشاعر كذا» وتقول حينما تفسر
 آية من كتاب الله بكلام من عندك: «يقول الله تعالى كذا» وعلى هذه القاعدة

(١) وهو كونُ الكلام كلامَ الله.

حکی اللہ تعالیٰ عن موسیٰ وفرعون وغیرهما مضمون کلامہم بالفاظ غیر
اللفاظہم، وأسلوب غیر أسلوبہم، ونسب ذلك إليهم^(۱).

فإن زعمت أنه لو لم يكن في الحديث القدسي شيء آخر مقدس وراء المعنى

(۱) يتفرع النظر في أصل الكلام المحكى في القرآن إلى ضربين:

الضرب الأول: الكلام المحكى في القرآن عن السابقين، وكان من الممكن أن نقول إن هذه الأخبار المحكية تقع بلفظ القائل، لكن ذلك يمتنع لأمور، منها:

۱- أن ألسنة الماضين، لم تكن هي العربية، والقرآن إنما حکی أقوالهم باللسان العربي، فلزم من

ذلك-ضرورة-ألا يكون هذا هو عين لفظهم.

۲- أنها لو قدرنا أن أستتهم كانت عربية، ووجدنا ألفاظ «الحكاية لقولهم»، تختلف من سورة لأخرى، فهذا يدل ضرورة أيضاً على أن القرآن إنما ينقل عنهم مضمون کلامہم ومعناه، لا لفظه.

فظهر بذلك أن ما يحکیه الله تعالى من کلام السابقین من غير المتكلمين بالعربية؛ أو من کلام المتكلمين بها، غير أن ألفاظ الحكاية اختلفت = من کلام الله، ولكنها تنسب إليهم باعتبار مضمون الكلام ومعناه.

يقول شيخ الإسلام: «إن الحروف والأصوات التي سمعها موسى عبرية، والتي ذكرها الله عنه في القرآن عربية، ولو لم يكن الكلام إلا مجرد الحروف والأصوات، لم يكن بين الكلام الذي سمعه موسى، والذي ذكره الله أنه سمعه قدر مشترك أصلاً، بل كان يكون الإخبار بأنه سمع هذه الأصوات التي لم يسمعها كذب، وكذلك سائر من حکی الله في القرآن أنه قال من الأمم المتقدمة الذين تكلموا بغير العربية، فإنما تكلموا بلغتهم، وقد حکی الله ذلك باللغة التي أنزل بها القرآن وهي العربية، وكلام الله صدق، ولو كان قوله: مجرد الحروف والأصوات، والحرروف والأصوات التي قالوها ليست مثل هذه، لم تكن الحكاية عنهم مطلقاً، بل کلامہم كان حروفاً، ومعاني، فحکی الله ذلك عنهم بلغة أخرى، والحرروف تابعة للمعنى، والمعنى هي المقصود الأعظم، كما يترجم کلام سائر المخلوقین» التسعينية: (٤٦٤-٤٦٥/٢).

يبقى النظر - وهو الضرب الثاني - في حال من تكلم بالعربية، ونقل کلامه في القرآن، بقرائن قد توحى بكونه نص کلامہم، کلام أهل النفاق، هل هو بلفظه ومعناه، أم بمعناه فحسب؟

فنقول: إن هؤلاء القوم من أهل النفاق كان لسانهم عربياً، ولم يحک القرآن کلامہم إلا في مواضع بعينها، كما في سورة (المنافقون)، والثابت في كتب الحديث والسيرة أنهم تكلموا بهذه الألفاظ، كما رواه البخاري (٤٩٠٠)، (٤٩٠١)، ومسلم (٢٥٨٤)، جابر بن عبد الله يقول: كنا مع النبي ﷺ في غزوة، فكسرع رجل من المهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: يا رسول الله كسرع المهاجري: ولا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: يا رسول الله كسرع رجل من المهاجرين، رجلاً من الأنصار، فقال: «دعوها، فإنها منتنة» فسمعوا عبد الله بن أبي فقال: قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «دعا، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

لصح لنا أن نسمى بعض الحديث النبوى قدسياً أيضاً، لوجود هذا المعنى فيه. فجوابه: أتنا لما قطعنا في الحديث القدسى بنزول معناه لورود النص الشرعي على نسبته إلى الله، بقوله ﷺ: «قال الله تعالى كذا» سميـناه قدسياً لذلك، بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لما لم يرد فيها مثل هذا النص جاز في كل واحد منها أن يكون مضمونه معلمًا بالوحي، وأن يكون مستنبطاً بالاجتهاد والرأي، فسمى الكل نبوياً وقوفاً بالتسمية عند الحد المقطوع به، ولو كانت لدينا علامة، تميز لنا قسم الوحي لسمـيناـه قدسياً كذلك.

على أن هذا الامتياز لا يؤدي إلى نتيجة عملية، فسواء علينا عند العمل بالحديث أن يكون من هذا القسم أو من ذاك؛ إذ النبي ﷺ في تبليغه صادق مأمون، وفي اجتهاده فطن موفق، وروح القدس يؤيده فلا يقره على خطأ إن أخطأ في أمر من أمور الشريعة. فكان مرد الأمر في الحقيقة إلى الوحي في كلتا الحالتين، إما بالتعليم ابتداءً، وإما بالإقرار أو النسخ انتهاءً؛ ولذلك وجب أن نتلقى كل سنته بالقبول ﴿وَمَا ءاَنْكُمُ الرَّسُولُ فَحَذِّرُهُ وَمَا نَهَّكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْهُ﴾ [الحشر: ٧]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

= وانظر: زاد المعاد: (٣/٢٤٠)، والمحرر في أسباب النزول: (٢/١٠١٥)، وانظر تفسير الطبرى: (٢٢/٦٦١-٦٦٤)، ففيه مزيد بيان.

فالذى يظهر أن جزء الآية هذا من كلام أهل النفاق لفظاً ومعنى، وليس معنى هذا أن الله لم يتكلم به، بل نقله الله ﷺ بلغته ومعناه، والله أعلم.

خلاصة الأمر: أن الكلام المحكى في القرآن على ضربين:

١- ما حكاـهـ اللهـ تعالىـ عنـ غيرـ العربـ منـ الكلامـ، فإـنهـ محـكـىـ بـمعـناـهـ دونـ لـفـظـهـ، وكـذـلـكـ ما حـكاـهـ اللهـ عنـ العـربـ، لكنـ اختـلـفتـ حـكاـيـتـهـ منـ سـورـةـ لأـخـرىـ.

٢- أما ما حـكـىـ عنـ بـعـضـ العـربـ، واحـتـفـتـ بـهـ الـقـرـائـنـ -كـأنـ لمـ يـكـنـ إـلاـ فـيـ موـطـنـ وـاحـدـ- فالـذـيـ يـظـهـرـ أنهـ محـكـىـ بـلـفـظـهـ وـمـعـناـهـ، إـذـ لـاـ مـعـارـضـ لـهـذاـ، وـلـاـ يـنـفـيـ كـوـنـ الـقـرـآنـ مـنـ كـلـامـ اللهـ تـعـالـىـ.

وقد استفدت كثيراً في هذا التحرير، من مباحثة مع شيخنا الدكتور طه نجا -حفظه الله-. (عمرو)

البحث الثاني

في بيان مصدر القرآن وإثبات أنه من عند الله بلفظه ومعناه

لقد علم الناس أجمعون علمًا لا يخالطه شك أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي ولد بمكة في القرن السادس الميلادي، اسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .. هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد؛ لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يداريها شهادته لكتاب غيره ولا لحدث غيره ظهر على وجه الأرض.

أما بعد، فمن أين جاء به محمد بن عبد الله ﷺ؟ أمن عند نفسه ومن وحي ضميره، أم من عند معلم؟ ومن هو ذلك المعلم؟

نقرأ في هذا الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه، وإنما هو قول تعريف القرآن بنفسه، رسول كريم، ذو قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين: ذلكم هو جبريل وبالمتكلم به ﷺ تلقاه من لدن حكيم عليم، ثم نزله بلسان عربي مبين على قلب محمد ﷺ فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصًا من النصوص، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا: (١) الوعي والحفظ، ثم (٢) الحكاية والتبيغ، ثم (٣) البيان والتفسير، ثم (٤) التطبيق والتنفيذ.

أما ابتکار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منهمما بسبيل، وليس له من أمرهما شيء، إن هو إلا وحي يوحى.

وهكذا سماه القرآن حيث يقول: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِأَيَّاهٍ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِيَتْهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَتْكُمْ مَا يُوحَى إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، ويقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْفُقِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيْكُمْ﴾ [يونس: ١٥]، وأمثال هذه النصوص كثيرة في شأن إيحاء المعاني، ثم يقول في شأن الإيحاء اللفظي: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرِيبًا﴾ [يوسف: ٢]، ﴿سَنُقْرِئُكُمْ فَلَا تَنْسِى﴾ [الأعلى: ٦]، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [١٦] ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمَعَهُ، وَقُرْءَانُهُ﴾ [١٧] ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَأَنْتَعَ قُرْءَانَهُ﴾ [١٨] ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩، ١٦]، ﴿أَقْرَأْنَا يَاسِرَ رَبِّكَ الْدَّى خَلَقَ﴾ [١٩] ﴿خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِنْ عَلَقَ﴾ [٢٠] ﴿أَقْرَأْنَا وَرِبِّكَ الْأَكْرَمَ﴾ [العلق: ٣-١] (واتل - سورة الكهف) ، (ورتل - سورة المزمل)^(١). فانظر كيف عبر بالقراءة والإقراء ، والتلاوة والترتيل ، وتحريك اللسان ، وكون الكلام عربياً ، وكل أولئك من عوارض الألفاظ لا المعاني البحتة.

القرآن إذا صريح في أنه «لا صنعة فيه لمحمد ﷺ ولا لأحد من الخلق، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه». تصريح القرآن بأنه لا صنعة فيه لمحمد ولا لغيره من الخلق

والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة، وهو أنه ليس من عند محمد ﷺ. اقرار النبي ﷺ بأن القرآن ليس من عنده من أقوى الأدلة على أن القرآن كلام الله

في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضياً يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس «الدعاوی» فتحتاج إلى بينة، وإنما هي من نوع «الإقرار» الذي يؤخذ به صاحبه ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه، أي مصلحة للعامل الذي يدعى لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الرزامة، نقول: أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاحاً؟ على حين أنه كان يستطيع أن يتخلها فيزداد

(١) يعني قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكُمْ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكُمْ لَا مُبِدِّلَ لِكَلْمَاتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَحَدِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ الْقُرْءَانَ تَرْيَالَ﴾ [المزمل: ٤].

وقد وقع في نسخة دار القلم الآية الأولى من سورة الكهف، ولا دليل فيها على مراد الشيخ رحمه الله.
(عمرو)

بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحداً يعارضه ويزعمها لنفسه. الذي نعرفه أن كثيراً من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته، حتى أن منهم من ينبعش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأثواب المستعارة. أما أن أحداً ينسب لغيره نفس آثار عقله وأغلب ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد.

ولو أتنا افترضناه افتراضاً لما عرفنا له تعليلاً معقولاً ولا شبه معقول، اللهم إلا شيئاً واحداً قد يحييك في صدر الجاهل، وهو أن يكون هذا الزعيم قدرأ في «نسبة القرآن إلى الوحي الإلهي» ما يعينه على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم ونفذ أمره فيهم؛ لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبة إلى نفسه.

وهذا قياس فاسد في ذاته، فاسد في أساسه.

أما إنه فاسد في ذاته؛ فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه والكلام المنسوب إلى الله تعالى؛ فلم تكن نسبة ما نسبة إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئاً، ولا نسبة ما نسبة إلى ربها بزيادة فيها شيئاً، بل استوجب على الناس طاعته فيما على السواء، وكانت حرمتهما في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله، فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم.

وأما فساد هذا القياس من أساسه؛ فلأنه مبني على افتراض باطل، وهو تجويز أحوال النبي ﷺ دليل على أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن صدقه في قوله: يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه، وذلك أمر يأبه علينا الواقع التاريخي القرآن كلام الله كل الإباء، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته . لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المداعجة والمواربة، وأن سره وعلانيته كانا سواءً في دقة الصدق وصرامة الحق

في جليل الشئون وحقيرها، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها، كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه^(١) إلى يومنا هذا **﴿قُلْ لَّوْ**

(١) أقرأ مثلاً ما كتبه توماس كارليل الإنجليزي في كتاب الأبطال، وما كتبه الكونت هنري دي كاستري الفرنسي في خواطره وسوانحه عن الإسلام، ثم أقرأ شهادة قريش التي سجلها أبو سفيان وهو في الجاهلية بين يدي هرقل عظيم الروم لما سألهما هرقل: هل كنتم تتهمنه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.

وأسألهما: هل يغدر؟ قال: لا.*.

* هذا الحديث أخرجه البخاري: (٤٥٥٣)، ومسلم: (١٧٧٣).

ولفظه: «عن ابن عباس، أن أبو سفيان، أخبره من فيه إلى فيه، قال: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ، قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من رسول الله ﷺ إلى هرقل يعني عظيم الروم، قال: وكان دحية الكلبي جاء به، فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل: هل هاتنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنهنبي؟ قالوا: نعم، قال: فدعني في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسياً من هذا الرجل الذي يزعم أنهنبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه، فقال له: قل لهم إني سأله عن الرجل الذي يزعم أنهنبي، فإن كذبني فكنبوا، قال: فقال أبو سفيان: وايم الله، لو لا مخافة أن يؤثر علي الكذب لكتبت، ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم، قال: قلت: هو فيما ذُو حسب، قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمنه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: ومن يتبعه؟ أشراف الناس أم ضعفاءهم؟ قال: قلت: بل ضعفاءهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قال: قلت: لا، بل يزيدون، قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطه له؟ قال: قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قاتلكم إيه؟ قال: قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً يصيب منا ونصيب منه، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها، قال: فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه، قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قال: قلت: لا، قال لترجمانه: قل له إني سألك عن حسيبه، فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تتبع في أحساب قومها، وسألتك: هل كان في آبائه ملك، فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك آبائه، وسألتك عن أتباعه أضعفاءهم أم أشرافهم، قلت: بل ضعفاءهم وهم أتباع الرسل، وسألتك: هل كنتم تتهمنه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله، وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطه له؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قد قاتلتموه فتكونون الحرب بينكم وبينه =

شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ، عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَقَدْ لَيْتُ فِيْكُمْ عُمَراً مِنْ قَبْلَهُ
أَفَلَا تَعْقُلُونَ» [يونس: ١٦] وما بعدها.

وكأنني بك هنا تحب أن أقدم لك من سيرته المطهرة مثلاً واضح الدلاله على مبلغ صدقه وأمانته في دعوى الوحي الذي نحن بصدده، وأنه لم يكن ليأتي بشيء من القرآن من تلقاء نفسه، فإليك طرفاً من ذلك:

١- لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفظه إلى القول، وكانت حاجته احتياج النبي القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقاولاً ومجالاً، الوحى ولكنها كانت تمضي الليلى والأيام تتبعها الليلى والأيام ولا يجد في شأنها قرآنًا على كون القرآن من عند الله يقرؤه على الناس.

ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة رضي الله عنها وأبطأ الوحي، حادثة الإفك وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: «إني لا أعلم عنها إلا خيراً»^(١)، ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله والكل

= سجالاً ينال منكم وتتالون منه، وكذلك الرسل تتالى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله قلت رجل اثنتم يقول قيل قبله، قال: ثم قال: بم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلة والزكاة والصلة والعفاف، قال: إن يكن ما تقول فيه حقاً فإنهنبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أنني أخلص إليه لأحبيت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ولبيلغن ملكه ما تحت قدمي، قال: ثم دعا بكتاب رسول الله صلوات الله عليه وسلم، فقرأه فإذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يوتوك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأربيسين، و﴿فَلَمْ يَأْهُلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَاتِ رَبِّهِمْ بَيْنَتَهَا وَبَيْنَكُوْنُ أَلَا تَقْبِدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا شَرِيكَ لَهُ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضَنَا بَعْضاً أَرْبَابَا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَمَنْ تَوَلَّا فَقَهُوا أَشْهَكُوا إِنَّا مُسْلِمُونَ» فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثير اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، قال، فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمر ابن أبي كبيشه، إنه ليخافه ملك بنى الأصغر، قال: فما زلت موقداً بأمر رسول الله صلوات الله عليه وسلم أنه سيظهر، حتى أدخل الله علي الإسلام».

(١) رواه البخاري: (٢٦٦١)، ومسلم: (٢٧٧٠)، ولفظه: «فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً».

يقولون: ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «يا عائشة،
أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب
فاستغفري الله»^(١).

(١) السابق، وسياق الحديث بتمامه: «عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا: فربأها الله مما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعىً لحديثها من بعض، وأثبت انتصاصاً، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني، وبعض حديثهم يصدق بعضًا، ذكرها، وأن عائشة زوج النبي ﷺ، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً، أقرع بين نسائه، فإذا تهنّج خرج سهّمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بیننا في غزوة غزّاها، فخرج فيها سهّمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فانا أحمل في هودجي، وأنزل فيه مسيّرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه، وقف، ودنوّنا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدرى فإذا عقدي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحسبني ابتعاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحملون لي فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنّي فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافاً، لم يهبلن ولم يغشنن اللحم، إنما يأكلن العلة من الطعام، فلم يستترن القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلتي الذي كنت فيه، وظنت أنّ القوم سيفقدونني فيرجعون إلى، فيبينا أنا جالسة في منزلتي غلبتي عيني فنمت، وكان صفوان بن المuttle الإسلامي ثم الذكوازي قد عرس من وراء الجيش فادلجه، فأصبح عند منزلتي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأني، وقد كان يراني قبل أن يضرّب الحجاب عليّ، فاستيقظت باستر gagueه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما يكلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استر gagueه، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش، بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت، حين قدمنا المدينة شهراً، والناس يفيسدون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وحبي أنّي لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف، الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «كيف تيكم؟» فذاك يريبني، ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نفّهت وخرجت معى أم مسطوح قبل المناصع، وهو متبرزاً، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن تتحذى الكتف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في النزهه، وكنا نتأذى بالكتف أن نتحذى عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطوح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها أبنة صخر بن عامر، حالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطوح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي، حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطوح في مرطها، فقالت: تعس مسطوح فقلت لها: بئس ما قلت، أتسين رجلاً قد شهد بدرنا، قالت: أي هنّه أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني يقول أهل الإفك فازدادت مرضًا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، فدخلت على رسول الله ﷺ، فسلم ثم قال: «كيف تيكم؟» قلت: أتأذن لي، أن آتي أبوى؟ قالت: وأنا حسند =

أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبي فقلت لأمي: ولا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: ولا بنية هونى عليك فوالله لقليما كانت امرأة قط وضيئته عند رجل يحبها، ولها ضرائر، إلا كثرون عليها، قالت قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقا لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامه بن زيد حين استثبت الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، قالت فأما أسامه بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله، وبالذى يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا، وأما على بن أبي طالب، فقال: لم يضيق الله علىك النساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أي بريرة هل رأيت من شيء يرببك من عائشة؟» قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليهما أمراً قد أغتصبه عليهما، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فاستعد من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معاشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معنى» فقام سعد بن معاذ الأنباري، فقال: أنا أعتذر منه، يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا فعذلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن اجهلته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتلها فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ -، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحياد الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ، قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخوضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقا لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكى ليلى المقابلة لا يرقا لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبوابي يظننان أن البكاء فالق كبيدي، في بينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت على امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي، قالت: في بينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلم، ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قبل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد يا عاشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ، مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأمي: أجب عنى رسول الله ﷺ، فيما قال فقال: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيب عنى رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم إني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إني بريئة لتصدقوني وإني، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف **﴿فَصَبَرْ جَيْلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَصَقُونَ﴾** [يوسف: ١٨] قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا، والله حينئذ أعلم إني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن، والله ما كنت أظن أن ينزل في شأنى =

هذا كلامه بوحي ضميره، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم. على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنًا براءتها، ومصدراً الحكم المبرم بشرفها وطهارتها. الحديث أخرجه الشیخان وغيرهما.

فماذا كان يمنعه -لو أن أمر القرآن إليه- أن يقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها إلى الوحي السماوي لتنقطع ألسنة المتخرين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويذب على الله ﷺ **لَقَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذَنَا مِنْهُ بِإِلَيْنِنِ ۝ ۝ ۝ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَجِزْنِنِ ۝** [الحاقة: ٤٤-٤٧] وما بعدها.

٢- وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه، فيخطئه في الرأي براه، ويأذن له في الشيء لا يميل إليه، فإذا ت berk فيه يسيرًا تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد، والعتاب القاسي، والنقد المرء، حتى في أقل الأشياء خطراً: **يَتَبَاهَ أَنَّهُ لَمْ تُخْرِمْ مَا أَهَلَ اللَّهُ لَكَ تَبَلَّغَ مَرَضَاتَ أَزْوَاجِكَ** [التحريم: ١]، **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا أَلَّهُ**

= وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله ﷺ في بأمر يتلى، ولكنني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا ييرثني الله بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله ﷺ على نبيه ﷺ، فأخذنه ما كان يأخذه من البراء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، في اليوم الشات، من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سري عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشرني يا عائشة أما الله فقد برأك» فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي، قالت: فأنزل الله ﷺ: **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِإِلَيْكُمْ عُصَبَةٌ** منكم عشر آيات فأنزل الله ﷺ هؤلاء الآيات براءتي، قالت: فقال أبو بكر وكان يتفق على مسطح لقرباته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة فأنزل الله ﷺ: **وَلَا يَأْتِي أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةُ أَنْ يُؤْتَوْا أُولَى الْقُرْبَى** إلى قوله: **أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَعْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ** [النور: ٢٢]، قال حبان بن موسى: قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجح آية في كتاب الله، فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان يتفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ عن أمري «ما علمت؟ أو ما رأيت؟» قالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصرى، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تسامي بي من أزواج النبي ﷺ، فغضبتها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك قال الزهرى: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط».

مُبَدِّيَهُ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ ﴿الْأَحْزَاب: ٣٧﴾، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَذِنْتَ لَهُمْ حَقَّ يَبْيَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَفُوا وَتَعْلَمُ الْكَذَّابِينَ﴾ [التوبه: ٤٣]، ﴿مَا كَانَ لِتَيْمَى وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَئِي قُرْبَةٍ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَنَّمِ﴾ [التوبه: ١١٣]، ﴿مَا كَانَ لِتَيْمَى أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَقَّ يُشْخَرُ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٦﴾ لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُمْ فِيمَا أَخْذَمْتُمْ عَذَابَ عَظِيمٍ﴾ [الأنفال: ٦٨]، ﴿أَمَّا مَنْ آسَفْنَاهُ فَأَنَّ لَهُ تَصْدِيَ﴾ ﴿٧﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَرَى﴾ ﴿٨﴾ وَمَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ ﴿٩﴾ وَهُوَ يَخْشَى﴾ ﴿١٠﴾ فَأَنَّ عَنْهُ ثَلَّهَ﴾ [عبس: ٥، ١٠] وما بعدها.

أرأيت لو كانت هذه التقريرات المؤلمة صادرة عن وجданه، معبرة عن ندمه ووخر ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه. أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائه؟ بلئن إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتتم شيئاً من ذلك الوجدان، ولو كان كاتماً شيئاً لكتتم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيِّ بِضَيْنِ﴾ [التكوير: ٢٤].

وتأمل آية الأنفال المذكورة، تجد فيها ظاهرة عجيبة، فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أسارى بدر وقبول الفداء منهم، وقد بدئت بالتخطة والاستنكار لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها وتطييب النفوس بها، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها، فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام -لو كان عن النفس مصدره- يمكن أن يصدر عنها آخره ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زمرة الغضب والندم وبين ابتسامة الرضا والاستحسان؟ كلا، وإن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منها إضراباً عن الأول ماحياً له، ولرجوع آخر الفكر وفقاً لما جرى به العمل، فأي داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله، على ما فيه من تقرير علني بغير حق، وتنغيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالاً طيبة؟ إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن -ها هنا- ألتة

شخصيتين منفصلتين، وأن هذا صوت سيد يقول لعبدة: لقد أساءت، ولكنني عقوت عنك وأذنت لك.

وأنت لو نظرت في هذه الذنوب التي وقع العتاب عليها لوجدت أنها تنحصر في شيء واحد، وهو أنه عليهما كان إذا ترجم بين أمرين ولم يجد فيهما إثما اختار أقربهما إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصميه، وأبعدهما عن الغلطة والجفاء، وعن إثارة الشبه في دين الله، لم يكن بين يديه نص فخالفه كفاحاً، أو جاوزه خطأً ونسيناً، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسعه في النظر، ورأى نفسه مخيراً فتخير، هبه مجتهداً أخطأ باختيار خلاف الأفضل .. أليس مدعوراً وأرجوراً؟ على أن الذي اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمه بشرية^(١) وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية. هل ترى في ذلك ذنباً يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتشريب؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية، وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب؟

توفي عبد الله بن أبي كbir المنافقين؛ فكفنه النبي في ثوبه، وأراد أن يستغفر له ويصلّي عليه، فقال عمر رضي الله عنه: أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال عليهما: «إنما خيرني ربّي فقال: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِن تَسْعَفُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسائل زيد عليه^(٢)، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصِّلْ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾

(١) وما كان اختيار عمر رضي الله عنه في مسألة الأسرى ونحوها إلا مظهراً من مظاهر الشدة التي كانت أغلب على طبعه.

وإن كانت هذه الشدة لتفتنه عن أمر الله يوم الحديبية كما سيجيء، فكانت موافقته للوحى في تلك المسائل مصادفة للحكم من غير مقدماته الحقيقة التي انفرد بها علام الغيوب.

(٢) رواه البخاري: (٤٧٠)، ومسلم: (٢٤٠٠)، ولنظره: «عن ابن عمر، قال: لما توفي عبد الله بن أبي ابن سلول جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله عليهما السلام، فسألته أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلّي عليه، فقام رسول الله عليهما السلام ليصلّي عليه؟ فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله عليهما السلام، فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله عليهما السلام: «إنما خيرني الله فقال: استغفر لهم أولاً لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة وسائل زيد على سبعين» قال: إنه منافق، فصلّى عليه رسول الله عليهما السلام، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصِّلْ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبْدَأَ وَلَا نَقْمَدْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤].

مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَقْمُ عَلَى قَبِرِهِ ﴿التجوية: ٨٠-٨٤﴾، فترك الصلاة عليهم -اقرأ هذه القصة الشابطة برواية الصحيحين وانظر ماذا ترى؟ - إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع وقد اتخذ من القرآن دستوراً يستملي أحکامه من نصوصه الحرفية، وتتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم وقد آنس من ظاهر^(١) النص الأول تخيراً له بين طريقين، فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة، ولم يلجاً إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النص الصريح بالمعنى.

وهكذا كلما درست مواقف الرسول ﷺ من القرآن في هذه المواطن أو غيرها تجلّى لك فيه معنى العبودية الخاضعة ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة؛ وتجلّى لك في مقابل ذلك من جانب القرآن، معنى القوة التي لا تتحكم فيها البواعث والأغراض بل تتصدع بالبيان فرقاً بين الحق والباطل، وميزاناً للخبيث والطيب، أحب الناس أم كرهوا، رضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا؛ إذ لا تزيدها طاعة الطائعين، ولا تنقصها معصية العاصين. فترى بين المقامين ما بينهما. وشتان ما بين سيد ومسود، وعبد ومعبد.

٣- ولقد كان يجيئه الأمر أحياناً بالقول المجمل أو الأمر المشكل الذي توقف الرسول ﷺ في بيانه في القرآن، ودلاته أي عاقل توحى إليه نفسه كلاماً لا يفهم هو معناه، وتأمره أمراً لا يعقل هو على المصدرية حكمته؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا أمر؟

نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدِّلُوا مَا فِي أَقْبِسْكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ أَعْلَم﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فأزعجت الآية الصحابة إزعاجاً شديداً، وداخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر؛ لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها - فقالوا: يا رسول الله، أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها - فقال لهم النبي ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ

(١) نقول: ظاهر النص؛ لأن العطف بأو يحتمل أن يكون التسوية لا التخيير، كما أن صيغة العدد تحتمل أن تكون المبالغة لا التحديد، وكلاهما احتمال قوي، إلا أن معنى التخيير والتحديد آت على أصل الوضع، وعلى مقتضى كرم الطبع، فلم يعدل عنه الرسول الكريم إلا بنص آخر.

قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»^(١) فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله: ﴿لَا يُكَفِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، إلى آخر السورة المذكورة، وهنالك علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب، وهو ما كان من النيات المكسوبة والعزائم المستقرة، لا من الخواطر والأمني الجارية على النفس بغير اختيار.

الحديث في مسلم وغيره، وأشار إليه البخاري في التفسير مختصراً^(٢). وموضع الشاهد منه أن النبي ﷺ لو كان يعلم تأويلها من أول الأمر لبين لهم خطأهم ولأزال اشتاهتهم من فوره؛ لأنه لم يكن ليكتم عنهم هذا العلم وهم في أشد الحاجة إليه، ولم يكن ليتركهم في هذا الهلع الذي كاد يخلع قلوبهم وهو بهم رءوف رحيم، ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها.

ولأمر ما أخر الله عنهم هذا البيان، ولأمر ما وضع حرف التراخي في قوله تعالى: ﴿تَبَّعْتُمْ إِنَّ عَيَّنَنَا بِيَانَهُ﴾ [القيمة: ١٩].

واقرأ في صحيح البخاري وسنن أبي داود^(٣) وغيرهما قضية الحديبية، ففيها آية بيّنة: أذن الله للمؤمنين أن يقاتلو من يعتدي عليهم أينما وجدوه، غير إلا صلح الحديبية، دلالته على المصدرية

(١) رواه مسلم: (١٢٥)، ولفظه: «عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ما في السمرات وَمَا في الأرض وَإِنْ تُبَدِّلُوا مَا فِي أَنْشِقَتِكُمْ أَوْ تُخْفِهُ مُعَابِسَتِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ لِمَنْ يَكْتَأِبُ وَيَعْلَمُ مَنْ يَكْشَأُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [البقرة: ٢٨٤]، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم برزوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلّنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد انزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقتربوا القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿إِمَّا مَنْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ مِنْ رَبِّيهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ مَنْ أَمَّنْ بِاللَّهِ وَمَكْتُوبَهِ وَكُلُّهُ رَسُولُنَا لَا نَفْرُطُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُسُلِنَا وَكَلُّهُمْ سَمِعُنَا وَأَطَعُنَا غُفرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» [البقرة: ٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله ﷺ: ﴿لَا يُكَفِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أَكَبَتْ رَبَّنَا لَا تُوَاجِدُنَا إِنْ سَيِّنَّا أَوْ أَخْطَأَنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] «قال: نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا عِصْرًا كَمَا حَمَّلْنَا أَنَّهُمْ مِّنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] «قال: نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] «قال: نعم» ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَأَغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] «قال: نعم».

(٢) البخاري: (٤٥٤٥)، (٤٥٤٦).

(٣) وهو حديث عظيم أخرجه البخاري: (٢٧٣١)، وأبي داود: (٢٧٦٥)، ولفظ البخاري:

«عن المسور بن مخرمة، ومروان، يصدق كل واحد منهم حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين» فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقرية الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالشنة التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلات القصواء، خلات القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلات القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطتهم إياها»، ثم زجرها فوثبت، قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على تمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فيبينما هم كذلك إذ جاء بدبليل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصر رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لوي، وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضررت بهم، فإن شاءوا مادتهم مدة، ويخلوا بيدي وبيدي الناس، فإن أظهراً: فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإن فقد جموا، وإن هم أبوا، فالذي نفسي بيده لأقاتلهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره»، فقال بدبليل: سأبلغهم ما تقول، قال: فانطلق حتى أتى قريشاً، قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قوله، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، أسلتم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تفهموني؟ قالوا: لا، قال: أسلتم تعلمون أنني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا على جستكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض لكم خطبة رشد، اقبلوها ودعوني آتية، قالوا: ائته، فأئته، فجعل يكلم النبي ﷺ نحو ما من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاز أهله قبلك، وإن تكن الأخرى، فإني والله لأرى وجوها، وإني لأرى أوثاباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر الصديق: امتص بطر اللات، أتحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذى نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجتك، قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب بيده بنعل السيف، وقال له: آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، ثم جاء ألسنت أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم، وأخذ أمواهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء»، ثم إن عروة جعل يرمي أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تتخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضاً كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم =

خضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمها له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والتجاشي، والله إن رأيت ملوكاً فقط يعظمه أصحابه ما يعظ أصحاب محمد ﷺ ملوكاً، والله إن تنخرن نحاماً إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضاً كانوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم خضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمها له، وإنما قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بنى كانانة: دعوني آتكم، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوه لها» فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه، قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتكم، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز، وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبيهنا هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، قال عمر: فأخبرني أياوب، عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي ﷺ: «لقد سهل لكم من أمركم» قال عمر: قال الزهرى في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدرى ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمين: والله لا نكتبه إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله» - قال الزهرى: وذلك لقوله: «لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطتهم إياها» - فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلو بيمنا وبين البيت، فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدد العرب أنا أحذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمين: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبيهنا هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا ولا محمد أول ما أقضيك عليه أن ترده إلى، فقال النبي ﷺ: «إانا لم نقض الكتاب بعد»، قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبداً، قال النبي ﷺ: «فأجزه لي»، قال: ما أنا بمجيئه لك، قال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بل قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي عشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله، قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت النبي الله ﷺ فقلت: ألسنت النبي الله حقاً، قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل، قال: «بلى»، قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: «إنما رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى»، فأخبرتك أنا نأتيه العام»، قال: قلت: لا، قال: «فإنك آتىه ومطوف به»، قال: فأتيت أبا بكر فقلت: ولا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى»، قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل إنه =

يقاتلوا في الحرم من لم يقاتلهم فيه نفسه، فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم﴾ [البقرة: ١٩٠] وما بعدها، فلما أجمعوا زيارة البيت الحرام في ذلك العام - وهو العام السادس من الهجرة - أخذوا أسلحتهم حذرًا أن يقاتلهم أحد فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع. ولما أشرفوا على حدود الحرم علموا أن قريشاً قد جمعت جموعها على مقربة منهم فلم يشن ذلك من عزمهم؛ لأنهم كانوا على تمام الأهبة، بل زادهم ذاك استبسالاً وصمموا على المضي إلى

رسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بعمره، فالله إله الحق، قلت: أليس
كان يحدثنا أنا سنتي النبي ونطوف به؟ قال: بلـى، فأخـبركـ أنـكـ تـأـتـيـهـ الـعـامـ؟ـ قـلـتـ:ـ لاـ،ـ قالـ:ـ فـإـنـكـ
آتـيـهـ وـمـطـوفـ بـهـ،ـ قالـ الزـهـريـ:ـ قـالـ عـمـرـ:ـ فـعـمـلـتـ لـذـكـ أـعـمـالـاـ،ـ قـالـ:ـ فـلـمـاـ فـرـغـ مـنـ قـصـيـةـ الـكـتـابـ،ـ
قـالـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ لـأـصـحـابـهـ:ـ قـوـمـاـ فـانـحـرـوـاـ ثـمـ اـلـحـلـقـواـ»ـ،ـ قـالـ:ـ فـوـالـلـهـ مـاـ قـامـ مـنـهـ رـجـلـ حـتـىـ قـالـ
ذـكـ ثـلـاثـ مـرـاتـ،ـ فـلـمـاـ لـمـ يـقـمـ مـنـهـ أـحـدـ دـخـلـ عـلـىـ أـمـ سـلـمـةـ،ـ فـذـكـ لـهـ مـاـ لـقـيـ مـنـ النـاسـ،ـ فـقـالـ
أـمـ سـلـمـةـ:ـ وـلـاـ نـبـيـ اللـهـ،ـ أـتـحـبـ ذـكـ،ـ اـخـرـجـ ثـمـ لـاـ تـكـلـمـ أـحـدـ مـنـهـ كـلـمـةـ،ـ حـتـىـ تـنـحـرـ بـدـنـكـ،ـ وـتـدـعـ
حـالـقـكـ فـيـ حـلـقـكـ،ـ فـخـرـجـ فـلـمـ يـكـلـمـ أـحـدـ مـنـهـ حـتـىـ فـعـلـ ذـكـ نـحـرـ بـدـنـهـ،ـ وـدـعـ حـالـقـهـ فـحـلـقـهـ،ـ فـلـمـ رـأـواـ
ذـكـ قـامـواـ،ـ فـنـحـرـوـاـ وـجـعـلـ بـعـضـهـمـ يـلـحـقـ بـعـضـهـمـ يـقـتـلـ بـعـضـهـمـ،ـ ثـمـ جـاءـهـ نـسـوـةـ مـؤـمـنـاتـ
فـأـنـزـلـ اللـهـ تـعـالـىـ:ـ «ـيـاـ أـيـهـاـ الـذـيـنـ آمـنـواـ إـذـ جـاءـكـ مـؤـمـنـاتـ مـهـاجـرـاتـ فـامـتـحـنـهـنـ»ـ [المتحـنـةـ:ـ ١٠ـ]
حـتـىـ بـلـغـ بـعـضـ الـكـوـافـرـ فـطـلـقـ عـمـرـ يـوـمـئـذـ اـمـرـأـتـينـ،ـ كـانـتـاـ لـهـ فـيـ الشـرـكـ فـتـزـوـجـ إـحـدـاهـماـ مـعـاـوـيـةـ بـنـ
أـبـيـ سـفـيـانـ،ـ وـالـأـخـرـ صـفـوانـ بـنـ أـمـيـةـ،ـ ثـمـ رـجـعـ النـبـيـ ﷺ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ،ـ فـجـاءـ أـبـوـ بـصـيرـ رـجـلـ مـنـ قـرـيـشـ
وـهـ مـسـلـمـ،ـ فـأـرـسـلـوـاـ فـيـ طـلـبـهـ رـجـلـيـنـ،ـ فـقـالـوـاـ:ـ الـعـهـدـ الـذـيـ جـعـلـ لـنـاـ،ـ فـدـفـعـهـ إـلـىـ الرـجـلـيـنـ،ـ فـخـرـجـاـ بـهـ
حـتـىـ بـلـغـ ذـاـ الـحـلـيـةـ،ـ فـنـزـلـوـاـ يـأـكـلـوـنـ مـنـ تـمـرـ لـهـمـ،ـ فـقـالـ أـبـوـ بـصـيرـ لـأـحـدـ الرـجـلـيـنـ:ـ وـالـلـهـ إـنـيـ لـأـرـىـ سـيـفـكـ
هـذـاـ وـلـاـ فـلـانـ جـيـداـ،ـ فـاـسـتـلـهـ الـآـخـرـ،ـ فـقـالـ:ـ أـجـلـ،ـ وـالـلـهـ إـنـهـ لـجـيدـ،ـ لـقـدـ جـرـبـتـ بـهـ،ـ ثـمـ جـرـبـتـ،ـ فـقـالـ
أـبـوـ بـصـيرـ:ـ أـرـنـيـ أـنـظـرـ إـلـيـهـ،ـ فـأـمـكـنـهـ مـنـهـ،ـ فـضـرـبـهـ حـتـىـ بـرـدـ،ـ وـفـرـ الـآـخـرـ حـتـىـ أـتـيـهـ الـمـدـيـنـةـ،ـ فـدـخـلـ الـمـسـجـدـ
يـعـدـوـ،ـ فـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ حـيـنـ رـأـهـ:ـ (ـالـقـدـ رـأـيـ هـذـاـ ذـعـرـ)ـ فـلـمـ اـنـتـهـىـ إـلـىـ النـبـيـ ﷺـ قـالـ:ـ قـتـلـ وـالـلـهـ
صـاحـبـيـ وـإـنـيـ لـمـ مـقـتـولـ،ـ فـجـاءـ أـبـوـ بـصـيرـ فـقـالـ:ـ وـلـاـ نـبـيـ اللـهـ،ـ قـدـ وـالـلـهـ أـوـفـيـ اللـهـ ذـمـتكـ،ـ قـدـ رـدـدـتـنـيـ إـلـيـهـمـ،ـ
ثـمـ أـنـجـانـيـ اللـهـ مـنـهـمـ،ـ قـالـ النـبـيـ ﷺ:ـ (ـوـيـلـ أـمـهـ مـسـعـرـ حـربـ،ـ لـوـ كـانـ لـهـ أـحـدـ)ـ فـلـمـ سـمـعـ ذـكـ عـرـفـ أـنـهـ
سـيـرـدـهـ إـلـيـهـمـ،ـ فـخـرـجـ حـتـىـ أـتـيـ سـيـفـ الـبـحـرـ قـالـ:ـ وـيـنـقـلـتـ مـنـهـمـ أـبـوـ جـنـدـلـ بـنـ سـهـيلـ،ـ فـلـحـقـ بـأـبـيـ بـصـيرـ،ـ
فـجـعـلـ لـاـ يـخـرـجـ مـنـ قـرـيـشـ رـجـلـ قـدـ أـسـلـمـ إـلـاـ لـحـقـ بـأـبـيـ بـصـيرـ،ـ حـتـىـ اـجـتـمـعـتـ مـنـهـمـ عـصـابـةـ،ـ فـوـالـلـهـ مـاـ
يـسـمـعـونـ بـعـيرـ خـرـجـتـ لـقـرـيـشـ إـلـىـ الشـأـمـ إـلـاـ اـعـتـرـضـوـاـ لـهـاـ،ـ فـقـتـلـوـهـمـ وـأـخـدـوـاـ أـمـوـالـهـمـ،ـ فـأـرـسـلـتـ قـرـيـشـ إـلـىـ
الـنـبـيـ ﷺ تـنـاـشـدـهـ بـالـلـهـ وـالـرـحـمـ،ـ لـمـ أـرـسـلـ،ـ فـمـنـ أـتـاهـ فـهـوـ أـمـنـ،ـ فـأـرـسـلـ النـبـيـ ﷺ إـلـيـهـمـ،ـ فـأـنـزـلـ اللـهـ
تـعـالـىـ:ـ (ـوـهـوـ اللـهـ كـفـ لـيـبـهـمـ عـنـكـمـ وـلـيـكـمـ عـنـهـمـ يـبـطـنـ مـكـةـ مـنـ بـعـدـ أـنـ أـطـرـكـمـ عـلـيـهـمـ وـكـانـ اللـهـ يـمـاـ تـعـمـلـونـ
بـصـيـرـاـ)ـ [الفـتـحـ:ـ ٢٤ـ]ـ حـتـىـ بـلـغـ (ـالـحـيـةـ حـيـةـ الـجـهـاـنـةـ)ـ [الفـتـحـ:ـ ٢٦ـ]ـ وـكـانـ حـمـيـتـهـمـ أـنـهـمـ لـمـ يـقـرـوـاـ أـنـهـ
نـبـيـ اللـهـ،ـ وـلـمـ يـقـرـوـاـ بـيـسـمـ اللـهـ الرـحـمـنـ الرـحـيمـ،ـ وـحـالـوـاـ بـيـهـمـ وـبـيـنـ الـبـيـتـ)ـ.

البيت، فمن صدهم عنه قاتلوه، وكانت قريش قد نهكتها الحروب، فكانت البواعث كلها متضاغرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يمكن فيها الحق من الباطل فيدمغه، وإنهم لسائرون عند الحديبية إذ برقت راحلة النبي ﷺ وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، أي حرت الناقة. فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حبس الفيل»^(١).

يعني أن الله الذي اعقل الفيل ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين هو الذي اعقل هذه الناقة ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عنوة، وهكذا أیقنت أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين، لا بادئين ولا مكافئين. وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية، وعدل بهم عن متابعة السير؛ امثلاً لهذه الإشارة الإلهية التي لا يعلم حكمتها، وأخذ يسعى لدخول مكة من طريق الصلح مع قريش قائلاً: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»، ولكن قريشاً أبى أن يدخلها في هذا العام لا محارباً ولا مسالماً، وأملت عليه شروطاً قاسية بأن يرجع من عامه، وأن يرد كل رجل يجيئه من مكة مسلماً، وألا ترد هي أحداً يجيئها من المدينة تاركاً لدینه، فقبل تلك الشروط التي لم يكن ليمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم، وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم وبالعودة من حيث جاءوا، فلا تسل عما كان لها الصلح من الواقع السيئ في نفوس المسلمين، حتى إنهم لما جعلوا يحلقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضهم بعضاً ذهولاً وغماً، وكادت تزيغ قلوب فريق من كبار الصحابة، فأخذوا يتساءلون فيما بينهم، ويراجعونه هو نفسه قائدين: لِمَ نعطي الدينية في ديننا؟ وهكذا كاد الجيش يتمرد على أمر قائده ويفلت حبله من يده، أفلم يكن من الطبيعي إذ ذاك لو كان هذا القائد هو الذي وضع هذه الخطة بنفسه أو اشتراك في وضعها أو وقف على أسرارها أن يبين لكتاب أصحابه حكمة هذه التصرفات التي فوق العقول، حتى يطفئ نار الفتنة قبل أن يتطاير شررها؟ ولكن انظر كيف كان جوابه حين

(١) رواه البخاري: (٢٧٣١).

راجعه عمر: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري». يقول: إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن أنفذ أمر مولاي واثقاً بنصره قريراً أو بعيداً. وهكذا ساروا راجعين لهم لا يدركون تأويل هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح فبيّنت لهم الحكم الباهرة والبشارات الصادقة، فإذا الذي ظنوه ضيّماً وإيجافاً في بادي الرأي كان هو النصر المبين والفتح الأكبر^(١) وأين تدبير البشر من تدبير القدر؟ **﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ لَيْلَيْهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيهِمْ عَنْهُمْ يَطْمَئِنُ مَكَّةُ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَطْفَرْتُكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾** هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَهُدِيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَلْبِغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْغُوْهُمْ فَتُقْبِلُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعْدَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيمَةَ حَمِيمَةً الْجَهَنَّمَةَ فَأَنَزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَرْمَاهُمْ كَلْمَةً الْقَوَى وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَاهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ يُكْلِلُ شَيْءاً عَلَيْمًا لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الْأُرْبَيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِمَّا مُحْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُفَقَّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعِلْمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا فِي بَيْنَ [الفتح: ٢٤، ٢٧] وما بعدها.

٤- ولقد كان **ﷺ** حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحى يتلقفه متوجلاً حاليه **ﷺ** عند نزول الوحي، فيحرك به لسانه وشفتيه؛ طلياً لحفظه، وخشية ضياعه من صدره. ودلائلها على

ولم يكن ذلك معروفاً من عادته في تحضير كلامه، لا قبل دعوه النبوة مصدرية القرآن ولا بعدها، ولا كان ذلك من عادة العرب، إنما كانوا يزورون كلامهم في أنفسهم، فلو كان القرآن منجساً من معين نفسه لجرى على سنة كلامه وكلامهم، ولكن له من الروية والأناة الصامتة ما يكفل له حاجته من إنصاج الرأي وتمحیص

(١) قال ابن إسحاق، قال الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضها بعضًا التقووا وتقاوموا في الحديث، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً في تلك المدة إلا دخل فيه».

وسر ذلك صاحب الفتح فقال: «إن الناس لأجل الأمان الذي وقع بينهم اختلط بعضهم بعض من غير نكير، وظهر من كان يخفى إسلامه، وأسمع المسلمين المشركين القرآن، وناظروهم جهراً آمنين. وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية. فذل المشركون من حيث أرادوا العزة، وأفهروا من حيث أرادوا الغلبة».*

* انظر: السيرة، لابن هشام: (٣٢٢/٢)، وفتح الباري، لابن حجر: (٣٤٨/٥).

الفكرة، ولكنه كان يرى نفسه أمام تعليم يفاجئه وقتياً ويلم به سريعاً، بحيث لا تجدي الروية شيئاً في اجتلابه لو طلب، ولا في تداركه واستذكاره لو ضاع منه شيء، وكان عليه أن يعيد كل ما يلقى إليه حرفياً، فكان لا بد له في أول عهده بتلك الحال الجديدة التي لم يألفها من نفسه أن يكون شديد الحرص على المتابعة الحرفية، حتى ضمن الله له حفظه وبيانه بقوله: ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦] الآيات من سورة القيامة، و قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضَيَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].



سيرته العامة **هذا طرف من سيرته بإزاء القرآن، وكلها شواهد ناطقة بصدقه في أن القرآن لم يصدر عنه، بل ورد إليه، وأنه لم يفض عن قلبه بل أفيض عليه، فإذا أنت صعدت بنظرك إلى سيرته العامة لقيت من جوانبها مجموعة رائعة من الأخلاق العظيمة.** أن القرآن من عند الله **وحسبك الآن منها أمثلة يسيرة إذا ما تأملتها صورت لك إنساناً الطهر ملء ثيابه، والجد حشو إهابه، يأبى لسانه أن يخوض فيما لا يعلمه، وتأبى عيناه أن تخفي خلاف ما يعلنه، ويأبى سمعه أن يصغي إلى غلو المادحين له، تواضع هو حلية العظماء، وصراحة نادرة في الرعماء، وتثبت قلماً تجده عند العلماء. فأنت من مثله الختل أو التزوير، أو الغرور أو التغريب؟ حاش لله!**

١- جلست جويريات يضربن بالدف في صبيحة عرس الربيع بنت معوذ الأنصارية، وجعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر حتى قالت جارية منهن: وفيهانبي يعلم ما في غد. فقال ﷺ: «لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين»^(١). الغيب **ومصداقه في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَنَاتُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿قُلْ لَا أَمِلُكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْرِثُ مِنَ الْحَيْرَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].**

(١) رواه البخاري: (٤٠٠١)، ولفظه:

عن الربيع بنت معوذ، قالت: دخل علي النبي ﷺ غداة بنى علي، فجلس على فراشي ك مجلسك مني، وجويريات يضربن بالدف، يندبن من قتل من آبائهم يوم بدر، حتى قالت جارية: وفيهانبي يعلم ما في غد. فقال النبي ﷺ: «لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين».

٢- وكان عبد الله بن أبي السرح أحد النفر الذين استثنواهم النبي من الأمان ظاهره كباطنه، لا يخون أبداً يوم الفتح لفطرة إيمانهم لل المسلمين وصدتهم عن الإسلام، فلما جاء إلى النبي لم يبايعه إلا بعد أن شفع له عثمان رضي الله عنه ثلثاً. ثم أقبل على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيته فيقتله؟»؟ فقالوا: ما ندري ما في نفسك. ألا أو ماتت إلينا بعينك؟ فقال عليه السلام: «إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين»^(١).

٣- وجيء بصبي من الأنصار يصلي عليه، فقالت عائشة رضي الله عنها: طوبى لهذا، لم يعمل شرّاً. فقال عليه السلام: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنّة وخلق لها أهلاً، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم»^(٢) رواه مسلم وأصحاب السنن.

٤- ولما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه قال أم العلاء -امرأة من الأنصار-: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال عليه السلام: «وما يدركك أن الله أكرمك؟»؟ فقالت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ قال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير. والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بي». قالت: فو الله لا أزكي أحداً بعده أبداً. رواه البخاري

(١) رواه أبو داود: (٤٣٥٩)، ولفظه:

عن مصعب بن سعد، عن سعد، قال: لما كان يوم فتح مكة، اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان، فجاء به حتى أوقفه على النبي عليه السلام، فقال: يا رسول الله، بايع عبد الله، فرفع رأسه، فنظر إليه ثلثاً، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رأى كففت يدي عن بيته، فيقتله؟»؟ فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أو ماتت إلينا بعينك؟ قال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين».

(٢) قال العلماء: إن هذا التوقف كان قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنّة.

* والحديث أخرجه مسلم: (٢٦٦٢)، وأبي داود: (٤٧١٣)، ولفظه عند مسلم: «عن عائشة أم المؤمنين، قالت: دعي رسول الله عليه السلام إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنّة لم يعملسوء ولم يدركه، قال: «أو غير ذلك، يا عائشة إن الله خلق للجنّة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم».

والإمام أحمد^(١). ومصداقه في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَاٰ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يُكُنُّ﴾ [الأحقاف: ٩].

أتراه لو كان حين يتحامى الكذب يتحامى دهاءً وسياسة، خشية أن يكشف الغيب قريباً أو بعيداً عن خلاف ما يقول، ما الذي كان يمنعه أن يقول ما يشاء في شأن ما بعد الموت وهو لا يخشى من يراجعه فيه، ولا يهاب حكم التاريخ عليه؟ بل منعه الخلق العظيم، وتقدير المسؤولية الكبرى أمام حاكم آخر أعلى من التاريخ وأهله ﴿فَلَسْكُنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْكُنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ فلنقتصر على عيوب **وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾** [الأعراف: ٦، ٧] وما بعدها.

واعلم أنك مهما أزحت عن نفسك راحة اليقين وأرخيت لها عنان الشك وتركتها تفترضأسوء الفروض في الواقعه الواحدة والحادية الفذة من هذه السيرة المكرمة فإنك متى وقفت منها على مجموعة صالحة لا تملك أن تدفع هذا اليقين عن نفسك إلا بعد أن تتهم وجداك وتشك في سلامتك عقلك. فنحن قد نرى الناس يدرسون حياة الشعراء في أشعارهم فيأخذون عن الشاعر من كلامه صورة كاملة تمثل فيها عقائده وعوايشه وأخلاقه ومجراه تفكيره وأسلوب معيشته، ولا يمنعهم زخرف الشعر وطلاؤه عن استنباط خيلته، وكشف رغوته عن صريحه؛ ذلك أن للحقيقة قوة غلابة تنفذ من حجب الكتمان فتقرأ بين السطور وتعرف في لحن القول، والإنسان مهما أمعن في تصنعي ومداهنته لا يخلو من فلتات في قوله وفعله تنم على طبعه إذا أحفظ أو أخرج أو احتاج أو ظفر أو خلا بمن يطمئن إليه.

(١) رواه البخاري: (١٢٤١)، (٢٦٨٧)، وأحمد: (٢٧٤٥٧)، ولفظ البخاري:

«أن أم العلاء، امرأة من الأنصار بایعت النبي ﷺ أخبرته: أنه أقسام المهاجرون فرعة فطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فوجع وجعه الذي توفي فيه، فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه، دخل رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله قد أكرمه؟» فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدرى، وأنا رسول الله، ما يفعل بي» قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً».

(٢) قال العلماء: وكان هذا قبل أن يوحى إليه صدر سورة الفتح ﴿يَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَفَدَّمَ مِنْ ذُنُوبِكَ وَمَا تَأْخُرَ﴾.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن حالها تخفي على الناس تعلم
فما ظنك بهذه الحياة النبوية التي تعطيك في كل حلقة من حلقاتها مرآة صافية
لنفس صاحبها؛ فتريك باطنه من ظاهره، وتريك الصدق والإخلاص ماثلاً في كل
قول من أقواله وكل فعل من أفعاله. بل كان الناظر إليه إذا قويت فطنته وحسنت
فراسته يرى أخلاقه العالية تلوح في محياه ولو لم يتكلم أو يعمل، ومن هنا كان
كثيراً من شرح الله صدورهم للإسلام لا يسألون رسول الله على ما قال برهاناً،
فمنهم العشير الذي عرفه بعظمته سيرته؛ ومنهم الغريب الذي عرفه بسماته في
وجهه. قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لما قدم رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه المدينة انجل الناس
إليه، وقيل: قدم رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه! «جئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجه
رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب»^(١). رواه الترمذى بسند صحيح.

والآن، وقد وفيانا لك الوعد بعرض هذه النماذج من السيرة النبوية، نعود إلى
تقرير ما قصدناه من هذا العرض فنقول: إن صاحب هذا الخلق العظيم وصاحب
تلك المواقف المتواضعة بإزاء القرآن، ما كان ينبغي لأحد أن يتمترى في صدقه
حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هو واسع ذلك الكتاب، وأن منزلته منه منزلة
المتعلم المستفيد، بل كان يجب أن نسجل من هذا الاعتراف البريء دليلاً آخر
على صراحته وتواضعه.

على أن الأمر أمامنا أوضح من أن يحتاج إلى سماع هذا الاعتراف القولي هل يمكن أن
يكون القرآن
منه صلوات الله عليه وآله وسلامه، أو يتوقف على دراسة تلك الناحية الخلقية من تاريخه.
إيجاء ذاتياً من
أليس يكفي للحكم ببراءة الإنسان من عمل من الأعمال أن يقوم من طبيعته
نفس محمد؟
شاهد بعجزه المادي عن إنتاج ذلك العمل؟

(١) رواه الترمذى: (٢٤٨٥)، وقال حسن صحيح، ولفظه:

«عن عبد الله بن سلام، قال: لما قدم رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه المدينة انجل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه،
فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبتت وجه رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب وكان
أول شيء تكلم به أن قال: «يا أيها الناس، أفسحوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيا
تدخلون الجنة بسلام».

فلينظر العاقل: هل كان هذا النبي الأمي -صلوات الله عليه- أهلاً بمقتضى
وسائله العلمية لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية؟

سيقول الجهلاء من الملحدين: نعم؛ فقد كان له من ذكائه الفطري وبصيرته
النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء، والحسن والقبح من الأخلاق،
والخير والشر من الأفعال، حتى لو أن شيئاً في السماء تناله الفراسة أو تلهمه
الفطرة أو توحى به الفكرة لتناوله محمد بفطرته السليمة، وعقله الكامل وتأملاته
الصادقة.

ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله، ولكننا نسأل: هل كل ما في
القرآن مما يستتبّه العقل والتفكير، وما يدركه الوجдан والشعور؟ اللهم كلا،
المعاني النقلية
في القرآن
لا تستتب
بالعقل،
ولا تدرك
بالوجдан
ففي القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة التي لا مجال فيها للذكاء
والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقي والتعلم.
ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق، وما فصله من تلك الأنباء
على وجهه الصحيح كما وقع؟ أ يقولون: إن التاريخ يمكن وضعه أيضاً بإعمال
ال الفكر ودقة الفراسة؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون: إن محمداً قد
عاصر تلك الأمم الخالية، وتنقل فيها قرناً، فشهادت هذه الواقع مع أهلها شهادة
عيان، أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين
في علم دقائقها؟ إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذاك؛ لأنهم معترفون مع
العالم كله بأنه عليهم السلام لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُقُولُونَ أَفَلَمْ يَأْتُهُمْ يَكْفُلُ مَرِيم﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يُكْرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ فَضَيْتَكَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]
وما بعدها، ﴿وَمَا كُنْتَ ثَلَوْا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَبٍ وَلَا تَخْطُلُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ﴿تَلَكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ثُوِجِهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنَّ وَلَا قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]، ﴿نَحْنُ نَقْصُ عَيْكَ أَحْسَنَ الْفَصَصِ بِمَا أَوْجَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

لا نقول: إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجمل ما جرى من الأخبار الغيبة في القرآن، حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشياه ذلك لم يصل قط إلى ولالتها على الأميين؛ فإن هذه النتف اليسيرة قلما تعزب عن أحد من أهل البدو أو الحضر؟ أن القرآن من الله لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأمثال، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنه يد الأميين، ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين، وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررًا في القرآن.

حتى الأرقام .. طبق الأرقام: فترى مثلاً في قصة نوح عليه السلام في القرآن أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً. وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة.

وترى في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثةمائة سنة شمسية، وفي القرآن أنهم لبثوا في كهفهم ﴿ثُلَّثَ مائَةٍ سِنِينَ وَأَذَادُوا سِعْيً﴾ وهذا السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية. قاله الزجاج، يعني: بتكامل الكسر^(١).

فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أمم أمية لا تكتب ولا تحسب.

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في الitem
 نعم؛ إنها لعجبية حقاً: رجل أمي بين أظهر قوم أميين، يحضر مشاهدهم -في غير الباطل والفحور- ويعيش معيشتهم مشغولاً برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعياً بالأجر، أو تاجراً بالأجر، لا صلة له بالعلم والعلماء؛ يقضى في هذا المستوى أكثر منأربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بينعشية وضحاها فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته، وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك، ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطراهم^(٢). أفي مثل هذا يقول الجاهلون: إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟ أي منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمي نتيجة طبيعية لتلك الحياة

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٥/١٥٠). (عمرو)

(٢) القماطرا: ما ت-chan به الكتب. (عمرو)

الماضية الأمية؟ إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سر آخر يُلتمس خارجاً عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة. وإن ملاحقة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلاً لهذه الظاهرة وأقرب فهماً لهذا السر من ملاحقة هذا العصر، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء: إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه، بل قالوا: إنه لا بد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة، فدرس منها ما لم يكن قد درس، وتعلم ما لم يكن يعلم ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْأَيَّاتَ وَلَيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، ﴿وَقَالُوا أَسْطِرُ الْأَوَّلِينَ أَكَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

ولقد صدقوا؛ فإنه درسها، ولكن على أستاذه الروح الأمين، واكتتبها، ولكن من صحف مكرمة مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة، كرام ببرة ﴿فُلَّ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَّهُ، عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَكَدَّ لِبْثُ فِيْكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

ذلك شأن ما في القرآن من الأنبياء التاريخية، لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها.

للهعقل حد في فأما سائر العلوم القرآنية فقد يقال: إنها من نوع ما يدرك بالعقل، فيمكن أن ينالها الذكي بالفراسة أو بالرواية، وهذا كلام قد يلوح حقاً في بادئ الرأي، ولكنه لا يلبث أن ينهاي أمام الاختبار.

ذلك أن العقول البشرية لها في إدراك الأشياء طريق معين تسلكه، وحد محدود تقف عنده ولا تتجاوزه. فكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة، ولم يكن مرکوزاً في غريزة النفس، إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذلك المجهول، إما بسرعة كما في الحدس، وإما ببطء كما في الاستدلال والاستنباط والمقاييسة. وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات لا يمكن أن تناهيه يد العقل بحال، وإنما سبيله الإلهام، أو النقل عن جاءه ذلك الإلهام.

فهل ما في القرآن من المعاني غير التاريخية كانت حاضرة الوسائل والمقدمات في نظر العقل؟

ذلك ما سيأتيك نبؤه بعد حين، ولكننا نعجل لك الآن بمثالين من تلك المعاني نكتفي بذكرهما هنا عن إعادتهما بعد:

«أحدهما» قسم العقائد الدينية.

«والثاني» قسم النبوءات الغيبية.

فأما أمر الدين فإن غاية ما يجتنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه، بعد الغب، ودلالته على مصدريّة معاونة الفطرة السليمة له، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلَّهاً قاهرًاً دبره، وأنه القرآن لم يخلقه باطلًاً، بل وضعه على مقتضى الحكم والعدالة، فلا بد أن يعيده كرامة أخرى؛ لينال كل عامل جزاء عمله؛ إن خيراً وإن شرًّاً. هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين، ولكن القرآن لا يقف في جانبه عند هذه المرحلة، بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلاً، ويصف لنا بده الخلق ونهايته، ويصف الجنة وأنواع نعيمها، والنار وألوان عذابها، كأنهما رأي عين، حتى إنه ليحصي عدة الأبواب، وعدة الملائكة الموكلة بتلك الأبواب، فعلى أي نظرية عقلية بنيت هذه المعلومات الحسابية، وتلك الأوصاف التحديدية؟ إن ذلك ما لا يوحى به العقل ألبتة، بل هو إما باطل فيكون من وحي الخيال والتخمين، وإما حق فلا ينال إلا بالتعليم والتلقين، لكنه الحق الذي شهدت به الكتب واستيقنه أهلها ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحَبَّ الْأَرْضَ إِلَّا مَلِيکَهُ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُبُوَا الْكِتَبَ وَيَزَادَ الَّذِينَ ءامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَذَرِّي مَا الْكِتَبُ وَلَا إِلَيْمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمِلَأِ الْأَكْلَمِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [سورة ص: ٦٩]، ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَفَقَصِيلَ الْكِتَبِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

وأما النبوءات الغيبية فهل تعرف كيف يحكم فيها ذو العقل الكامل؟ إنه يتخذ المستقبل، من تجاربه الماضية مصباحًاً يكشف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث ودلالته على مصدريّة القرآن المقبلة، جاعلاً الشاهد من هذه مقاييسًا للغائب من تلك، ثم يصدر فيها حكمه محاطًا بكل تحفظ وحذر، قائلاً: «ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث لو سارت

الأمور على طبيعتها ولم يقع ما ليس في الحسبان». أما أن يبت الحكم بتاً ويحدده تحديداً حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية، ولا تلوح منه أمارة من الإمارات الظنية العادية، فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين: إما رجل مجازف لا يبالي أن يقول الناس فيه: صدق أو كذب، وذلك هو دأب جهلاء المتنبهين من العرافين والمنجمين، وإما رجل اتخذ عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده، وتلك هي سنة الأنبياء والمرسلين، ولا ثالث لهما إلا رجلاً روى أخباره عن واحد منهم.

فأي الرجلين تراه في صاحب هذا القرآن حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع في أعوام، وما سيكون أبداً الدهر، وما لن يكون أبداً الدهر؟ ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم، ولا كانت أخلاقه كأخلاقيهم تمثل الدعوى والتتحقق، ولا كانت أخبارهم خليطاً من الصدق والكذب، والصواب والخطأ، بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكتفه، يجيئه عفواً ما تعجز صروف الدهر وتقلباته في الأحقاد المتطاولة أن تنقض حرفًا واحدًا مما ينبغي به ﴿وَإِنَّهُ لَكَتَبَ عَزِيزٌ لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١] وما بعدها.

ولنسرد لك هنا هنا بعض النبوءات القرآنية مع بيان شيء من ملابساتها التاريخية؛ لترى هل كانت مقدماتها القريبة أو البعيدة حاضرة فتكون تلك النبوءات من جنس ما توحى به الفراسة والألمعية؟ وسنحصر الكلام في ثلاثة أنواع:

- ١- ما يتعلق بمستقبل الإسلام في نفسه، أو في شخص كتابه ونبيه.
- ٢- ما يتصل بمستقبل المؤمنين.
- ٣- ما يتصل بمستقبل الحزبين، حزب الله وحزب الشيطان^(١).

(مثال النوع الأول) ما جاء في بيان أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود، وأن هذا القرآن قد ضمن الله حفظه وصيانته ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَطْلُ فَمَمَّا أَزَّبَدُ فَيَذَهَبُ جُفَاءً وَمَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، ﴿أَلَمْ

(١) سقط بعض هذه الجملة، وحصل فيها تغيير في نسخة (دار القلم). (عمرو)

تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كِلَمَةً طِبَّةً كَشَجَرَةَ أَصْلُهَا ثَالِتٌ وَقَرْعُهَا فِي الْسَّكَمَاءِ
﴿تُؤْتِي أَكُلُّهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إِبرَاهِيمٌ: ٢٤، ٢٥]، ﴿إِنَّا نَخْنُ نَزَّلْنَا الْكِتَابَ وَإِنَّا
لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [الْحُجَّرَ: ٩]، أَتَعْلَمُ مَتَى وَأَيْنَ صَدَرَتْ هَذِهِ الْبَشَارَاتُ الْمُؤْكَدَةُ، بَلْ
الْعَهُودُ الْوَثِيقَةُ؟

إِنَّهَا آيَاتٌ مَكِيَّةٌ مِنْ سُورَاتِ مَكِيَّةٍ. وَأَنْتَ قَدْ تَعْرَفُ مَا أَمْرُ الدُّعَوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي
مَكَّةَ؟ .

عشرَ سَنَوَاتٍ كُلُّهَا إِعْرَاضٌ مِنْ قَوْمِهِ عَنِ الْاسْتِمَاعِ لِقُرْآنِهِ، وَصَدَ لِغَيْرِهِمْ عَنِ
الْإِصْغَاءِ لَهُ، وَاضْطَهَادٌ وَتَعْذِيبٌ لِتَلْكَ الْفَئَةِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي آمَنَتْ بِهِ، ثُمَّ مَقَاطِعَةُ لَهُ
وَلِعَشِيرَتِهِ وَمَحَاصرَتِهِ مَدَةً غَيْرَ يَسِيرَةٍ فِي شَعَابِ مَكَّةَ، ثُمَّ مَؤَامَرَاتٍ
سَرِيَّةٍ أَوْ عَلَيَّةِ عَلَى قَتْلِهِ أَوْ نَفْيِهِ .

فَهَلْ لِلْمَرءِ أَنْ يَلْمُحَ فِي ثَنَاءِي هَذَا الْلَّيلِ الْحَالِكِ الَّذِي طَوَّلَهُ عَشْرَةُ أَعْوَامٍ،
شَعَاعًا وَلَوْ ضَئِيلًا مِنَ الرَّجَاءِ أَنْ يَتَنَفَّسْ صَبْحَهُ عَنِ الإِذْنِ لِهُؤُلَاءِ الْمُظْلَومِينَ بِرَفْعٍ
صَوْتِهِمْ وَإِعْلَانِ دُعَوَتِهِمْ؟ وَلَوْ شَامَ الْمُصْلِحُ تَلْكَ الْبَارَقَةُ مِنَ الْأَمْلِ فِي جَوَانِبِ
نَفْسِهِ مِنْ طَبِيعَةِ دُعَوَتِهِ، لَا فِي أَفْقِ الْحَوَادِثِ، فَهَلْ يَتَفَقَّ لَهُ فِي مُثْلِ هَذِهِ الظَّرَوفَ
أَنْ يَرْبُو فِي نَفْسِهِ الْأَمْلُ حَتَّى يَصِيرَ حَكْمًا قَاطِعًا؟ وَهُبَّهُ امْتَلَأَ رَجَاءً بِظَهُورِ دُعَوَتِهِ
فِي حَيَاتِهِ مَا دَامَ يَتَعَهَّدُهَا بِنَفْسِهِ، فَمَنْ يَتَكَفَّلُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ بِبَقَاءِ هَذِهِ الدُّعَوَةِ
وَحِمَایَتِهَا وَسَطْ أَمْوَاجِ الْمُسْتَقْبَلِ الْعَاتِيَّةِ؟ وَكَيْفَ يَجِيئُهُ الْيَقِينُ فِي ذَلِكَ وَهُوَ يَعْلَمُ
مِنْ عَبْرِ الزَّرْمَانِ مَا يَفْتَ فِي عَضْدِ هَذِهِ الْيَقِينِ؟ فَكُمْ مِنْ مُصْلِحٍ صَرَخَ بِصَيْحَاتِ
الْإِصْلَاحِ فَمَا لَبِثَ أَصْوَاتُهُ أَنْ ذَهَبَتْ أَدْرَاجُ الرِّياحِ. وَكُمْ مِنْ مَدِينَةٍ قَامَتْ فِي
التَّارِيخِ ثُمَّ عَفَتْ وَدَرَسَتْ آثارَهَا. وَكُمْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ . وَكُمْ مِنْ كِتَابٍ فُقدَ أَوْ اُنْتَقَصَ
أَوْ بُدُلَ .

وَهَلْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ تَسْتَخْفَهُ الْآمَالِ فِي جَرِيَّةِ الْخَيَالِ؟ إِنَّهُ مَا كَانَ قَبْلَ
نَبُوَتِهِ يَطْمَعُ فِي أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا يُوحَى إِلَيْهِ ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا
رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الْقَصْصَ: ٨٦]، وَلَا كَانَ بَعْدَ نَبُوَتِهِ يَضْمُنُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَبْقَى هَذَا

الوحي محفوظاً لديه ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦] وما بعدها.

فلا بد إذاً من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفسه. ومن ذا الذي يملك هذا الضمان على الدهر المتقلب المملوء بالمفاجآت؟ إلا رب الدهر الذي بيده زمام الحوادث كلها، والذي قدر مبدأها ومنتهاها، وأحاط علمًا بمحارها ومرساها. فلولا فضل الله ورحمته الموعود بهما في الآية الآنفة لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التي أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن.

سل التاريخ: كم مرة تنكر الدهر لدول الإسلام، وتسلط الفجار على المسلمين فأثخنوا فيهم القتل، وأكرهوا أممًا منهم على الكفر، وأحرقوا الكتب، وهدموا المساجد، وصنعوا ما كان يكفي القليل منه لضياع هذا القرآن كُلًا أو بعضاً؛ كما فعل بالكتب قبله؛ لو لا أن يد العناية تحرسه فبقى في وسط هذه المعamus رافعاً راياته، وأعلامه. حافظاً آياته وأحكامه، بل أسأل صحف الأخبار اليومية: كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق في كل عام لمحو هذا القرآن وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغَلَّبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ذلك بأن الذي يمسكه أن يزول هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولاً. ذلك بأن الله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَهِّرَهُ عَلَى الْأَلْدِينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، [التوبه: ٣٣]، والله بالغ أمره، ومتمن نوره، فظاهر وسيقى ظاهراً لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله.

التحدي (ومثال آخر) ما جاء في التحدي بهذا القرآن وتعجيز العالم كله عن الإتيان القرآني، ولداته على بمثله ﴿قُلْ لِئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسَانُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضِلُ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤].

فانظر هنا النفي المؤكّد، بل الحكم المؤيد! هل يستطيع عربي يدرى ما يقول أن يصدر هذا الحكم وهو يعلم أن مجال المساجلات بين العرب مفتوح على

مصارعيه، وأن الناقد المتأخر متى أعمل الروية في تعقب قول القائل المتقدم لا يُعيبه أن يجد فيه فائتاً ليستدرك؛ أو ناقصاً ليكمل، أو كلاماً ليزداد كمالاً؟ ألم يكن يخشى بهذا التحدي أن يثير حميتهم الأدبية فيهباوا لمنافسته وهم جميع حذرون؟ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر، فيكمل ثانيةم ما نقصه أولهم، وهكذا، حتى يخرجوا كلاماً إن لم يبزه فلا أقل من أن يساميه ولو في بعض نواحيه؟ ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيمة، بل على الإنس والجن؟ إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها رجل يعرف قدر نفسه إلا وهو مالئ يديه من تصاريف القضاء، وخبر السماء، وهكذا رماها بين أظهر العالم، فكانت هي القضاء المبرم سُلْط على العقول والأفواه، فلم يهم بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح، والفشل الفاضح، على مر العصور والدهور.

(ومثال ثالث) تلك الآية التي يضمن الله بها لنبيه حماية شخصه والأمن على حياته حتى يبلغ رسالات ربه: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بِلَغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لَهُ قَنْعَلَ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهِيءُ لِقَوْمٍ أَكْفَرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

إن هذا -وايم الله- ضمان لا يملكه بشر، ولو كان ملكاً محجباً تسير الحفظة القرآن من بين يديه ومن خلفه. فكم رأينا ورأي الناس من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد الغيلة وهم في مواكبهم تحيط بهم الجنود والأعونان. ولكن انظر مبلغ ثقة الرسول ﷺ بهذا الوعيد الحق: روى الترمذى والحاكم عن عائشة، وروى الطبرانى عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ يحرس بالليل، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال: «يأيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله»^(١).

وحقاً لقد عصمه الله منهم في مواطن كثيرة كان خطر الموت فيها أقرب إليه

(١) رواه الترمذى: (٣٠٤٦)، ولنفعه: «عن عائشة، قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فأنخر رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال لهم: «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله».

من شراك نعله، ولم يكن له فيها عاصم إلا الله وحده.

من ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة، ورواه مسلم في صحيحه عن جابر قال: كنا إذا أتينا في سفرينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرقاع نزل النبي تحت شجرة وعلق سيفه فيها. فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه^(١) وقال للنبي ﷺ: أ تخافني؟ قال: «لا». قال: فمن يمنعك مني؟ قال: «الله يمنعني منك، ضع السيف»^(٢) فوضعه. وحسبك أن تعلم أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف.

ومن أعظم الواقع تصديقاً لهذا النبأ الحق ذلك الموقف المدهش الذي وقفه النبي ﷺ في غزوة حنين، منفرداً بين الأعداء، وقد انكشف المسلمين وولوا مدربين، فطفق هو يركض ببلغته إلى جهة العدو، والعباس بن عبد المطلب آخذ بلجامها يكفيها إرادة ألا تسرع، فأقبل المشركون إلى رسول الله ﷺ فلما غشوه لم يفر ولم ينكص، بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه، وجعل يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»^(٣) كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه، فهو الله ما نالوا منه نيلًا، بل أيده الله بجنده، وكف عنه أيديهم بيده. الحديث رواه

(١) اخترط السيف: استله من غمده.

(٢) رواه البخاري: (٢٩١٠)، ومسلم: (٨٤٣)، ولفظه:

«عن جابر بن عبد الله، قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ في وادٍ كثير العضاد، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، فعلق سيفه بغضنه من أغصانها قال وتنرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن رجلاً أتاني وأنا نائم، فأأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلتني في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال قلت: الله، قال: فشام السيف فها هو ذا جالس» ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ».

(٣) رواه البخاري: (٢٩٣٠)، ومسلم: (١٧٧٦)، ولفظه:

«عن أبي إسحاق، قال: جاء رجل إلى البراء، فقال: أكتتم وليت يوم حنين ولا أبا عمارة؟ فقال: أشهد على النبي الله ﷺ ما ولّي، ولكنه انطلق أخفاء من الناس، وحسّر إلى هذا الحي من هوازن، وهم قوم رماة، فرمواهم برشق من نبل لأنها رجل من جراد، فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث يقود به ببلغته، فنزل ودعا واستنصر، وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، اللهم نزل نصرك»، قال البراء: «كنا والله إذا احمر البأس ننتقي به، وإن الشجاع منا للذى يحاذى به، يعني النبي ﷺ».

الشيخان عن البراء بن عازب . ورواه مسلم عن العباس وسلمة بن الأكوع ، ورواه
أحمد وأصحاب السنن وغيرهم^(١) .

وهكذا أمتع الله به أمهه فلم يقبضه إليه حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وحتى
أنزل عليه قوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْلَمْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ
دِينَكُمْ﴾ [المائدة : ٣] .

(وإليك مثلاً من النوع الثاني)

كان القرآن في مكة يقص على المسلمين من أنباء الرسل ما يثبت فؤادهم ،
ويعدهم الأمان والنصر الذي كان لمن قبلهم ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُلَّمَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ
إِنَّهُمْ هُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات : ١٧١] ، ﴿إِنَّا لَنَصْرُ
رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُولُونَ أَلَا شَهَدُ﴾ [غافر : ٥١] ، فلما هاجروا
إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتنة ظنوا أنهم قد وجدوا مأمنهم في مهاجرتهم ،
ولكنهم ما لبثوا أن هاجمتهم الحروب المسلحة من كل جانب ، فانتقلوا من خوف
إلى خوف أشد . وأصبحت كل أمنيتهم أن يجيء يوم يضعون فيه أسلحتهم ، وفي
هذه الأوقات العصيبة يتباهيهم القرآن بما سيكون لهم من الخلافة والملك ، علاوة
على الأمان والاطمئنان ، فما هذا؟ أحلام وأمني؟ لا ، بل وعد مؤكд بالقسم :
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْنَ هُمْ بِنِيمِ الَّذِي أَرْضَى لَهُمْ وَلَكِيدَلَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾
[النور : ٥٥] .

روى الحاكم وصححه عن أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ
وأصحابه المدينة وأوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة . وكانوا
لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصرون إلا فيه ، فقالوا: أترون أنا نعيش حيث نبيت
آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فنزلت الآية^(٢) . وروى ابن أبي حاتم عن البراء
قال: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد^(٣) .

(١) سقط التخريج من طبعة (دار القلم) . (عمرو)

(٢) رواه الحاكم: (٣٥١٢)، (٤٣٤/٢)، ولغظه: «عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ
وأصحابه المدينة وأوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة كانوا لا يبيتون إلا

فانظر كيف جاء تأويلها على أوسع معانيها في عصر الصحابة أنفسهم الذين وقع لهم خطاب المشافهة في قوله: ﴿مَنْكُرٌ﴾ فبدلوا من بعد خوفهم أمّا لا خوف فيه، واستخلفو في أقطار الأرض فورثوا مشارقها ومغاربها.

وتأمل قوله في هذه الآية ﴿وَعَكِلُوا الْأَصْلَاحَ﴾ وقوله في الآية الأخرى ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنْتُمُ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الْأَصْلَوَةَ وَإِنَّمَا الْزَّكُوَةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] وما بعدها، تجد فيها نبأ آخر عن سر ما يبتلى به المؤمنون أحياناً من انتهاص أرضهم وسلط أعدائهم عليهم ﴿أَوْلَمَا أَصَبَّنَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبَّتُمْ مُثْلِيَّاً قُلْنَمْ أَفَ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا لِعَمَّا أَعْمَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعِدُّوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأనفال: ٥٣].

(مثال آخر)

منع المسلمين من دخول مكة عام الحديبية، واشترطت عليهم قريش إذا جاءوها في العام المقبل أن يدخلوها عزلًا من كل سلاح إلا السيوف في القرُب، فهل كان لهم أن يثقو بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلووا منهم نكث العهود وقطع الأرحام وانتهاك شعائر الله؟ أليسوا اليوم يحسبون هديهم أن يبلغ محله؟ فماذا هم صانعون غداً؟ على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبيهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم، ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ؟ وأية ذلك اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيف في القرب، وهو سلاح قد يطمئن به المسلمين إلى أنهم لن ينالوهم بأيديهم ورمادهم، ولكنه لا يؤمنون معه أن ينالوهم بسهامهم وبناليهم، في هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعود الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة: الدخول،

= بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: «ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فنزلت: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَكِلُوا الْأَصْلَاحَ لِيَسْتَحْلِفُوهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَحْلَفَ الَّذِينَ بَنَ قَبْلِهِمْ وَلَيُحِكِّمَنَّ هُمْ بِيَمِنِ الْأَذْغَبِ أَرْضَنَّ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥] إلى ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [النور: ٥٥] يعني بالنعمـة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّاهِرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢].

(١) تفسير ابن أبي حاتم: (١٤٧٦٧)، والدر المنشور: (٢١٥/٦). (عمرو)

والأمن، وقضاء الشعيرة ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الْرِّءَيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ مُحْلِقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧]، فدخلوها في عمرة القضاء آمنين، ولبשו فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم وقضوا مناسكهم .. الحديث أخرجه الشیخان^(١).

(ومثلاً ثالثاً): كان المشركون يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة، يقولون لهم: إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب، وقد غلبتهم المحوس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم؛ فنزلت الآية ﴿إِنَّمَا غُبِّيَ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَيْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٤-٦].

لقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن في وقت معين إخباراً بأمررين كل منهما خارج عن متناول الظنون، ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفي من دلائله أنها غربت في عقر دارها وهزمت في بلادها كما قال تعالى: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها بعد ذلك قائمة، فضلاً عن أن يحدد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر؛ ولذلك كذب به المشركين وتراهنوا على تكذيبه، على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين، بل عززهما بثالث، حين يقول: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه ها هنا نصر للمسلمين على المشركين، وإذا كان كل واحد من النصرتين في حد ذاته مستبعداً عند الناس أشد الاستبعاد فكيف الظن بوقوعهما مقتربتين في يوم؟ لذلك أكد أعظم التأكيد بقوله: ﴿وَرَعَدَ اللَّهُ لَا يَحْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

ولقد صدق الله وعده، فتمت للروم الغلبة على الفرس، بإجماع المؤرخين في أقل من تسع سنين^(٢). وكان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى، كما رواه الترمذى عن أبي سعيد، ورواه

(١) سبق بتمامه.

(٢) رب قائل يقول: هلأ حدد القرآن عدد السنين بل فقط أصرح من لفظ البعض المتراوح بين الثلاثة والتسع، أليس الله بأعلم بيوم النصر و ساعته، بله سنته؟ فنقول: بلى، ولكن الناس في اصطلاحهم =

الطبرى عن ابن عباس وغيره^(١).

(وهذه أمثلة من النوع الثالث):

استعصى أهل مكة على النبي ﷺ فدعا عليهم بسنين كثني يوسف، فانظر ما قاله القرآن في جواب هذا الدعاء: ﴿فَارْتَقَبِ يَوْمَ تَأْقِي السَّمَاءُ إِلَيْخَانِ مُّبِينٍ﴾ [١٥] يَعْشَى النَّاسُ هَذَا عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠، ١١] وما بعدها، فماذا جرى؟ أصحابهم القحط حتى أكلوا العظام، وحتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد. رواه البخاري عن ابن مسعود. ثم انظر قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّا كَاسِفُوا الْعَذَابِ قَيْلَالًا إِنَّكُمْ عَابِدُونَ﴾ [١٥] يوم بَطَشَ الْبَطْشَةَ الْكُبُرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٥، ١٦]^(٢) ، تَرَ فيها ثلاث نبوءات أخرى: كشف البؤس عنهم، ثم عودتهم إلى مكرهم السيئ، ثم الانتقام منهم بعد ذلك، وقد كان ذلك كله كما بينه الحديث الصحيح المذكور، فإنهم لما جاءوا إلى رسول الله يستسقون وتضرعوا إلى الله: ﴿رَبَّنَا أَكْشَفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢] ، سقاهم الله

= الحسابي لا يجرؤون على طريقة واحدة، فمنهم من يحسب بالشمس، ومنهم من يحسب بالقمر، ومنهم من يكمي الكسور، ومنهم من يلغيها، فكان مقتضى الحكم التعبير باللفظ الصادق على كل تقدير ليكون أقطع لكل شبهة، وأبعد عن كل جدل ومحاورة، ثم إنه ربما تراخي الأمر بين بشائر النصر ووقائعه الفاصلة فيقع اختلاف الحسابيين في تعين الوقت الذي يضاف إليه النصر والغلبة. ولذا حسن التعبير بلفظ «في بضع» دون أن يقال: بعد بضع.

(١) رواه الترمذى: (٣١٩٣)، والطبرانى: (٢١/١٦).

(٢) رواه البخارى: (٤٨٢١)، ومسلم: (٢٧٩٨)، ولغفظه: «عن مسرور، قال: جاء إلى عبد الله رجل فقال: تركت في المسجد رجلاً يفسر القرآن برأيه يفسر هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَأْقِي السَّمَاءُ إِلَيْخَانِ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] قال: يأتي الناس يوم القيمة دخان، فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم منه كهيئة الزكام، فقال عبد الله: من علم علماً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من فقه الرجل أن يقول لما لا علم له به: الله أعلم، إنما كان هذا، أن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ، «دعا عليهم بسنين كثني يوسف»، فأصحابهم قحط وجهد، وحتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، وحتى أكلوا العظام، فأتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله استغفر الله لمضر، فإنهم قد هلكوا، فقال: «لمضر إنك لجريء» قال: فدعوا الله لهم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاسِفُوا الْعَذَابِ قَيْلَالًا إِنَّكُمْ عَابِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥] قال: فنطروا، فلما أصابتهم الرفاية، قال: عادوا إلى ما كانوا عليه، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿فَارْتَقَبِ يَوْمَ تَأْقِي السَّمَاءُ إِلَيْخَانِ مُّبِينٍ﴾ [١٦] يعني يوم بدر. قال: يعني يوم بدر».

فأخصبوا، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى عتواهم واستكبارهم، فبطش الله بهم البطشة الكبرى يوم بدر، حيث قُتل من صناديدهم سبعون، وأُسر سبعون.

وقد تكرر في القرآن المكي إنباؤهم بهذا الانتقام على صور شتى^(١):

فتارة يأتي مجملًا، كما في قوله: ﴿وَلَا يَرَأُلُ الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِئُهُ أَفَلَا يَحْلُلُ فَرِبَا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١]، قوله ﴿فَتُولَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِنِينَ وَأَبْصِرُهُمْ فَسَوْفَ يُبَصِّرُونَ﴾ [الصفات: ١٧٤، ١٧٥] وما بعدها.

وتارة يعين نوع العذاب بأنه الهزيمة الحربية كما في قوله: ﴿سَيَهُمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الْدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]^(٢). وهذا كما ترى من عجيب الأنبياء في مكة، حيث لا مجال للأصل فكرة الحرب والتقاء الجموع، فضلاً عن توقيع فرارها وهزيمتها، حتى إن عمر رض- لما نزلت هذه الآية جعل يقول: أي جمع هذا؟ قال: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صل يقولها. رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه، وعجزه في الصحيحين^(٣).

وتارة ينص على حوادث جزئية محددة منه -وهذا أعجب وأغرب- كما في قوله في شأن الرجل الزنديم^(٤) الذي كان يقول في القرآن: إنه أساطير الأولين ﴿سَيِّمُهُ عَلَى الْمُرْطَبِوْم﴾ [سورة ن: ١٦]، فأصيب بالسيف في أنفه يوم بدر. وكان ذلك علامه له يعيّر بها ما عاش. رواه الطبرى وغيره عن ابن عباس.

ونظير هذه الأنبياء في كفار قريش ما ورد في كفار اليهود. انظر كيف يقول فيهم:

(١) سقطت هذه الجملة بتمامها من طبعة دار القلم. (عمرو)

(٢) ونحوها ما ورد في سورة المزمول وهي من أوائل ما نزل في مكة ﴿عَلَمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مُّهَاجِرٌ وَمَا حَرَوْنَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَا حَرَوْنَ يَبْتَغُونَ فِي سَيِّلِ اللَّهِ﴾ [المزمول: ٢٠].

(٣) روى البخاري: (٤٨٧٥)، عن ابن عباس رض: أن رسول الله صل قال: وهو في قبة يوم بدر: «اللهم إني أشدك عهلك ووعدك، اللهم إن تشاً لا تعبد بعد اليوم» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، وهو يثبت في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيَهُمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الْدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

وانظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٨٧١٣).

(٤) المشهور أنه هو الوليد بن المغيرة المخزومي الذي نزل فيه ﴿ذُرْنِي وَمَنْ حَلَقْتُ وَجِيدًا﴾ الآيات من سورة المدثر.

﴿لَن يُضُرُوكُم إِلَّا أَذَىٰ وَإِن يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُم الْأَدَبَارُ ثُمَّ لَا يُنَصَّرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] وما بعدها، وقد فعل. ثم يقول: ﴿صُرِيتُ عَلَيْهِمُ الَّذِلَّةُ أَيْنَ مَا تُقْفِرُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحْبَلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]. ويقول: ﴿وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكَ لِيَعْثَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

فيما عجبًا لهذه الآيات! هل كانت مؤلفة من حروف وكلمات؟ أم كانت أغلالًا وضع في أعناقهم إلى الأبد، وأصفادًا شدت بها أيديهم فلا فكاك؟ ألا تراهم منذ صدرت عليهم هذه الأحكام أشتاتًا في كل واد، أذلاء في كل ناد، لم تقم لهم في عصر من العصور دولة، ولم تجتمعهم قط بلدة، وهم اليوم على الرغم من تضخم ثروتهم المالية إلى ما يقرب من نصف الشروة العالمية لا يزالون مشردين ممزقين عاجزين عن أن يقيموا لأنفسهم دويلة كأصغر الدوليات. بل تراهم في بلاد الغرب المسيحية يسامون أنواع الخسف والنkal، ثم تكون عاقبتهم الجلاء عنها مطرودين، وببلاد الإسلام التي هي أرحب أرض الله صدرًا، إنما تقبلهم رعية محكومين لا سادة حاكمين.

وهل أتاك آخر أئبهم؟

لقد زينت الآن لهم أحلامهم أن يتخدوا من «الأرض المقدسة» وطنًا قوميًّا تأوي إليه جالياتهم من أقطار الأرض، حتى إذا ما تألف هنالك شعب ملتئم الشمل وطال عليهم الأمد فلم يزعجهم أحد، سعوا إلى رفع هذا العار التاريخي عنهم بإعادة ملكهم القديم في تلك البلاد. وعلى برق هذا الأملأخذ أفواج منهم يهاجرون إليها زرافاتٍ ووحداناً، وينزلون بها خفافاً أو ثقالاً .. فهل استطاعوا أن يتقدموا هذه الخطوة الأولى -أو لعلها الأولى والأخيرة- مستندين إلى قوتهم الذاتية؟ كلا. ولكن مستندين إلى «حبل من الناس!!» فماذا تقول؟ قل: صدق الله، ومن أصدق من الله حديثًا. أما ظنهم الذي يظنون وهو أنهم بمزاحمتهم للسكان في أرضهم وديارهم يمهدون لما يحلمون به من مزاحمتهم بعد في ملكهم وسلطانهم، فذلك ما دونه خرط القتاد، يريدون أن يبدلو كلام الله، ولا مبدل لكلماته ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَفِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، ﴿وَاللَّهُ مِنْ

وَرَأَهُمْ مُحِيطٌ ﴿البروج: ٢٠﴾

فانظر إلى عجيب شأن النبوءات القرآنية كيف تقتحم حجب المستقبل قريباً وبعيداً، وتحكم في طبيعة الحوادث توقياً وتأييداً، وكيف يكون الدهر مصداقاً لها فيما قل وكثير، وفيما قرب وبعد؟

بل انظر إلى جملة ما في القرآن من النواحي الإخبارية كيف يتناول بها محمد ﷺ ما وراء حسه وعقله من أنباء ما كان وما سيكون وما هو كائن، وكيف أنه كلما حدثنا فيها عن الماضي صدقته شواهد التاريخ، وكلما حدثنا عن المستقبل صدقته الليالي والأيام، وكلما حدثنا عن الله وملائكته وشئون غيبه صدقته الأنبياء والكتب.

ثم اسأل نفسك بعد ذلك «أترين هذا الرجل الأمي جاء بهذا الحديث كله من عند نفسه؟» .. تسمع منها جواب البديهة الذي لا تردد فيه «إنه لا بد أن يكون قد استقى هذه الأنباء من مصدر علمي وثيق، واعتمد فيها على اطلاع واسع ودرس دقيق. ولا يمكن أن تكون تلك الأنباء كلها وليدة عقله وثمرة ذكائه وعقريته» وإلا فأين هذا الذكي أو العقري الذي أعطاه الدهر عهداً بأن يكون عاصماً لظنونه كلها من الخطأ في كشف وقائع الماضي مهما قدم، وأنباء المستقبل مهما بعد؟

إن الأنبياء أنفسهم -وهم في الطبقة العليا من الذكاء والفتنة بشهادة الكافة- لم يظفروا من الدهر بهذا العهد في أقرب الحوادث إليهم، فقد كانوا فيما عدا تبليغ الوحي إذا اجتهدوا رأيهم فيما غاب عن مجلسهم أصابت فراستهم حيناً وأخطأت حيناً.

هذا يعقوب عليه السلام نراه يتهم بنيه حين جاءوا على قميصه بدم كذب، ثم يعود فيتهمهم حين قالوا له: إن ابنك سرق، فيقول لهم في كل مرة: «**بُلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَرُ جَمِيلٌ**» [يوسف: ١٨، ٨٣]، وقد أصاب في الأولى، ولكنه في الثانية اتهمهم وهو براء.

وهذا موسى عليه السلام نراه يقول للعبد الصالح **﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾** [الكهف: ٦٩]، ثم ينسى فلا يطيق معه صبراً ولا يطيع له أمراً.

وهذا محمد ﷺ كان ربما هم الناس أن يضللوه في الأحكام، فيدافع عن

المجرم ظنًا أنه بريء، حتى يتبئه العليم الخير.

فإن كنت في شك من ذلك فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْحَاجِينَ حَصِيمًا وَاسْتَغْفِرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥-١١٣].

وقد صح في سبب نزولها أن لصاً عدا ذات ليلة على مشربة لرجل من الأنصار يقال له رفاعة، فنقب مشربته، وسرق ما فيها من طعام وسلاح، فلما أصبح الأننصاري افتقد متابعه حتى أيقن أنه في بيتبني أبيرق، وكان فيهم منافقون، فبعث ابن أخيه إلى النبي يشкро إليه، فقال عليه السلام: «سانظر في ذلك». فلما سمع بذلك بنو أبيرق جاءوا إلى النبي فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه رفاعة عمدا إلى أهل بيته أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. فجاء قتادة فقال له النبي عليه السلام: «يا قتادة، عمدت إلى أهل بيته ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت وبينة!» فرجع قتادة إلى عمه فأخبره، فقال عمه: الله المستعان. ثم لم تلبث أن نزلت الآية تبين للنبي خيانةبني أبيرق، وتأمره بالاستغفار مما قال لقتادة. الحديث رواه الترمذى^(١)، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم^(٢).

بل اسمع قوله عليه السلام عن نفسه فيما يرويه أحمد وابن ماجه: «إنما أنا بشر مثلكم، وإن الظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم «قال الله» فلن أكذب علي الله»^(٣)، وقوله «إنما أنا بشر، وإنكم تختصرون إلي، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له على نحو ما أسمع، فمن

(١) رواه الترمذى، عن قتادة بن النعمان: (٣٠٣٦).

(٢) المستدرك: (٤٢٦/٤).

(٣) رواه أحمد: (١٣٩٥)، ومسلم: (٢٣٦١)، ولفظه: «عن موسى بن طلحة، عن أبيه، قال: مررت مع رسول الله عليه السلام بقوم على رءوس النخل، فقال: «ما يصنع هؤلاء؟» فقالوا: يلقوه، يجعلون الذكر في الأنثى فيلقيح، فقال رسول الله عليه السلام: «ما أظن يغنى ذلك شيئاً» قال فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر رسول الله عليه السلام بذلك فقال: «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظنت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثكم عن الله شيئاً، فخذلوا به، فإني لن أكذب على الله تعالى».

قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها» رواه مالك
والشيوخ وأصحاب السنن^(١).

فمن كان هكذا عاجزاً بنفسه عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين في زمانه وفي بلده، وقد رأى أشخاصهما وسمع أقوالهما، هو بلا شك أشد عجزاً عن إدراك ما فات، وما هو آت.

تلك هي شقة الغيب تنطفي عندها مصابيح الفراسة والذكاء، فلا يدنو العقل منها إلا وهو حاطب ليل وخابط عشواء: إن أصاب الحق مرة أخطأه مرات، وإن أصابه مرات أخطأه عشرات، على أن الذي يصادفه الصواب لا يمكن الوثوق ببقائه معصوماً من التغيير والتبدل، بل عسى أن تذهب به ريح المصادفة كما جاءت به ريح المصادفة ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ عَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ أَخْلَانًا كَثِيرًا﴾

[النساء: ٨٢].



لَا مناص إِذَا لِلباحث عَنْ مَصْدَرِ الْقُرْآنِ مِنْ تَوْسِيعِ دَائِرَةِ بحثِهِ، فَإِذَا لم يَظْفِرْ بِمُطْلَبِهِ عَنْ صَاحِبِ الْقُرْآنِ فِي نَاحِيَةِ عَقْلِهِ وَفِرَاسَتِهِ، وَجَبَ أَنْ يَلْتَمِسْهُ - وَأَنْ يَظْفِرْ بِهِ حَتَّى - فِي نَاحِيَةِ تَعْلِيمِهِ وَدِرَاستِهِ؛ لِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِكَلَامِ مَا لَا يَعْدُ أَنْ يَكُونَ قَائِلًا لَهُ أَوْ نَاقِلًا. وَلَا ثالِثُ لَهُمَا.

نعم إن صاحب هذا القرآن لم يكن ممن يرجع بنفسه إلى كتب العلم ودواوينه، لأنه باعتراف الخصوم كما ولد أمياً نشا أمياً وعاش أمياً، فما كان يوماً من الأيام يتلو كتاباً في قرطاس ولا يخطه بيديه، فلا بد له من معلم يكون قد وقفه على هذه المعاني لا بطريق الكتابة والتدوين بل بطريق الإملاء والتلقين. هذا هو حكم

(١) رواه البخاري : (٧٨١)، ومسلم : (١٧١٣)، ولفظه : «عن أم سلمة، زوج النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال : إنما أنا بشر، وإنه يأتيبني الخصم، فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليحملها أو يذرها».

المنطق.

ستقول: فمن هو ذلك المعلم؟

نقول: هذا هو الشطر الثاني من مسألة القرآن.

وأنت إذا تأملت فيما سقناه لك من البراهين على الشطر الأول وجدت بجانب كل منها برهاناً آخر على هذا الشطر الثاني، وعرفت من هو ذلك المعلم؟ غير أننا نحب أن نزيدك به معرفة؛ حتى تقول معنا فيه: «ما هذا بشرًا، إن هذا إلا ملك كريم، مبلغ عن رب العالمين».



أما أن محمداً ﷺ لم يكن له معلم من قومه الأميين فذلك ما لا شبهة فيه نسأ محمد ﷺ لأحد، ولا نحسب أحداً في حاجة إلى الاستدلال عليه بأكثر من اسم «الأمية» بين أمة أمية، اشتقت لها اسم الذي يشهد عليهم بأنهم كانوا خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون من أمر الدين من الجهل شيئاً، وكذلك اسم «الجاهلية» الذي كان أخص الألقاب بعصر العرب قبل الإسلام، فهو لاء الدين فقدوا أساس هذا العلم في أنفسهم حتى اشتبه لهم من الجهل اسم، كيف يحملون وسام التعليم فيه لغيرهم، بله التعليم لمعلّمهم الذي وسمهم بالجهل غير مرة في كتابه، وسرد جهالاتهم في غير سورة من هذا الكتاب، حتى قيل: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما بعد المائة من سورة الأنعام.

وأما أنه لم يكن له معلم من غيرهم فحسب الباحث فيه أن نحيله على التاريخ وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث، والإسلامي منه وال العالمي، ثم نسأله: هلقرأ فيه سطراً واحداً؟ يقول: إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب لقي قبل إعلان نبوته فلاناً من العلماء فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين، ومن قصصه عن الأولين والآخرين.

ليس علينا نحن أن نقيم برهاناً أكبر من هذا التحدي لإثبات أن ذلك لم يكن،

وإنما على الذين يزعمون غير ذلك أن يثبتوا أن ذلك قد كان، فإن كان عندهم علم فليخرجوه لنا إن كانوا صادقين.

لا نقول: إنه ﷺ لم يلق ولم ير بعينه أحداً من علماء هذا الشأن لا قبل دعوى النبوة ولا بعدها. فنحن قد نعرف أنه رأى في طفولته راهباً اسمه بحيراً في اللقاء بالراهب سوق بصرىً بالشام، وأنه لقى في مكة نفسها عالماً اسمه ورقة بن نوفل، وكان بن نوفل لم يُعرف بغيره، وهذا على إثر مجيء الوحي العلني له وقبل إعلان نبوته بثلاثين شهراً. كما نعرف يكن سراً مستوراً أنه لقى بعد إعلان نبوته كثيراً من علماء اليهود والنصارى في المدينة. ولكننا ندعى دعوى محدودة، نقول: إنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء العلماء لا قبل ولا بعد، وإنه قبل نبوته لم يسمع منهم شيئاً من هذه الأحاديث البتة.

أما الذين لقوه بعد النبوة فقد سمع منهم وسمعوا منه. ولكنهم كانوا له سائلين عنه آخذين، وكان هو لهم معلمًا وواعظًا ومنذراً ومبشراً.

وأما الذين رأهم قبل، فإن أمر لقائه إياهم لم يكن سراً مستوراً، بل كان معه في كل مرة شاهد: فكان عمّه أبو طالب رفيقاً له حين رأى راهب الشام، وكانت زوجة خديجة رفيقة له حين لقي ورقة، فماذا سمعه هذان الرفيقان من علوم الأستاذين؟ هلا حدثنا التاريخ بخبر ما جرى؟ وما له لا يحدثنا هذا الحديث العَجَب الذي جمع في تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن وتفاصيل أخباره فيما بين بداية العالم ونهايته!! ولماذا لم يتخد خصومه من هذه الحجة الواضحة سلاحاً قاطعاً لحجته مع شدة سعيهم في هدم دعوه، والتجائهم لأوهن الشبهات في تكذيبه، وقد كان هذا السلاح أقرب إليهم، وكان وحده أمضى في إبطال أمره من كل ما لجأوا إليه من مهاترة ومكابرة.

إن سكوت التاريخ عن ذلك كله حجة كافية على عدم وجوده؛ لأنه ليس من الهنات الهنات التي يتغاضى عنها الناس الواقعون لهذا الأمر بالمرصاد.

حديث التاريخ عن لقاء النبي عليه أن التاريخ لم يسكت، بل نبأنا بما كان من أمر الرجلين: فقد حدثنا عن بحيرى راهب الشام أنه لما رأى هذا الغلام رأى فيه من سيماء النبوة الأخيرة وحليتها في ورقة الكتب الماضية ما أنطقه بتبيشير عمه قائلاً: إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم. وحدثنا عن ورقة أنه لما سمع ما قصه عليه النبي من صفة الوحي وجد فيها من

خصائص الناموس الذي نزل على موسى ما جعله يعترف بنبوته ويتمنى أن يعيش حتى يكون من أنصاره.

فمن عرف للتاريخ حرمته وأمن بوقائعه كما هي، كانت هذه الواقع حجة لنا عليه، ومن لم يستح أن يزيد في التاريخ حرفاً من عنده فيقول: إن محمداً ضم السمع إلى اللقاء فليتقول ما يشاء، وليعلم أنه سوف يخرج لنا بهذه الزيادة تاريخاً متناقضًا يكذب أوله آخره، وآخره أوله؛ إذ كيف يعقل أن رجلاً رأى علامات النبوة في أمرٍ فبشره بها قبل وقوعها، أو آمن بها بعد وقوعها، تطاوّعه نفسه أن يقف من صاحب هذه النبوة موقف المرشد المعلم! فأين يذهبون؟!

على أننا نعود فنسأل: هل كان في العلماء يومئذ من يصلح أن تكون له على

هل كان في محمد وقرائه تلك اليد العلمية؟

العلماء يومئذ من يصلح أن تكون له على محمد وقرائه تلك اليد العلمية؟

يقول الملحدون أنفسهم: «إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثل روح عصره أصدق تمثيل». وهذه الكلمة حق في حدود معناها الصحيح^(١) فنحن نأخذهم باعترافهم وندعوهم إلى استجلاء تلك الصورة التي حفظها القرآن في مرآته الناصعة مثالاً واضحاً لعلماء عصره. فليقرءوا الزهراوين: البقرة والآل عمران؛ وما فيهما من المحاجرة لعلماء اليهود والنصارى في العقائد والتواريخ والأحكام، أو ليقرءوا ما شاءوا من السور المدنية أو المكية التي فيها ذكر أهل الكتاب، ولينظرروا بأي لسان يتكلم عنهم القرآن، وكيف يصور لنا علومهم بأنها الجهالات، وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات، وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات.

فإن أنت أحబبت زيادة البيان فإليك نموذجاً من وصفه وتفنيده لأغلاطهم تصحّح القرآن ومحالطتهم التاريخية: ﴿يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تُحَاجُوْكُ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُزْلِتَ التَّوْرِثَةُ لِأَغْلَاطِ أَهْلِ وَإِلَّا نَحْنُ بَعْدُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥] وما بعدها، ﴿أَمْ نَفُولُونَ إِنَّ الْكِتَابَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١٤٠]، عصره، وبيان جهلهم ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي يَكْتَبُ﴾ [آل عمران: ٩٦]^(٢)، ﴿كُلُّ الْطَّعَامِ كَانَ حِلًا

(١) وهو أنه يمثلها ولا يتمثلها. وإن شئت فقل: إنه يمثلها أصدق تمثيل، ثم يمثل بها أنكى تمثيل.

لِئَنِّي إِسْرَئِيلٌ إِلَّا مَا حَرَمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ [آل عمران: ٩٣]^(١).

وهذا طرف من وصفه وتفنيده لخرافاتهم الدينية **﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾** [سورة ق: ٣٨]^(٢)، **﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾** [البقرة: ١٠٢]^(٣)، **﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾** [آل عمران: ١٨١]، **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَعْلُومَةٌ﴾** [المائدة: ٦٤]، **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُرَيْبُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ أَبْنُ اللَّهِ﴾** [النوبة: ٣٠]، **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى حَنْ حَنْ أَبْنَتُهُ اللَّهُ وَأَحَبَّهُ﴾** [المائدة: ١٨]، **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرِيمٍ﴾** [المائدة: ٧٢]، **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾** [المائدة: ٧٣]، **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا تَفْعَدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا شُرِيكَ لَهُ شَيْئًا وَلَا يَتَخَذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾** [آل عمران: ٦٤].

فانظر كيف صور القرآن عقيدة علماء الدين في زمنه، ولا سيما علماء النصارى، فقد كان طابع الشرك في ديانتهم لا يخفى على أحد، حتى إن الأميين حديث القرآن فطنوا له فاتخذوا منه عزاءً لهم في شركهم **﴿وَلَمَّا صُرِبَ ابْنُ مَرِيمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ الَّذِينَ مِنْهُ يَصِدُّونَكَ﴾** **﴿وَقَالُوا إِنَّا لَهُتَّنَا خَيْرًا أَمْ هُوَ﴾** [الزخرف: ٥٧، ٥٨]، بل اتخذوا منه حجة على أن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن بدع في الدين لم يُسبق إليه فقالوا: **﴿مَا سَمِعْنَا يَهُنَّدَا فِي الْمِلَّةِ الْأُخْرَةِ﴾** [سورة ص: ٧]، يعنون ملة النصرانية. وهذه سلسلة أخرى من جرائمهم يسردها القرآن متواصلة الحلقات: **﴿فِيمَا نَقْضُهُمْ مِّثْقَلُهُمْ وَكُفْرُهُمْ يُثَايِتُ اللَّهَ وَقُولُهُمُ الْأَنْيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقُولُهُمْ فُؤْبِنَا غُلْفًا﴾** إلى أن قال: **﴿وَيُكَفِّرُهُمْ وَقُولُهُمْ عَلَى مَرِيمَهُتَّنَا عَظِيمًا﴾** **﴿وَقُولُهُمْ إِنَّا فَنَّنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرِيمَ﴾** إلى أن قال: **﴿وَيُصَدِّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾** **﴿وَأَخْذِهِمُ الْرِّبُوْنَى وَقَدْ هُنُّوا عَنْهُ وَأَكْلُهُمْ أَمْوَالَ الْأَتَّى يَأْنَطِلُ﴾** [النساء: ١٥٥-١٦١].

فهل ترى في هذا كله صورة أساتذة يتلقى عنهم صاحب القرآن علومه؟

(١) وهي جواب عن قولهم: قبلتنا قبل قبلكم.

(٢) وهي رد لدعواهم أن الإبل كانت محمرة على إبراهيم.

(٣) وهي تكذيب لقولهم: إن الله بعد أن خلق الخلق في ستة أيام، استراح في اليوم السابع.

(٤) وهي تبرئة له من زعمهم أنه لم يكننبياً بل كان ساحراً يركب الريح.

أم بالعكس ترى منه معلمًا يصحح لهم أغلاطهم وينعي عليه سوء حالهم.

لا ننكر أنه كان في أهل الكتاب قليل من العلماء الراسخين، لكن الراسخون في العلم منهم آمنوا بالقرآن وبنبي القرآن ﷺ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بِيَنِيْكُمْ وَمَنْ عِنْدُهُ عِلْمُ الْكِتَبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، فلو كانوا له معلمين لآمنوا بأنفسهم بدل أن يؤمنوا به.

ولنعد مرة أخرى فنسأل: هل كان علم العلماء يومئذ مبذولاً لطالبيه مباحاً لسائليه؟ أم كان حرصهم على هذا العلم أشد من حرصهم على حياتهم، وكانوا يضنون به حتى على أبنائهم استبقاءً لرياستهم، أو طمعاً في منصب النبوة الذي كانوا يستشرفون له في ذلك العصر.

لنستنطق القرآن الذي رضيه الملحدون حكمًا بيننا وبينهم، فإنه يكشفنا مئونة الجواب عن هذا السؤال، وها هو ذا يقول لنا: إنهم كانوا في سبيل الضن بكتابهم كان أهل وعلومهم لا يتورعون عن منكر، فكانوا تارة ﴿يَكْثُرُونَ الْكِتَبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ الْكِتَبَ أَبْخَلَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْرُوْا بِهِ ثَمَّا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩]، وتارة ﴿يَلْوُنَ الْأَسْنَتَهُمْ النَّاسُ بِعِلْمِهِمْ فِي زَمْنِ النَّبِيِّ بِالْكِتَبِ لِتَحْسُبُوهُ مِنَ الْكِتَبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وتارة ﴿يُخَرِّفُونَ الْكَلَمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، وتارة يبترون الكتب فيظهرون بعضها ويخفون بعضها ﴿فَلَمْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَبَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ فَرَاطِيسَ مُبْدِوَنَاهَا وَتَخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأعراف: ٩١]، وتارة يجاجون بمحفوظهم فإذا قيل لهم: ﴿فَأَقُوا بِالْتَّوْرَةِ فَأَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، بهتوا؛ فلم يجيبوا، وربما جاءوا بها فقراءوا ما قبل الشاهد وما بعده وسترروا بكفهم مكان النص المجادل فيه، كما وقع في قصة الرجم.

انظر صحيح البخاري في تفسير الآية الآنفة^(١).

فجاء القرآن يرميهم علينا باللبس والكتمان ﴿يَأْهَلَ الْكِتَبِ لَمْ تَلِسُوتُ الْحَقَّ

(١) انظر: صحيح البخاري: (٦/٣٧).

وأورد في الباب: «عن عبد الله بن عمر : أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: «كيف تفعلون بمن زنى منكم؟» قالوا: نحملهما ونضر بهما، =

يَا أَيُّ الْبَطْلِ وَتَكْنُمُونَ الْعَقَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ [آل عمران: ٧١]، بل جاء كاشفاً لما ستروه مبيناً لما كتموه حاكماً فيما اختلفوا فيه ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفِونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يُفْصِلُ عَلَىٰ بَقِيَّ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]، ﴿تَأَلَّهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا أُمُّرٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَيَّنَاهُمُ الشَّيْطَنُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِهُمْ الْيَوْمُ وَهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ [٢٣] وما أَرْزَقْنَا عَيْنَكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي أَخْلَقُوا فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤] وما بعدها.

انظر إلى هذه الآيات من سورتي النحل والنمل المكيتين كيف جعلت من مقاصد القرآن الأساسية بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب، بل جعلته أول تلك المقاصد حيث بدأت به، وثبتت بالهدى والرحمة للمؤمنين.

ونعود للمرة الثالثة فنقول لمن يزعم أن محمدًا كان يعلم بشر: قل لنا ما اسم هذا المعلم! ومن ذا الذي رأه وسمعه؟ وماذا سمع منه؟ ومتى كان ذلك؟ وأين رد القرآن على كان؟ فإن كلمة «البشر» تصف لنا هذا العالم الذين يمشون على الأرض مطمئنين؛ شهادة وجود معلم للرسول وي Ibrahim الناس غادين ورائيين، فلا تسمع دعواها بدون تحديد وتعيين، بل يكون مثل مدعيها كمثل الذين يخلقون لله شركاء لا وجود لهم إلا في الخيال والوهم. فيقال له كما قيل لهم: ﴿قُلْ سَمُّوْهُمْ أَمْ تُتَسْعُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظَهِّرِهِ مِنَ الْقُوَّلِ﴾ [الرعد: ٣٣].

بل نقول: هل ولد هذا النبي في المريخ، أو نشأ في مكان قصي عن العالم، فلم يهبط على قومه إلا بعد أن بلغ أشد وارتفاعاته، ثم كانوا بعد ذلك لا يرون إلا لمامًا؟ ألم يولد في حجورهم؟ ألم يكن يمشي بين أظهرهم يصبحهم ويمسيهم؟ ألم يكونوا يرون بأعينهم في حلته ورحيله؟ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَنَا فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

نعم؛ إن قومه قد طوعت لهم أنفسهم أن يقولوا هذه الكلمة: ﴿إِنَّمَا يُعْلَمُهُ

= فقال: «لا تجدون في التوراة الرجم؟» فقالوا: لا نجد فيها شيئاً، فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم فأتوا للتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فوضع مدراسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم فطقق يقرأ ما دون يده، وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم، فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمر بهما فرجمما قربا من حيث موضع الجنائز عند المسجد، فرأيت صاحبها يعني عليها يقيها الحجارة»، (٤٥٥٦).

بَشَرٌ》 [النحل: ١٠٣]، ولكن هل تراهم كانوا في هذه الكلمة جادين، وكانوا يشيرون بها إلى بشر حقيقي عرفوا له تلك المنزلة العلمية؟ كلا؛ إنهم ما كان يعنيهم أن يكونوا جادين محقين، وإنما كان كل همهم أن يدرءوا عن أنفسهم معرة السكوت والإفحام، بأي صورة تتفق لهم من صور الكلام: بالصدق أو بالكذب، بالجد أو باللعل.

وما أدرك من هو ذلك البشر الذي قالوا: إنه يعلمه؟
أتحسب أنهم اجترءوا أن ينسبوا هذا التعليم لواحد منهم؟ كلا؛ فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلاً من أن يعلموا رجالاً جاءهم بما لم يعرفوا هم ولا آباؤهم.
أم تحسب أنهم لما وجدوا أرض مكة مقفرة من علماء الدين والتاريخ في عهد البعثة المحمدية عمدوا إلى رجل من أولئك العلماء في المدينة أو في الشام أو غيرهما فنسبوا ذلك التعليم إليه؟ كلا؛ إن أستنتهم لم تطاوئهم على النطق بهذه الكلمة أيضاً.

فمن ذا، إما لا ...؟

لقد وجدوا أنفسهم مضطرين أن يتسموا شخصاً يتحقق فيه شرطان:
أحدهما: أن يكون من سكان مكة نفسها لتروج عنهم دعوى أنه يلاقيه ويملي عليه بكرة وأصيلاً.

وثانيهما: أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ليتمكن أن يقال: إن عنده علم ما لم يعلموا. وقد التمسوا هذه الأوصاف فوجدوها، أتدرى أين وجدوها؟ .. في حداد روبي !!

نعم، وجدوا في مكة غلاماً تعرفه الحوانيت والأسواق، ولا تعرفه تلك العلوم في قليل ولا كثير، غير أنه لم يكن أمياً ولا وثنياً مثلهم، بل كان نصراانياً يقرأ ويكتب، فكان من أجل ذلك خليقاً في زعمهم أن يكون أستاذًا لمحمد، وبالتالي أستاذًا لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمعين، ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغاً للدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دخيلها، ورد متشبهها إلى محكمها، وهل كان مزوداً في عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهم .. لعرفت أنه كان حداداً منهمكاً في مطرفقته وسندانه، وأنه كان عامي الفؤاد لا يعلم الكتاب إلا

أمانى، أعمجمى اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ولا أحد من قومه، لكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقب الأستاذية الذى منحوه إياه على رغم أنف الحاسدين!

هكذا ضاقت بهم دائرة الجد بما وسعهم إلا فضاء الهزل، وهكذا أمعنوا في هزلهم حتى خرجو عن وقار العقل، فكان مثلهم كمثل من يقول: إن العلم يستقى من الجهل، وإن الإنسان يتعلم كلامه من الببغاء! وكفى بهدا هزيمة وفضيحة لقائله ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَكَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَفَتْ مُئِنْ﴾ [النحل: ١٠٣] وما بعدها.

نعم، إنهم رأوا في هذا الأسلوب من حلاوة الفكاهة والملحة ما يسigh مرارة الزور والباطل، ورأوا في هذه الصورة الخيالية من التهكم والسخرية ما يشفى صدورهم ويجعلهم يتضاحكون بملء أفواههم، ولكنهم ما دروا أن في طي هذه السخرية سخرية بهم، وأنهم قد شهدوا فيها على أنفسهم أحفل الأمم، وأن كل غريب عنهم - ولو كان غلاماً سوقياً - أهل لأن يقال عنه: إن عنده من العلم ما ليس عندهم. فيما له من نطق كان العي في موضعه خيراً لهم وأستر عليهم، ويا له من سلاح أرادوا أن يجرحوا به خصمهم، فجرحوا به أنفسهم من حيث لا يشعرون.

أما الحق الذي كانوا يخاصمونه فقد والله زادوه بهذا الاتهام قوة إلى قوته. ذلك أنهم حين خرجو يلتمسون واحداً من البشر يمكن أن ينسب إليه هذا العلم المحمدي لم يستطعوا أن يفترضوا له مصدرًا تعليمياً خارج حدود قريته، بل كان آخر جهد بذلوه من حيلتهم وآخر سهم رموه من كنانتهم أن جاءوا من بين ظهرانيهم بهذا الغلام الذي عرفت خبره. فيما ليت شعري لو كان هذا الغلام أن يكون مرجعاً علمياً كما أرادوا أن يصفوه، فما الذي منعهم أن يأخذوا عنه كما أخذ صاحبهم؟ وبذلك كانوا يستريحون من عنائه ويداونه من جنس دائئ، بل ما منع ذلك الغلام أن يبدي للعالم صفحته فينال في التاريخ شرف الأستاذية. أو يتولى بنفسه تلك القيادة العالمية؟ ويا ليت شعري لماذا لم ينسبوا تلك العلوم الغريبة عنهم إلى أهلها الموسومين بها من الربانين والأحبار في المدينة أو من القسيسين والرهبان في الشام، أولئك الذين قضوا أعمارهم في دراستها وتعليمها؟

أليس ذلك -لو كان ممكناً أو شبيهاً بالممكـن- كان هو أحسن تلـيفـاً وأجود سبـقاً وأدنـى إلى الرواج وأبعد عن الإـحـالـة من نسبتها إلى حداد مـكـة؟ أم ضاقت بهـم الأرض فـلم يـجدـوا أحـدـاً أـمـثـلـاً مـنـهـ ولا أـعـلـمـ بالـدـيـنـ والـتـارـيـخـ؟ تـالـلـهـ لـوـلاـ آـنـهـمـ وـجـدواـ بـابـ التـعلـيمـ الـخـارـجيـ أـمـنـ سـداًـ مـنـ سـائـرـ الـأـبـوابـ وـأـدـخـلـ مـنـهـاـ فـيـ معـنـىـ الـمـكـابـرـةـ الـتـيـ لـاـ تـرـوـجـ لـمـاـ ضـيـقـواـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ دـائـرـةـ الـاتـهـامـ حـتـىـ تـورـطـواـ فـيـ هـذـاـ الـمـحـالـ الـمـكـشـوفـ وـافـضـحـواـ بـهـذـهـ الـمـقـالـةـ الشـوهـاءـ.

هـؤـلـاءـ قـومـ مـحـمـدـ ﷺـ وـهـمـ كـانـواـ أـحـرـصـ النـاسـ عـلـىـ خـصـوـمـتـهـ، وـأـدـرـىـ النـاسـ بـأـسـفـارـهـ وـرـحـلـاتـهـ، وـأـحـصـاـهـ لـحـرـكـاتـهـ وـسـكـنـاتـهـ، قـدـ عـجـزـواـ كـمـاـ تـرـىـ أـنـ يـعـقـدـواـ صـلـةـ عـلـمـيـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ أـهـلـ الـعـلـمـ فـيـ عـصـرـهـ، فـمـاـ لـمـلـحـدـيـنـ الـيـوـمـ وـقـدـ مـضـىـ نـيـفـ وـثـلـاثـةـ عـشـرـ قـرـنـاـ اـنـفـضـتـ فـيـهـاـ سـوقـ الـحـوـادـثـ، وـجـفـتـ الـأـقـلـامـ، وـطـوـيـتـ الـصـحـفـ، لـاـ يـزـالـونـ يـبـحـثـوـنـ عـنـ تـلـكـ الـصـلـةـ فـيـ قـمـامـاتـ التـارـيـخـ، وـفـيـ النـاحـيـةـ الـتـيـ أـنـفـ قـوـمـهـ أـنـ يـبـشـرـهـ؟

أـلـاـ فـلـيـرـيـحـواـ أـنـفـسـهـمـ مـنـ عـنـاءـ الـبـحـثـ، فـقـدـ كـفـتـهـمـ قـرـيشـ مـئـونـتـهـ، وـلـيـشـتـغـلـواـ بـغـيرـ هـذـهـ النـاحـيـةـ الـتـيـ قـضـىـ التـارـيـخـ وـالـمـنـطـقـ عـلـىـ كـلـ مـحاـوـلـةـ فـيـهـاـ بـالـفـشـلـ. فـإـنـ أـبـواـ فـلـيـعـلـمـواـ أـنـ كـلـ شـبـهـةـ تـقـامـ فـيـ وـجـهـ الـحـقـ الـواـضـحـ سـيـحـيلـهـاـ الـحـجـةـ لـنـفـسـهـ يـضـمـهـاـ إـلـىـ حـجـجـهـ وـبـيـنـاتـهـ.

نـعـودـ رـابـعاًـ وـأـخـيـرـاًـ فـنـقـولـ: لـوـ كـانـتـ «ـنـسـبـةـ هـذـهـ الـعـلـومـ الـقـرـآنـيـةـ إـلـىـ تـعـلـيمـ الـبـشـرـ»ـ مـنـ الدـعـاوـيـ الـتـيـ تـعـبـرـ عـنـ فـكـرـةـ أـوـ شـبـهـةـ قـائـمـةـ بـنـفـسـ صـاحـبـهاـ لـوـقـفـ عـنـدـهـاـ الطـاعـونـ وـلـمـ يـجـاـزوـهـاـ؛ ذـلـكـ لـأـنـ الـعـقـلـ إـذـاـ خـلـيـ وـنـفـسـهـ فـيـ تـعـلـيلـ تـلـكـ الـمـفـارـقـةـ الـكـلـيـةـ بـيـنـ مـاضـيـ الـحـيـاةـ الـمـحـمـدـيـةـ وـحـاضـرـهـاـ أـعـنـيـ ماـ قـبـلـ النـبـوـةـ وـمـاـ بـعـدـهـاــ لـمـ يـسـعـهـ إـلـاـ الـحـكـمـ بـأـنـ هـذـاـ الـعـلـمـ الـجـدـيدـ وـلـيـدـ تـعـلـيمـ جـدـيدـ. وـإـذـ لـاـ عـهـدـ لـلـنـاسـ بـمـعـلـمـيـنـ فـيـ الـأـرـضـ مـنـ غـيرـ الـبـشـرـ كـانـ أـوـلـ مـاـ يـخـطـرـ بـالـبـالـ أـنـ هـنـالـكـ إـنـسـانـاـ تـولـيـ هـذـاـ تـعـلـيمـ، فـلـوـ وـجـدـ الطـاعـونـ أـدـنـىـ تـكـأـةـ مـنـ عـوـاـمـلـ وـاقـعـيـةـ أـوـ مـمـكـنـةـ تـجـعـلـ لـهـ شـيـئـاـ مـنـ الـاـقـتـنـاعـ بـهـذـاـ تـعـلـيلـ فـيـمـاـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ نـفـسـهـ لـمـ رـضـيـ بـهـ بـدـيـلـاـ وـلـمـ عـدـلـ عـنـهـ إـلـىـ تـعـلـيلـ آـخـرـ أـيـاـ كـانـ، لـكـنـ هـؤـلـاءـ الطـاعـونـينـ مـاـ فـتـئـواـ مـنـذـ نـزـلـ الـقـرـآنـ إـلـىـ يـوـمـنـاـ هـذـاـ حـائـرـيـنـ فـيـ نـسـبـ هـذـاـ الـقـرـآنـ، لـاـ يـدـرـونـ أـيـنـسـبـونـهـ إـلـىـ تـعـلـيمـ الـبـشـرـ كـماـ

سمعنا أنفًا، أم يرجعون به إلى نفس صاحبه كما سمعنا من قبل، أم يجمعون له بين النسبتين فيقولون لصاحبه: إنه «معلم» «مجنون» كما جاء في سورة [الدخان: ١٤].

ومن تبع أنواع المجادلات التي حكها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن

نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دوراً على ألسنتهم، وأن أنواع المجادلات أكثرها وروداً في جدلهم هي نسبته إلى نفس^(١) صاحبه، على اضطرابهم في التي حكها القرآن عن الطاعنين فيه أم أضغاث أحلام.

فانظر: كم قلبوا من وجوه الرأي في هذه المسألة؛ حتى إنهم لم يقفوا عند الحدود التي يمكن افتراضها في كلام رصين كالقرآن، وفي عقل رصين كعقل صاحبه، بل ذهبوا إلى أبعد الأحوال النفسية التي يمكن أن يصدر عنها كلام العقلاة والمجانين .. إن ذلك لمن أوضح الأدلة على أنهم لم يكونوا يشرون

(١) وهذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم «الوحى النفسي» زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءوا برأي علمي جديد، وما هو بجديد، وإنما هو الرأي الجاهلي القديم، لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله. فقد صوروا النبي ﷺ رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق، فهو إذاً شاعر. ثم زادوا فجعلوا وجданه يطغى كثيراً على حواسه حتى يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصاً يكلمه، وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أخيته ووجданاته، فهو إذاً الجنون أو أضغاث الأحلام. على أنهم لم يطبقوا الشبات طويلاً على هذه التعليقات، فقد اضطروا أن يهجروها كلمة «الوحى النفسي» حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلة، فقالوا: لعله تلقفها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة، فهو إذاً قد علمه بشر. فأي جديد ترى في هذا كله؟ أليس كله حديثاً معاذًا يضاهون به قول جهال قريش؟ وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة منسخة بل منسوخة منه في أقدم أثوابه، وكان غذاء هذه الأفكار المتৎصرة في العصر الحديث مستمدًا من فنات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى ﴿كَذَلِكَ قَالَ الْبَرُّكَ مِنْ قَتْلِهِمْ مِثْلُ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهُتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البرة: ١١٨].

وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله أنه كان صادقاً أميناً. وأنه كان معنوياً في نسبة رؤاه إلى الوحي الإلهي؛ لأن أحالمه القوية صورتها له وحياً إليها، فما شهد إلا بما علم، وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول: ﴿فَإِنَّمَا لَا يَكْبُرُونَكَ وَلَكُنَ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يَكْبُرُونَ اللَّهَ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٣] فإن كان هذا عذرها في تصوير رؤاه وسماعه فيما عذرها في دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأنباء لا هو ولا قومه من قبل هذا، بينما هو قد سمعها بزعمهم من قبل؟ فليقولوا إذاً: إنه افتراء ليتم لهم بذلكمحاكاة كل الأقويل. ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدعون الإنفاق والتعقل. ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون.

بهذا الوجه أو ذاك إلى تهمة محققة لها مثار في الخارج أو في اعتقادهم، وإنما أرادوا أن يدلوا بكل الفروض والتقادير مغضبين على ما فيها من محال وناب ونافر، ليثيروا بها غباراً من الأوهام في عيون المتطلعين إلى ضوء الحقيقة، وليلقوا بها أشواكاً من الشك في طريق السائرين إلى روض اليقين.

ولقد نعلم أنهم كانوا في قراره أنفسهم غير مطمئنين إلى رأي صالح يرضونه من بين تلك الآراء، وأنهم كانوا كلما وضعوا يدهم على رأي منها وأرادوا أن ينسجوا منه للقرآن ثوباً وجدوه نابياً عنه في ذوقهم، غير صالح لأن يكون لبوساً له، فيفزعون من فورهم إلى تجربة رأي ثان، فإذاً هو ليس بأمثل قياساً مما رضوه، فيعمدون إلى تجربة ثالثة .. وهكذا دواليك ما يستقرون على حال من القلق. فإن شئت أن تطلع على هذه الصورة المضحكة من البلبلة الجدلية فاقرأ وصفها في القرآن: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْعَفْتُ أَحَلَّمِ بَلْ أَفْتَرَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]، فهذه الجملة القصيرة تمثل لك بما فيها من توالي حروف الإضمار مقدار ما أصابهم من الحيرة والاضطراب في رأيهم، وتريك من خلالها صورة شاهد الزور إذا شعر بحرج موقفه: كيف يتقلب ذات اليمين وذات الشمال. وكيف تتفرق به السبل في تصحيح ما يحاوله من محال ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضْلًا يَسْتَطِعُونَ سَيِّلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، [الفرقان: ٩].



والآن: وقد جاوزنا بك هاتين المرحلتين من البحث، وأريناك أنه لا يوجد للقرآن مصدر إنساني، لا في نفس صاحبه ولا عند أحد من البشر، وأن كل من حاول أن يجعل هذا القرآن « عملاً إنسانياً » أعياه أمره، وأقام الحجة على فشله باضطرابه ولجاجته، وإحالته ومكابرته - فقد وجب علينا أن ننتقل إلى المرحلة الثالثة لنبحث عن ذلك المصدر في أفق خارج من هذا الأفق الإنساني جملة؛ وألا نقف بالقرآن حيث وقف به الملحدون قديماً وحديثاً مذبذبين فيه بين هذين الطرفين يأخذون بأحدهما تارة، وبالثانية تارة، وبهما مجتمعين تارة أخرى، متنقلين هكذا من فاسد إلى فاسد، إلى مركب منهما أشد فساداً من كليهما. كلاماً،

ظاهرة الوحي،
ودلالتها على
المصدمة

فإن العقل يقضي علينا أن نبطل ما أبطله البرهان غير مكابرین، وأن نتابعه في سیره حتى نصل إلى الحق المبين.

أما هؤلاء الملحدون فإنهم ما قعد بهم عن متابعة البحث -زعموا- إلا رعايتهم لحرمة السنن الكونية، ومحافظتهم على الأسباب العادلة التي يصدر عنها كلام الناس في معقولهم ومنقولهم؛ فقد أبى عليهم وفاؤهم لهذه العلوم الطبيعية أن يقتسموا حدودها ويخرجوا إلى التماس شيء لا تناهه أعينهم، ولم يجرجو مثاله في أنفسهم، وأنت قد عرفت أن هذا الذي ظنوه وفاءً بطبيعة الأشياء قد انقلب بهم إلى ضده؛ إذ خرقوا في سبيله السياج الطبيعي للعقل الإنساني وللواقع التاريخي، فجمعوا المتناقضات وغيروا معالم التاريخ، وأرهقو طبائع الأشياء فحملوها ما لا تطيق. فأي عاقل يرضى أن يقف موقفاً كهذا ينصر فيه عادته بإهداه عقله !!

بل الحق أن هناك مانعاً آخر يعوقهم عن متابعة السير معنا، ولكنهم يكتمنه عنا: كبر في صدورهم أن يعطوا مقادتهم للإنسان جاءهم من فوق رءوسهم يزعم أنه رسول الله إليهم، فيأمرهم وينهاهم ويستوجب الطاعة عليهم، ثم هو على ذلك يواجههم بالحقائق المرة، فيتحول بينهم وبين ماضهم به مستمسكون، وهوئ هم له عابدون ﴿بَلْ جَاءُهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَاهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

فلنذرهم قaudin حيث رضوا لأنفسهم القعود. ولنتابع البحث عن هذا الحق
راغبين إلى الله في الهدى إليه، وإنما إن شاء لله لمهتدون.

لا تحسين أنتا في هذه المرحلة الثالثة سنضرب في بيداء تيهاء، أو أنتا سيتراهمي
بنا السير إلى شقة بعيدة وسفر غير قاصد. كلا، فلن نخرج ببحثنا من دائرة
محدودة نراها مظنة للسر الذي نطلب، وذلك بدراسة الأحوال المباشرة التي كان
يظهر فيها القرآن على لسان محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.

راحلته، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتاً مختلطة تشبه دوي النحل .. ثم لا يلبث أن تُسرى عنده تلك الشدة فإذا هو يتلو قرآنًا جديداً^(١).

فمن شاء أن يبحث عن مصدر هذا القرآن، فها هنا أقرب مظانه، وفيها ليحضر الباحثون بحوثهم، ولينشد طلاب الحق ضالتهم، وأين تلتمس الأسباب الصحيحة لأثر ما إن لم تلتمس حيث يظهر ذلك الأثر، وحيث يدور وجوده وعدمه؟

فلننظر الآن في هذه الظاهرة: هل كانت شيئاً متتكلفاً مصنوعاً وطريقة تحضيرية يستجمع بها الفكر والرواية؟ أم كانت أمراً لا دخل فيه للاختيار؟ وإذا كانت أمراً غير اختياري فهل كان لها في داخل النفس منشأ من الأسباب الطبيعية العادية، كباعثة النوم، أو من الأسباب الطبيعية الشاذة، كاختلال القوى العصبية؟ أم كانت انفعالاً بسبب خارجي منفصل عن قوى النفس؟

وإن نظرة واحدة لنقيها على عناصر هذه الظاهرة لتهدينا إلى أنها لا يمكن أن تكون صناعة وتتكلفاً، وبخاصة لو تأملت تلك الأصوات المختلطة التي كانت تسمع عند الوجه النبوى الشريف. وأيضاً لو كانت صناعة وتتكلفاً لكان طوع يمينه فكان لا يشاء يوماً أن يأتي بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذى اعتاده في تحضيره.

وقد علمت أنه كثيراً ما التمسه في أشد أوقات الحاجة إليه، وكان لا يظفر به إلا حين يشاء الله.

فهي إِذَا حال غير اختيارية.

(١) هذه الأوصاف هي الأوصاف التي كانت تظهر على النبي ﷺ حين ينزل الوحي عليه، وقد وردت في أحاديث صحيحة، ومنها:

١- في حديث الإفك عن عائشة: «حتى أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البراء عند الوحي، حتى إنه ليتحدى منه مثل الجمان من العرق، في اليوم الشات، من ثقل القول الذي أنزل عليه»، رواه البخاري: (٤٧٥٠)، ومسلم: (٢٧٧٠).

٢- وفي حديث زيد: «أنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذنه على فخذني، فشققت علي حتى خفت أن ترض فخذني، ثم سري عنه»، رواه البخاري: (٤٥٩٢).

٣- وفي حديث عمر بن الخطاب، يقول: «كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه كدوى النحل»، رواه أحمد: (٢٢٣)، والترمذى: (٣١٧٣). (عمرو

ثم إننا نرجع البصر كرة أخرى فنرى البعد شاسعاً بينها وبين عارض السبات الفرق بين الطبيعي الذي يعتري المرء في وقت حاجته إلى النوم؛ فإنها كانت تعروه قائماً أو قاعداً، وسائراً أو راكباً، وبكرة أو عشيّاً، وفي أثناء حديثه مع أصحابه أو أعدائه، وكانت تعروه فجأة وتزول عنه فجأة، وتنتقض في لحظات يسيرة، لا بالتدريج الذي يعرض للوستان، وكانت تصاحبها تلك الأصوات الغربية التي لا تسمع منه ولا غيره عند النوم. وبالإجمال كانت حالاً تبادر حال النائم في أوضاعها وأوقاتها وأشكالها وجملة مظاهرها.

فهي إذا عارض غير عادي.

ثم نرى المباهنة التامة والمناقضة الكلية بينها وبين تلك الأعراض المرضية الفرق بين والنوبات العصبية التي تصفر فيها الوجه، وتبرد الأطراف، وتصطك الأسنان، **الوحش** والنوبات وتتكشف العورات، ويحتجب نور العقل، ويخيّم ظلام الجهل؛ لأنها كانت كما المرضية علمت مبعث نمو في قوة البدن، وإشراق في اللون، وارتفاع في درجة الحرارة، أو العصبية وكانت إلى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة، بل كان يجيء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته، وتتضاءل الأنوار عند طلعته.

ها نحن أولاء قد كدنا نصل .. فلتتفق بنا وقفه يسيرة لنرى مبعث هذا الضوء الذي كان يبدو حيناً ويختفي أحياناً من حيث لا يد لصاحبها في ظهوره ولا في اختفائه: هل عسى أن يكون منبعاً من طبيعة هذه النفس المحمدية؟ .. إذا والله لكان خليقاً أن ينبع منها أبداً ولكن أحق بأن ينبع منها في حال اليقظة العادلة والروية الفكرية أكثر مما ينبع منها في تلك اللحظات اليسيرة حينما تغشيها هذه السحابة الرقيقة التي قد تشبه السنة أو الإغماء. فلا بد إذاً أن يكون وراء هذه السحابة مصدر نوراني يمد هذه النفس المحمدية بين آن وآن، فيسمو بها عن أفق شعورها المحدود، ويزودها بما شاء الله من العلوم، ثم يرسلها إلينا محملة بهذه الشحنة العلمية إلى أن يلاقيها مرة أخرى. وكما آمن الناس بأن نور القمر ليس مستفاداً من ذاته، وإنما هو مستفاد من ضياء الشمس؛ لأنهم رأوا اختلاف نوره تابعاً أبداً لاختلاف مواقعه منها قرباً وبعداً، فكذلك فليؤمنوا بأن نور هذا القمر

النبي إنما كان شعاعاً منعكساً من ضوء تلك الشمس التي يرون آثارها وإن كانوا لا يرونها. نعم إنهم لم يروها بأعينهم طالعة في رابعة النهار. ولم يسمعوا صوتها بآذانهم جرساً مفهوماً وكلاماً يفقهه الناس؛ ولكنهم كانوا يرون قبساً منها في الجبين، وكانوا يسمعون حسيسها حول الوجه الكريم. وإن في ذلك لهدى للمهتدين. هي إذا قوة خارجية؛ لأنها لا تتصل بهذه النفس المحمدية إلا حيناً بعد حين. وهي لا محالة قوة عالمية؛ لأنها توحى إليه علمًا.

وهي قوة أعلى من قوته؛ لأنها تحدث في نفسه وفي بدنه تلك الآثار العظيمة
﴿عَلَمَهُ شَيْدُ الْقُوَى﴾ (٥) ذُو مَرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: ٥، ٦].

وهي قوة خيرة معصومة، لأنها لا توحى إلا الحق ولا تأمر إلا بالرشد. فلا جرم أنها لا تكون قوة طائشة شريرة كقوة الجن والشياطين؛ إذ ما للجن وعلم الغيب ولقد **تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَيَثُوْا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** [سبأ: ١٤]. وما للشيطان وخبر السماء وهي محفوظة من كل شيطان رجيم **وَمَا نَزَّلْتَ بِهِ الشَّيَاطِينُ** [الشعراء: ٢١٠] **وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمَعِ لَمَعْرُوفُونَ** [الشعراء: ٢١٠] وما بعدها. بل نقول: أليست الأرواح جنوداً مجندة، ما تعارف منها اختلف، وما تناكر منها اختلف؟ أو ليس المرء يعرف بقرينه، وشبه الشيء ينجذب إليه؟ فكيف تتألف تلك الأرواح الخبيثة وذلك القلب النقي الظهور؟ أم كيف تتألف تلك القوى الطائشة وهذا العقل الكامل الرصين؟ **هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ** [آل عمران: ٣٩] **تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكِ أَئِمَّرٍ يُلْقِيُونَ السَّمَعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَنْبُونَ** [الشعراء: ٢٢١] وما بعدها.

فماذا عسى أن تكون هذه القوة إن لم تكن قوة ملك كريم؟

ذلك هو مبلغ العلم في وصف هذه القوة الغيبية حسبما يهدي إليه البحث العقلاني المستقيم. وليس بالمؤمن المقتضى حاجة إلى أكثر من هذا القدر في إرضاء شهوته العلمية، ولا في ثبيت عقیدته الدينية. فمن شاء المزيد من وصفها وحليتها فليس سببها الرجوع إلى دلالات العقول، وإنما سببها الرجوع إلى النقل الصحيح عن مهبط سرها ومظهر نورها عليه السلام فهو وحده الذي يستطيع أن يتحدث عن صاحب هذا السر حديث شاهد العيان الذي رأى شخصه وسمع صوته، بل حديث التلميذ الذي جلس إلى أستاذه غير مرة.

فاما الذي يؤمن بالغيب فسيؤمن بهذا الحديث عنه وإن لم يره؛ لأنه رأى أثره، ولأنه يؤمن بمن أخبره. وأما الجاهلون الذين أوتوا قليلاً من علم ظاهر الحياة فظنوا أنهم أحاطوا بكل شيء علماً فإنهم سيكتذبون بكل ما لم يحيطوا بعلمه، وسيقولون لك: لعله اضطراب في أعصاب البصر خيل إليه أنه يرى شيئاً من لا شيء! وأنت فاستعد بالله من عمي القلوب والعيون، وقل: كلا **﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا كَطَنَ﴾** [الجم: ١٧]. أو يقولون: لعله اضطراب في قوى الفكر صور له المعاني أشباحاً ماثلة، والأحلام حقائق مجسمة، فابرأ إلى الله من هذا الجنون، وقل: كلا **﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾** [الجم: ١١].

نعم؛ لقد عجبوا أن يكون إنسان يرى الملائكة عياناً ويكلّمهم جهاراً. بل عجبوا أن يكون في الدنيا خلق لا يرونها بأعينهم، وصوت لا يسمعونه بآذانهم. فقالوا: كيف يرى محمد ﷺ ما لا نرى، ويسمع ما لا نسمع!

ولعمري؛ لنحن أحق أن نعجب من هذا العجب؛ فإننا نفهم أنه لو ساغ مثله في عصور الجاهلية الأولى ما كان ليسوغ اليوم وقد ملئت الأرض بالأيات العلمية التي تفسر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية.

وإن من أقرب هذه الآيات إلى متناول الجمهور آية الهاتف «التليفون». فقد أدلة معاصرة على إمكان أصبح الرجالن يكون أحدهما في أقصى المشرق والآخر في أقصى المغرب، ثم الوحي يتخاطبان ويتراءيان، من حيث لا يرى الجالسون في مجلس التخاطب شيئاً، ولا يسمعون إلا أزيزاً كدوبي النحل الذي في صفة الوحي.

فإن كانوا يريدون آية علمية أوضح من هذا تمثل لهم الوحي تمثيلاً، وترיהם من طريق التجارب -التي لا يؤمنون إلا بها- أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها قد يحدث فيها ظاهرةً من جنس هذه الظاهرة، وينتشل فيها معلومات لم تكن مخزونة في العقل ولا في الحس قبل ذلك، فها قد أراهم الله تلك الآية العجيبة في «أعجوبة التنويم المغناطيسي» فقد أصبح الرجل القوي الإرادة يستطيع أن يتسلط بقوة إرادته على من هو أضعف منه حتى يجعله ينام بأمره نوماً عميقاً لا يشعر فيه بوخذ الإبر، وهناك يكون رهين إشارته، وتنمحي إرادته في إرادته:

فلو شاء أن يمحو من نفسه رأياً أو عقيدة لمحاتها بكلمة واحدة، بل لو شاء أن يمحو من صدره اسم نفسه^(١) ويلقنه اسمًا آخر يقنعه بأنه هو اسمه لما وجد منه إلا إيماناً وتسلیماً، ولا أصبح اسمه الحقيقي نسياً منسياً، ولبقي هذا الاسم المصنوع منقوشاً على قلبه ولسانه بعد أن يستيقظ إلى ما شاء الله. فإذا كان فعل هذا الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة؟

فذلك مثل^(٢) حامل الوحي ومتلقيه ﷺ هذا بشر مطواع ذو روح صاف يقبل انطباع العلوم فيه، وذاك ملك شديد القوي ذو مرة يحمل إليه رسالته ويقرئها إياه، فلا ينسى إلا ما شاء الله.

يُبَدِّلُ أَنْ بُعْدًا شاسعًا بَيْنَ هَذَا الْوَحْيِ النَّبَوِيِّ، وَوَحْيِ النَّاسِ بَعْضَهُ لِبَعْضٍ، فَالنَّاسُ كَمَا عَرَفْتَ قَدْ يَوْحُونَ زَخْرَفَ الْقَوْلِ غَرَوْرًا، وَكَثِيرًا مَا يَتَرَكُ وَحِيهِمْ فِي نَفْسِ مَتَلَقِّيهِ أَعْرَاضًا عَقْلِيَّةً أَوْ بَدْنِيَّةً يَصْعَبُ عَلَاجُهَا. فَأَيْنَ هَذَا مِنَ الْوَحْيِ بَيْنَ رَسُولَيْنِ مُؤْبِدِيْنِ اصْطَفَاهُمَا اللَّهُ لِرَسُولِهِ: رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَرَسُولُ مِنَ النَّاسِ؟ فَأَمَّا الرَّسُولُ الْمَلْكِيُّ فَإِنَّهُ كَمَا عَلِمْتَ لَا يَوْحِي إِلَّا الْحَقَّ، وَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، وَأَمَّا الرَّسُولُ الْبَشَرِيُّ فَإِنَّهُ لَا يَرْزَالُ مِنْ بَعْدِ كَمَا كَانَ مِنْ قَبْلِهِ، ثَابَتَ الْفَوَادِ كَامِلَ الْعُقْلِ قَوِيًّا النَّفْسُ وَالْبَدْنُ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].



خلاصة البحث
وبعد فإننا في هذا المنهج الذي سلکناه من أول البحث إلى هذا الحد لم نرد في **الحجج** أن نعرض للقرآن في جوهره، بل كان قصارى ما صنعته أننا درسنا الطريق التي

على مصدرية

القرآن

(١) حوادث التنويم المغناطيسي وأثارها البدنية والنفسية أكثر من أن تحصى، ولكننا أشرنا بهذا المثال إلى واقعة كان شاهد العيان فيها فاضل من علماء الأزهر «الأستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني» وهو الذي فطن منها إلى هذه العبرة الدينية ونشرها بمجلة الهدایة الإسلامية في شهر ربيع الأول من هذا العام (١٣٥٢هـ).

(٢) تأمل هذا التقرير تجد فيه آية أخرى على بطلان دعوى «الوحي النفسي» التي يروجها الملحدون؛ إذ إنه من الأركان الأساسية التي أجمع عليها علماء التنويم أنه إنما يكون بين نفسين مختلفتي الطياب؛ إحداهما أقوى إرادة من الأخرى، فلا يستطيع أمرؤ أن يقوم بهذه التجربة في نفسه إلا إذا فرضنا اجتماع التقىضيين أو أن يكون الواحد اثنين.

جاء منها؛ فما وجدنا في اعترافات صاحبه، ولا في حياته الخلقية، ولا في وسائله وصلاته العلمية، ولا فيسائر الظروف العامة أو الخاصة التي ظهر فيها القرآن إلا شواهد ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على ظهر الأرض أب نسبه إليه من دون الله .

وتلك كلها دراسات خارجية إنما يسلكها رجل وقف معنا على طرف صالح من هذه الحياة النبوية وملابساتها ، وكان مع ذلك سليم الفطرة يتعرف الأشياء بمثالها ويهتدى إليها بأقرب أماراتها . فمثل هذا سيرضى منا بهذا القدر ويهتدى به .

وأما الذين لا يعلمون عن تلك الحياة النبوية إلا قليلاً - وكثير ما هم - والذين يريدون أن يأخذوا حجة القرآن لنفسه من نفسه، فهولاء لا غنى لهم أن نتقدم بهم خطوة أخرى نبين لهم فيها أن هذا الكتاب الكريم يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر ، وبينادي بلسان حاله أنه رسالة القضاء والقدر، حتى إنه لو وجد ملقي في صحراء لأيقن الناظر فيه أن ليس من هذه الأرض منبعه ومنبته ، وإنما كان من أفق السماء مطلعه ومهبطه .

ذلك أن قدرة الناس وإن تفاوتت فإلى حدود محدودة لا تتعداها ، وقدرة الخالق على الممكنات لا حد لها ، فكل كائن يجاوز حدود القدرة العالمية واقع في حدود القدرة الإلهية البتة . ولا ثالث .

مثال ذلك : أن الرجل قد يصرع الرجل وقد يصرع الرجلين وقد يصرع الآحاد والعشرات ، ولكن هل من الناس من يقف في وجه العالم كله فيفهرا الأمم أفراداً وجماعات؟

والله يأتي بالشمس من المشرق فمن ذا الذي يأتي بها من المغرب؟
 وأنت تستطيع أن تطفئ المصباح وأن توقده حينشاء ، ولكن هل يستطيع الناس جمِيعاً أن يطّلعوا الشّمس قبل وقتها ، أو يؤخرونها عن ساعتها ، أو يطفئوا نورها ، أو يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟

إنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذياباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذه منه . فأنـى لهم أن يشاهـدوا تلك الكائنات العلوية التي لا تناـلها أيديـهم ولا قـدـائـفهم ، والـتي لا يـملـكون من أمرـها سـوىـ النـظرـ إـلـيـهاـ والإـعـجابـ بـهاـ .
 والاستفادة منها والخضوع لها .

فذلك العجز العام عن مضاهاة الخلق وعن محاكاة الصنعة هو آية ليست من صنع الناس، وذلك هو الطابع الإلهي والمظاهر السماوي الذي تمتاز به صنعة الخالق عن صنعة المخلوق، وهذا هو المثل الذي نريد أن نطبقه على القرآن الكريم.

غير أن من الناس فريقاً غريقاً في حمأة العتاد؛ يقولون: ﴿مَهْمَا تَأْنِي بِهِ مِنْ أَيَّةٍ لَسْحَرَنَا إِلَيْهَا فَمَا كَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلِكَةَ وَكَلَّمُهُمُ الْمُوْقَ وَحَشَرَنَا عَلَيْهِمُ كُلَّ شَيْءٍ قُبْلًا مَا كَانُوا يُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وأخرين لا يجدون طمأنينتهم إلا في اضطراب الشك، يقولون: ﴿إِنَّ نَفْنُ إِلَّا ظَنَّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، ﴿وَلَوْ فَثَحَنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [١٤] لقالوا إِنَّا سُكِّرْتُ أَبْصَرْنَا بِلَ مَنْ تَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥] وما بعدها، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرَاطِسِ فَلَمَسْوُهُ يَأْدِيْهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، فهؤلاء وأولئك لا سبيل لنا عليهم، ولا ينفعهم نصحنا إن كان الله يريد أن يغويهم، إذ ليس من شأننا أن نسمع الصم أو نهدي العمى ولا الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم فإذا هم لا يسمعون، أو يضعون أكفهم على أعينهم فإذا الشمس الطالعة ليست بطالعة ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتَّنَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]. وإنما سبيلنا أن ننصب الحجة لجاهلها من طلاب الحق، ونوضح الطريق لسابلها من رواد اليقين.

ها نحن أولاء ندعوك كل من يطلب الحق بإنصاف، أن ينظر معنا في القرآن من أي النواحي أحب: من ناحية أسلوبه، أو من ناحية علومه، أو من ناحية الأثر الذي أحده في العالم وغيره بوجه التاريخ، أو من تلك النواحي مجتمعة - على أن يكون له الخيرة بعد ذلك أن ينظر إليه في حدود البيئة والعصر الذي ظهر فيه، أو يفترض أنه ظهر في أرقى الأوساط والعصور التاريخية. وسواء علينا أيضاً أن ينظر إلى شخصية الداعي الذي جاء به أو يلتمس شخصاً خيالياً تجمعت فيه مرانات الأدباء، وسلطات الرعماء، ودراسات العلماء بكافة العلوم الإنسانية ثم نسأله: هل يجد فيه إلا قوة شاذة تغلب كل مغالب، وتتضائل دونها قوة كل

عالٰم، وكل زعيم، وكل شاعر وكاتب، ثم تنقضي الأجيال والأحتاب ولا ينقضي ما فيه من عجائب، بل قد تنقضي الدنيا كلها ولما يحط الناس بتأويل كل ما فيه **﴿وَمَا يَأْتِي تَأْوِيلُهُ, يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلِ فَدَ جَاءَتْ رُسُلٌ رَّبِّنَا بِالْحَقِّ﴾** [الأعراف: ٥٣]. فلنأخذ الآن -بعون الله وتوفيقه- في دراسة هذه النواحي الثلاثة من الإعجاز القرآني: أعني ناحية الإعجاز اللغوي، وناحية الإعجاز العلمي، وناحية الإعجاز الإصلاحي التهذيبي الاجتماعي.

ولتكن عنciتنا أوفـر بناحـيـته الـلغـويـة؛ لأنـها هيـ الـتي وـقـعـ منـ جـهـتهاـ التـحدـيـ بالـقرـآنـ جـملـةـ وـتـفصـيـلاـ فـيـ سـورـةـ مـنـهـ. ولـذـلـكـ نـبـأـ بـهـاـ.

القرآن معجزة لغوية

من كان عنده شيء من الشك في هذه القضية فليأذن لنا أن نستوضحه: فيما
ذلك الشك؟

هل حدثه نفسه بأنه يستطيع أن يأتي بكلام في طبقة البلاغة القرآنية؟ أم هو قد
عرف من نفسه القصور عن تلك الرتبة، ولكنه لم يعرف عن الناس ما عرف عن
نفسه؟

أم علم أن الناس جمِيعاً قد سكتوا عن معارضته القرآن، ولكنه لم يعلم أن
سكتهم عنه كان عجزاً، ولا أن عجزهم جاء من ناحية القرآن ذاته؟
أم علم أنهم قد عجزوا عنه وأنه هو الذي أعجزهم، ولكنه لم يعلم أن أسلوبه
كان من أسباب إعجازه؟

أم هو يؤمن بأن القرآن الكريم كان وما زال معجزة بيانية لسائر الناس، ولكنه
لا يؤمن بأنه كان معجزاً كذلك لمن جاء به؟

أم هو يؤمن بهذا كله؛ ولكنه لا يدرى: ما أسراره وما أسبابه؟

هذه وجوه ستة، لكل وجه منها علاج يخصه. وسنعالجها على هذا الترتيب:
١ - فأما إن كان مثار الشبهة عنده أنه زاول شيئاً من صناعة الشعر أو الكتابة،
بانت له دلائل وآنس من نفسه اقتداراً في البيان فوسوس له شيطان الإعجاب بنفسه والجهل
بالقرآن أنه يستطيع الإتيان بمثل أسلوبه، فذلك ظن لا يظنه بنفسه أحد من الكبار
المتتهرين، وإنما يعرض -إن عرض- للأغرار الناشئين.

ومثل هذا دواوئه عندنا نُصْحِّحُ نتقدم به إلى أن يطيل النظر في أساليب العرب، وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب، حتى تستحكم عنده ملكرة النقد البياني، ويستعين له طريق الحكم في مراتب الكلام وطبقاته، ثم ينظر في القرآن بعد ذلك.

وأنا له زعيم بأن كل خطوة يخطوها في هذه السبيل ستزيده معرفة بقدرها، وستحل عن نفسه عقدة من عقد الشك في أمره؛ إذ يرى هنالك أنه كلما ازداد بصيرة بأسرار اللغة، وإحساناً في تصريف القول، وامتلاكاً لнациضة البيان، ازداد بقدر ذلك هضماً لنفسه، وإنكاراً لقوته، وخضوعاً بكليته أمام أسلوب القرآن، وهذا قد يبدو لك عجياً، أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الصنعة بقدر ما تتکامل فيها قوته ويتسع بها علمه. ولكن لا عجب، فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه: لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعاً لعظمتها وثقة بالعجز عنها. ولا كذلك صناعات الخلق، فإن فضل العلم بها يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها، ومن هنا كان سحر فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون.

فإن أبي المغرور إلا إصراراً على غروره، وكُبُر عليه أن يُقر بعجزه وقصوره، دعوناه إلى الميدان ليجرب نفسه ويزير قوته، وقلنا له: أخرج لنا أحسن ما عندك لتنظر أصدقت أم كت من الكاذبين .. غير أنها نعشه بواحدة أخرى: ألا يخرج على الناس ببضاعته حتى يطيل الروية ويحكم الموازنة، وحتى يستيقن الإحسان والإجادة؛ فإنه إن فعل ذلك كان أدنى أن يتدارك غلطه ويواري سوته، وإن فقد أساء المسكين إلى نفسه من حيث أراد الإحسان إليها.

وإن في التاريخ لعِبَراً تؤثر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة؛ فجاءوا في معارضه القرآن بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم؛ بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة باِدَّعَوْرُه، باِقْعَارُه وشَنَارُه: فمنهم عاقلٌ استحيا أن يُتم تجربته، فحطط قلمه وممزق صحيفته^(١). ومنهم ماكر وجد الناس في ز منه أعقل من

(١) يعزى شيء من ذلك لابن المتفق، ولأبي الطيب، وللمعري، والظن بهؤلاء أنهم كانوا في غنى بعقولهم وأذواقهم عن الشروع في هذه المحاولة، إلا أن يكون على حد: «وَلَكِنَّ يَيْطَمِّنَ قَلْبِي».

أن تروج فيهم سخافاته، فطوى صحفه وأخفاها إلى حين^(١). ومنهم طائش برز بها إلى الناس، فكان سخرية للساخرين ومثلاً لآخرين^(٢).

فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فلينظر في تلك العبر ولیأخذ بأحسنتها، ومن لم يستح فليصنع ما يشاء.

٢- وأما إن كان مدخل الشبهة عنده أنه رأى في الناس من هو أعلى منه كعباً في هذه الصناعة، فقال في نفسه: «لئن لم أكن أنا من فرسان هذا الميدان، ولم يعُجزُ غيره

(١) من ذلك ما اشتهر عن تلك الكتب التي وضعها زعماء نحتي «القاديانية» و«البهائية» لتكون دستوراً دينياً لهم كالقرآن، وقد لفقوها تلفيقاً ركيكاً من آيات قرانية وكلمات عامية، وبدلوا فيها أصول الإسلام وفروعه، وادعوا فيها لأنفسهم النبوة أو الأولوية، ولكن أتباعهم لم يجرروا أن يذيعوا تلك الكتب وشمss العلم طالعة، فأخفوها - كما يخفى السotor سلطتها - إلى أن يجيء وقت يفشوا فيه الجهل بالعلوم والأداب، وتستعد فيه النفوس لقبول أمثالها. فليتظرروا آخر الدهر.

(٢) ذلك مثل مسيلمة الدجال، فقد زعم أنه يوحى إليه بكلام مثل القرآن، وما صنع شيئاً إلا أنه كان يعمد إلى أي من القرآن فيسرق أكثر ألفاظها ويبدل بعضها، قوله: «إنا أعطيناك الجماهر فصل لريك وجاهر» أو جيء على موازين الكلمات القرانية بألفاظ سوقية ومعاني سوقية، قوله: «والطاحنات طحننا والعاجنات عجننا والخابزات خبزنا» وهكذا لم يستطع وهو عربي قبح أن يحفظ بأسلوب نفسه، بل نزل إلى حد الإسفاف، وأتى العبث الذي يأتيه الصبيان في مداعبهم وتفكيرهم بقلب الأشعار والأغانى عن وجهها، ولا يخفى أن هذا كله ليس من المعارضة في شيء، بل هو المحاكاة والإفساد، وما مثله إلا كمثل من يستبدل بالإنسان تمثلاً لا روح فيه، وهو على ذلك تمثال ليس فيه شيء من جمال الفن، وإنما المعارضة أن تعمد إلى معنى من المعانى فتؤديه نفسه بأسلوب آخر يوازي الأصل في بلاغته أو يزيد. ومن يحاول ذلك في المعانى القرانية فإنما يحاول محالاً، والتجربة أصدق شاهد. بل من يحاول أن يجيء بمثل أسلوب القرآن في معانى أخرى لا يتحرى فيها الصدق والحكمة، فقد طمع في غير مطمع، ولذا كان من طرق التحدي للعرب أن طولبوا بعشر سور مثله **﴿مفترّت﴾** [هود: ١٣].

هذا؛ والذي نفهمه في أمر مسيلمة هو ما فهمه الأديب الرافعي: أنه لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية الصناعة البينية، إذ كانت هذه الناحية أوضح من أن يتبسّم أمرها عليه، أو أن يستطع تلبيسها على أحد من العرب، وإنما أراد أن يتخد سبيلاً إلى استهفاء قومه من ناحية أخرى ظنها أهون عليه وأقرب تأثيراً في نفوسهم، ذلك أن رأى العرب تعظيم الكهان في الجاهلية، وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع القلق الذي يزعمون أنه من كلام الجن، كقولهم «يا جلigh، أمر نجيج، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله - البخاري في المناقب: إسلام عمر» فكتلك جعل يطبع مثل هذه الأسجاع في محاكاة القرآن؛ ليوهمهم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد ﷺ لأنما النبوة والكهانة ضرب واحد، على أنه لم يفلح في هذه الحيلة أيضاً، فقد كان كثيرون من أشياعه يعرفونه بالكذب والمحماقة، ويقولون: إنه لم يكن في تعاطيه الكهانة حاذقاً، ولا في دعوه النبوة صادقاً، وإنما كان أتباعهم إياه كما قال قائلهم: «كذاب ربعة أحب إلينا من صادق مصر».

يُكَلِّي فِي مُعَارِضَةِ الْقُرْآنِ يَدَانِ، لَعْلَهُ هَذَا الْأَمْرُ يَكُونُ يَسِيرًا عَلَىٰ مِنْ هُوَ أَفْصَحُ
مِنِي لِسَانًا وَأَسْحَرُ بِيَانًا» فَمِثْلُ هَذَا نَقُولُ لَهُ: ارْجِعْ إِلَىٰ أَهْلِ الذِّكْرِ مِنْ أَدْبَاءِ عَصْرِكَ
فَاسْأَلْهُمْ هَلْ يَقْدِرُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ؟ فَإِنْ قَالُوكَ: «لَوْ نَشَاءُ لَقَلَّنَا مِثْلُ هَذَا»
فَقُلْ: «هَاتُوا بِرَهَانَكُمْ!» وَإِنْ قَالُوكَ: «لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» فَقُلْ: أَيْ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنْ
الْعَجْزِ شَهَادَةُ عَلَىِ الإِعْجَازِ؟

ثُمَّ ارْجِعْ إِلَىٰ التَّارِيخِ فَاسْأَلْهُ: مَا بِالْقَرْوَنِ الْأَوَّلِ؟ يَنْبَئُكَ التَّارِيخُ أَنَّ أَحَدًا
لَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ أَمَامَ الْقُرْآنِ فِي عَصْرٍ مِنْ أَعْصَارِهِ، وَأَنْ بَضْعَةُ النَّفَرِ الَّذِينَ أَنْغَضُوا
رَعْوَسَهُمْ إِلَيْهِ بَاعُوا بِالْخَزِيزِ وَالْهُوَانِ، وَسَحَبُ الدَّهْرِ عَلَىِ آثَارِهِمْ ذِيلَ النَّسِيَانِ.

أَجَلُّ، لَقَدْ سَجَلَ التَّارِيخُ هَذَا الْعَجْزَ عَلَىِ أَهْلِ الْلُّغَةِ أَنْفُسَهُمْ فِي عَصْرِ نَزُولِ
الْقُرْآنِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَصْرِ نَزُولِ الْقُرْآنِ؟ هُوَ أَزْهَرُ عَصُورِ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ، وَأَرْقَىٰ
أَدْوَارِ التَّهْذِيبِ الْلُّغُوِيِّ، وَهُلْ بَلَغَتِ الْمَجَامِعُ الْلُّغُوِيَّةُ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأَمَمِ مَا بَلَغَتِهِ
الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ مِنَ الْعُنَيَا بِلُغَتِهَا، حَتَّىٰ أَدْرَكَتْ هَذِهِ الْلُّغَةُ أَشْدَهَا؛
وَتَمْ لَهُمْ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ الْبَشَرِيَّةِ تَهْذِيبُ كَلِمَاتِهَا وَأَسْالِيْبِهَا؟ .. وَمَا هَذِهِ الْجَمْعُونِ
الْمَحْشُودَةُ فِي الصَّحَرَاءِ، وَمَا هَذِهِ الْمَنَابِرُ الْمَرْفُوعَةُ هُنَا وَهُنَاكَ؟ إِنَّهَا أَسْوَاقُ الْعَرَبِ
تُعْرَضُ فِيهَا أَنْفُسُ بَضَائِعِهِمْ وَأَجْوَدُ صَنَاعَاتِهِمْ؛ وَمَا هِيَ إِلَّا بَضَاعَةُ الْكَلَامِ،
وَصَنَاعَةُ الشِّعْرِ وَالْخُطَابَةِ، يَتَبَارَوْنَ فِي عَرْضِهَا وَنَقْدِهَا، وَاخْتِيَارُ أَحْسَنِهَا وَالْمَفَارِخِ
بِهَا، وَيَتَنَافِسُونَ فِيهَا أَشَدَّ التَّنَافِسِ، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ رِجَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ، وَمَا أَمْرُ
حَسَانٍ وَالْخَنَسَاءِ وَغَيْرِهِمَا بِخَافِ عَلَىِ مَتَّدِبِ.

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ جَاءَ الْقُرْآنُ .. وَإِذَا الْأَسْوَاقُ قَدْ انْفَضَتْ، إِلَّا مُنْهُ، وَإِذَا الْأَنْدِيَةُ
قَدْ صَفِرَتْ، إِلَّا عَنْهُ، فَمَا قَدْرُ أَحَدٍ أَنْ يُبَارِيَهُ أَوْ يُجَارِيَهُ، أَوْ يَقْتَرَحُ فِيهِ إِبْدَالُ كَلِمَةٍ
بِكَلِمَةٍ، أَوْ حَذْفُ كَلِمَةٍ أَوْ زِيَادَةُ كَلِمَةٍ، أَوْ تَقْدِيمُ وَاحِدَةٍ وَتَأْخِيرُ أُخْرَىٰ؛ ذَلِكَ عَلَىٰ
أَنَّهُ لَمْ يَسْدُدْ عَلَيْهِمْ بَابَ الْمُعَارِضَةِ بَلْ فَتَحَهُ عَلَىِ مَصْرَاعِيهِ، بَلْ دَعَاهُمْ إِلَيْهِ أَفْرَادًا
أَوْ جَمَاعَاتٍ. بَلْ تَحْدَاهُمْ وَكَرِرُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ التَّحْدِيَ فِي صُورٍ شَتَّىٰ، مَتَهَكِّمًا بِهِمْ
مُنْتَزِلًا مَعْهُمْ إِلَىِ الْأَخْفَى فَالْأَخْفَى: فَدَعَاهُمْ أَوْلَ مَرَةً أَنْ يَجْعَلُوهُمْ بِمِثْلِهِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ
أَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ، ثُمَّ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلِهِ، ثُمَّ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ

مثلك^(١)، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، ثم رماهم بالعالم كله بالعجز في غير مواربة؛ فقال: ﴿لَيْنَ أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِيَشْلِ هَذَا الْقُرْءَانَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال: ﴿فَإِنَّ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ثم هددتهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار، فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأباء الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلْمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما استطاعوا أن يظهوه وما استطاعوا له نقباً . . . حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الح توف، واستنبطوا السيف بدل الحروف. وتلك هي الحيلة التي يلجا إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان.

ومضى عصر القرآن والتحدي قائماً ليجرب كل امرئ نفسه، وجاء العصر الذي بعده، وفي البداية وأطرافها أقوام لم تختلط أنسابهم، ولم تنحرف أسلفهم، ولم تتغير سليقتهم، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا هذا الدين من أساسه، ويشتبوا أنهم قادرون من أمر القرآن على ما عجز عنه أولئكهم، لفعلوا، ولكنهم ذلت عناقهم له خاضعين، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل.

ثم مضت تلك القرون، وورث هذه اللغة عن أهلها الوراثون، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد، كانوا أشد عجزاً وأقل طمعاً في هذا المطلب العزيز. فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم، وكان برهان الإعجاز قائماً أمامهم من طريقين: وجданني وبرهاني . . ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) انظر كيف تنزل معهم في هذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل كأنه يقول: لا أكلفك بالمماثلة العامة؛ بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها، ربما يكون مثلاً على التقريب لا التحديد. وهذا أقصى ما يمكن من التنزل، ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولاً، فلم يجيء التحدي بلفظ «من مثله» إلا في سورة البقرة المدنية، وسائر المراتب بلفظ «مثله» في السور التي نزلت قبل ذلك بمكة؛ فتأمل هذا الفرق فإنه طريف. وأسأل الله أن يوفقنا وإياك لفهم أسرار كتابه، والانتفاع بهدايته وآدابه.

٣- فإن قال لنا: نعم، قد علمتُ أنه لم يأتِ أحد بشيء في معارضته القرآن، القول بالصرف ولكن ليس كل ما لم يفعله الناس يكون خارجاً عن حدود قدرتهم، فربما ترك الإنسان فعلًا هو من جنس أفعاله الاختيارية لعدم قيام الأسباب التي من شأنها أن تبعث عليه، أو لأن صارفًا إلهياً ثبط همته وصرف إرادته عنه مع توافر الأسباب الداعية إليه، أو لأن عارضاً فجائياً عطل آلاته وعاق قدرته عن إحداث ذلك الفعل بعد توجيه إرادته نحوه، فعلى الفرضين الأولين يكون عدم معارضته القرآن قلة اكتتراث بشأنه لا عجزاً عن الإتيان بمثله، وعلى الفرض الأخير يكون تركه عجزاً عنه حقاً، لكن ليس لمانع فيه من جهة علو طبقته عن مستوى القدرة البشرية، بل لمانع خارجي هو حماية^(١) القدرة العليا له، وصيانتها إياه عن معارضته المعارضين، ولو أزيل هذا المانع لجاء الناس بمثله^(٢).

قلنا له: هذه الفروض كلها لا تنطبق على موضوعنا بحال.

أما الأول: فإن الأسباب الباعثة على المعارضة كانت موفورة متضافة، وأي شيء أقوى في استثارة حمية خصمك من ذلك التقرير البلعج المتكلر الذي توجهه إليه معلمًا فيه عجزه عن مضاهاة عملك؟ إن هذا التحدي كافٍ وحده في إثارة حفيظة الجبان وإشعال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقتة، فكيف لو كان الذي تتحداه مجبولاً على الأنفة والحمية؟ وكيف لو كان العمل الذي تتحداه به هو صناعته التي بها يفاخر، والتي هو فيها المدرب الماهر؟ وكيف لو كنت مع ذلك ترميه بسفاهة الرأي وضلال الطريق؟ وكيف لو كنت تتبعني من وراء هذه الحرب الجدلية هدم عقائده، ومحو عوائده وقطع الصلة بين ماضيه ومستقبله؟

وأما الثاني: فإن هذه الأسباب قد رأيناها آتت بالفعل ثمراتها، وأيقظت همم المعارضين إلى أبعد حدودها. حتى كان أمر محمد ﷺ والقرآن هو شغفهم الشاغل، وهمهم الناصب، فلم يدعوا وسيلة من الوسائل لمقاومته باللطف

(١) هذا هو القول بالصرف، الذي اشتهر عن النّظام من المعتزلة، وهو وإن كان اعترافاً في الجملة بصحة الإعجاز إلا أنه لا يقول به إلا أعمامي أو شبهه ممن لم يذق للبلاغة طعمًا، ولذلك لم يتبعه عليه تلميذه الجاحظ ولا أحد من علماء العربية، وهو يعد خلاف ما عرفه العرب من أنفسهم كما سنبينه.

(٢) انظر في مزيد من الرد على القول بالصرف، كتاب: «القول بالصرف»، د. عبد الرحمن الشهري، ط. دار المنهاج. (عمرو)

أو بالعنف إلا استبطنوها^(١) وتذرعوا بها: أيخادونه عن دينه ليلين لهم ويركن قليلاً إلى دينهم^(٢) أم يساومونه بالمال والملك ليكف عن دعوته^(٣)، أم يتواصون بمقاطعته، وبحبس الزاد عنه وعن عشيرته الأقربين حتى يموتوا جوعاً أو يسلموه^(٤)، أم يمنعون صوت القرآن أن يخرج من دور المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم^(٥)، أم يلقون فيه الشبهات والمطاعن، أم يتهمون صاحبه

(١) في كل النسخ: استبتوطها، ولعل الصواب ما أثبته. (عمرو)

(٢) جاء رجال من قريش إلى النبي ﷺ فقالوا له: ولا محمد تعالى تمسح بالهenna، أو ألم بالهenna، وندخل معك في دينك، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَأْتِكُمْ مُّؤْمِنُو الْأَرْضِ إِلَّا كُدُودٌ لَّيَقْتُلُوكُمْ عَنِ الْأَرْضِ إِلَّا كُدُودٌ﴾ [الإسراء: ٧٣] رواه ابن مردويه بسنده جيد *.

* أورده السيوطي في الدر المثور: (٣١٨/٥)، والإتقان: (١٢٠/١).

(٣) إيماء إلى القصة الطويلة التي نزلت فيها قوله تعالى: ﴿وَقَاتُلُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَقُّ تَقْبِيرِ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْتُوْعًا﴾ [الآيات من سورة الإسراء: ٩٠] فما فوقيها] رواها ابن جرير بسنده متصل فيه بهم، ولها شاهد مرسلاً صحيح*. *

* تفسير الطبرى: (٨٧/١٥).

(٤) إيماء إلى خبر الصحيفة الجائرة التي تحالفت فيها قريش وكتنانة علىبني هاشم وبني المطلب لا يناكحونهم، ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله. رواه الشیخان عن الزهرى، وفي شأن هذه المحالفه يقول النبي ﷺ في غزوة الفتح وفي حجة الوداع: «منزلنا غداً إن شاء الله بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر» رواه الشیخان *.

* عن أبي هريرة، قال: قال لنا رسول الله ﷺ، ونحن بمعنى: «نحن نازلون غداً بخيف بنى كنانة، حيث تقاسموا على الكفر» وذلك إن قريشاً وبني كنانة تحالفت علىبني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحونهم ولا يبايعوهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ يعني بذلك، المحصب. رواه البخاري: (١٥٩٠)، ومسلم: (١٣١٤).

(٥) لم يطن أشراف قريش أن يستعلن أبو بكر بقراءة القرآن في فناء داره إذ كانت تهوى إليه أفتدة من أبنائهم ونسائهم وعيدهم يستمعون لقراءاته، فخشى المشركون أن يفتنوا، وكان ابن الدغنة قد أجراه أبو بكر، فأمروه أن يسترد جواره منه إذا أصر على الإعلان بقراءته. وقد فعل. الحديث رواه البخاري *.

* عن عائشة زوجها، قالت: «لم أعقل أبي قط إلا وهم يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا بأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشية، فلما ابتدأ المسلمين، خرج أبو بكر مهاجراً قبل الحشمة، حتى إذا بلغ برك الغمام لقيه ابن الدغنة، وهو سيد القراءة، فقال: أين تريد ولا أباً بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجنني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربِّي، قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يخرج ولا يخرج، فإنك تكسب المعدوم، وتصلك الرحمة، وتحمل الكل، وتقرئ الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فأعبد ربِّك بيلاذك، فارتاحل ابن الدغنة، فرجع مع أبي بكر، فطاف في أشرف كفار قريش، فقال لهم: إن أباً بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أتخرجون رجالاً يكسب المعدوم، ويصل الرحمة، ويحمل الكل، ويقرئ الضيف، ويعين على نوائب الحق، فأنفقت قريش =

بالسحر والجنون ليصدوا عنه من لا يعرفه من القبائل القادمة في الموسام، أم يمكرون به ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه [الأنفال: ٣٠]، أم يخاطرون بمهمتهم وأموالهم وأهليهم في محاربته، أفكان هذا كلها تشاغلاً عن القرآن وقلة عناية بشأنه؟! ثم لماذا كل هذا وهو قد دلهم على أن الطريق الوحيد لإسكاته هو أن يجيئوه بكلام مثل الذي جاءهم به؟ لم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره في يدهم؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب، وكان القتل والأسر والفقر والذل كل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذي دلهم عليه. فأي شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز.

لا ريب أن هذه الحملات كلها لم تكن موجهة إلى شخص النبي ﷺ وأصحابه، فقد كانوا من قبل تعطفهم عليهم أرحامهم، وتحببهم إليهم مكارم أخلاقهم. كما أنها لم تكن موجهة إلى القرآن في الصدور ولا في داخل البيوت؛ فقد قبلوا منهم أن يعبد كل امرئ ربه في بيته كيف يشاء. إنما كانت مصوبة إلى هدف واحد، ومقاومة لخطر واحد، هو إعلان^(١) هذا القرآن ونشره بين العرب.

= جوار ابن الدغنة، وأمنوا أبو بكر، وقالوا لابن الدغنة: مر أبو بكر، فليعبد ربه في داره، فليصل، وليرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإننا قد خشينا أن يفتتن أبناءنا ونساءنا، قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فطغى أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بالصلاحة، ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتلى مسجداً بفناء داره وبزره، فكان يصلّي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقصّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً، لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فافتزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا له: إننا كنا أجربنا أبو بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك، فابتلى مسجداً بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتتن أبناءنا ونساءنا، فإنه أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبي إلا أن يعلن ذلك، فسله أن يرد إليك ذمتك، فإننا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، قالت عائشة: فأتي ابن الدغنة أبو بكر، فقال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمي، فإني لا أحب أن تسمع العرب، أني أخترت في رجل عقدت له، قال أبو بكر: إني أرد إليك جوارك، وأرضي بجوار الله، رواه البخاري: (٢٢٩٩)، (٣٩٥).

(١) وفي ذلك يقول النبي ﷺ حينما كان يعرض نفسه على الناس في الموقف: «ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربِّي» رواه أبو داود والترمذى فانظر قوله: «منعوني أن أبلغ» ولم يقل منعوني أن «أتلو» *.

* عن جابر، قال: كان النبي ﷺ قد يعرض نفسه بالموقف، فقال: «ألا رجل يحملني

ولا يهحسن في روعك أنهم ما نقموا من الإعلان بالقرآن إلا أنه دعوة جديدة إلى دين جديد فحسب. كلا، فقد كان في العرب حنفاء من فحول الخطباء والشعراء؛ كقس بن ساعدة، وأمية بن أبي الصلت، وغيرهما، وكانت خطبهم وأشعارهم مشحونة بالدعوة إلى ما دعا إليه القرآن من دين الفطرة. فما بالهم قد أهملهم من أمر محمد وقرآنـه ما لم يعنـهم من أمر غيره؟ ما ذاك إلا أنـهم وجـدوا له شأنـا آخر لا يـشبه شأنـ الناس، وأنـهم أحسـوا في قـرآنـه قـوة غـلابة وـتيارـا جـارـا يـ يريد أن يـبـسط سـلطـانـه حيث يـصل صـدـى صـوـته، وأنـهم لم يـجـدوا سـبيـلا لـمـقاـومـته عن طـرـيقـ المـعـارـضـةـ الـكـلامـيـةـ الـتـيـ هيـ هـجـيرـاـهـ،ـ وـالـتـيـ هيـ الـطـرـيقـ الـمـبـاـشـرـ الـذـيـ تـحـداـهـ بـهـ،ـ فـلـاـ جـرـمـ كـانـ الـطـرـيقـ الـوـحـيدـ عـنـهـمـ لـمـقاـومـتـهـ هوـ الـحـيـلـوـلـةـ بـمـخـتـلـفـ الـلـوـسـائـلـ بـيـنـ هـذـاـ الـقـرـآنـ وـبـيـنـ النـاسـ مـهـمـاـ كـلـفـهـمـ ذـلـكـ مـنـ تـضـحـيـةـ،ـ وـكـذـلـكـ فـعـلـوـاـ،ـ وـكـذـلـكـ مـضـتـ السـنـةـ فـيـمـ بـعـدـهـمـ مـنـ أـعـدـاءـ الـقـرـآنـ إـلـىـ يـوـمـنـاـ هـذـاـ.

وأما الثالث: فإنه لو كان عجزهم عن مضاهاة القرآن لعارضٍ أصابهم حال بينهم وبين شيء في مقدورهم، لما استبان لهم ذلك العجز إلا بعد أن يسيطروا على استئتمهم إليه، ويجرجوها قدرتهم عليه؛ لأنـهـ ماـ كـانـ لـأـمـرـئـ أـنـ يـحـسـ بـزـوـالـ قـدـرـتـهـ عنـ شـيـءـ كـانـ يـقـدـرـ عـلـيـهـ كـقـدـرـتـهـ عـلـىـ الـقـيـامـ وـالـقـعـودـ إـلـاـ بـعـدـ مـحاـوـلـةـ وـتـجـربـةـ،ـ وـنـحـنـ قـدـ عـلـمـنـاـ أـنـهـمـ قـدـعـلـوـاـ عـنـ هـذـهـ التـجـربـةـ،ـ وـلـمـ يـشـعـ مـنـهـمـ فـيـ هـذـهـ الـمـحـاـوـلـةـ إـلـاـ أـقـلـهـمـ عـدـدـاـ،ـ وـأـسـفـهـمـ رـأـيـاـ.ـ فـكـانـ ذـلـكـ آـيـةـ عـلـىـ بـأـسـهـمـ الـطـبـيـعـيـ مـنـ أـنـفـسـهـمـ،ـ وـعـلـىـ شـعـورـهـمـ بـأـنـ عـجـزـهـمـ عـنـهـمـ عـجـزـ فـطـرـيـ عـتـيدـ،ـ كـعـجـزـهـمـ عـنـ إـزـالـةـ الـجـبـالـ،ـ وـعـنـ تـنـاـوـلـ النـجـومـ مـنـ السـمـاءـ،ـ وـأـنـهـمـ كـانـوـاـ فـيـ غـنـيـ بـهـذـاـ الـعـلـمـ الـضـرـوريـ عـنـ طـلـبـ الدـلـلـ عـلـيـهـ بـالـمـحـاـوـلـاتـ وـالـتـجـارـبـ.

علىـ أـنـهـمـ لـوـ كـانـوـاـ لـمـ يـعـرـفـوـاـ عـجـزـهـمـ عـنـهـ بـادـئـ ذـيـ بدـءـ،ـ وـإـنـمـاـ أـدـرـكـهـمـ الـعـجـزـ بـعـدـ شـعـورـهـمـ بـأـنـهـ فـيـ مـسـتـوـيـ كـلـامـهـمـ،ـ لـكـانـ عـجـبـهـمـ إـذـاـ مـنـ أـنـفـسـهـمـ:ـ كـيـفـ عـيـواـ بـهـ وـهـوـ مـنـهـمـ عـلـىـ طـرـفـ الـثـمـامـ؟ـ وـلـجـلـعـلـوـاـ يـتـسـأـلـوـنـ فـيـمـاـ بـيـنـهـمـ أـيـ دـاءـ أـصـابـنـاـ فـعـقـدـ أـلـسـنـتـناـ عـنـ مـعـارـضـهـ ذـاـ الـكـلامـ الـذـيـ هوـ كـكـلـ كـلـامـ؟ـ أوـ لـرـجـعـوـاـ إـلـىـ بـيـانـهـمـ الـقـدـيمـ

= فإنـ قـرـيشـاـ قدـ مـنـعـونـيـ أـنـ أـبـلـغـ كـلـامـ رـبـيـ».

رواهـ أـحـمـدـ: (١٥١٩٢)،ـ وـالـتـرـمـذـيـ: (٢٩٢٥).

قبل أن يصيّبهم العجز فجاءوا بشيء منه في محاذاته، ولكنهم لم يجيئوا فيه بقديم ولا جديد، وكان القرآن نفسه هو مثار عجبهم وإعجابهم، حتى إنهم كانوا يخرون سُجَّداً لسماعه من قبل أن تمضي مهلة يوازنون فيها بينه وبين كلامهم، بل إن منهم من كان يغلبه هذا الشعور فيفاض على لسانه اعترافاً صحيحاً: «ما هذا بقول بشر».

٤- فإن قال: قد تبيّنَتْ الآن أن سكوت الناس عن معارضته القرآن كان عجزاً، إعجاز القرآن
وأنهم وجدوا في طبيعة القرآن سرّاً من أسرار الإعجاز يسمو به عن قدرتهم.
في لغته ولكني لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن أن تكون من مظان هذ السر؛ لأنني أقرأ القرآن فلا أجده يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية: فمن حروفهم رُكِّبتْ كلماتهم. ومن كلماتهم أُلْفَتْ جمله وأياته، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه، فأي جديد في مفردات القرآن لم تعرفه العرب من موادها وأبنيتها؟ وأي جديد في تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به في مذاهبيها، حتى نقول: إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية؟

قلنا له: أما أن القرآن الكريم لم يخرج في لغته عن سنن العرب في كلامهم إفراداً وتركيبياً فذلك في جملته حق لا ريب فيه، وبذلك كان أدخل في الإعجاز، وأوضح في قطع الأعذار ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَنْجِيمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَّتْ آيَاتُهُ، إِنْجِيمِيًّا وَعَرَقِيًّا﴾ [فصلت: ٤٤].

وأما بعد، فهل ذهب عنك أن مثل صنعة البيان كمثل صنعة البناء، فالمهندسون البناءون لا يخلقون مادة بناء لم تكن في الأرض، ولا يخرجون في صنعتهم عن قواعدها العامة، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدراناً مرفوعة، وسقفًا موضوعة، وأبواباً مشرعة، ولكنهم تتفاصل صناعاتهم وراء ذلك في اختيار أمنن المواد وأبقاها على الدهر، وأكثناها للناس من الحر والقر، وفي تعميق الأساس وتطويل البيان، وتحفيض المحمول منها على حامله، والانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة، وترتيب الحجرات والأبهاء، بحيث يتخللها الضوء والهواء، فمنهم من يفي بذلك كله أو جله، ومنهم من يخل بشيء منه أو أشياء .. إلى فنون من الزينة والزخرف يتفاوت الذوق الهندسي فيها تفاوتاً بعيداً.

كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى يتفاوت حظها في الحسن والقبول، وما من كلمة من كلامهم ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة. ولكنه حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يستوعي سمعك، ويبلغ صدرك، ويملك قلبك. وسوء الاختيار في شيء من ذلك قد ينزل به حتى تمجه أذنك، وتغشى منه نفسك، ويفر منه طبعك.

ذلك أن اللغة فيها العام والخاص، والمطلق والمقييد، والمجمل والمبين، وفيها العبارة والإشارة والفحوى والإيماء، وفيها الخبر والإنشاء، وفيها الجمل الاسمية والفعلية، وفيها النفي والإثبات، وفيها الحقيقة والمجاز، وفيها الإطناب والإيجاز، وفيها الذكر والمحذف، وفيها الابتداء والعلطف، وفيها التعريف والتنكير، وفيها التقديم والتأخير، وهلم جرا . . ومن كل هذه المسالك ينفذ الناس إلى أغراضهم، غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة جملة، بل هم في شعابها يتفرقون، وعند حدودها يلتقطون.

بيد أنه ليس شيء من هذه المسالك بالذي يجمل في كل موطن، وليس شيء منها بالذى يقبح في كل موطن، إذا لهان الأمر على طالبه، وأصبحت البلاغة في لسان الناس طعمًا واحدًا، وفي سمعهم نغمة واحدة. كلا، فإن الطريق الواحد قد يبلغك مأمنك حيناً، ويقصر بك عن غaitتك حيناً آخر، ورب كلمة تراها في موضع كالخرزة الضائعة ثم تراها بعينها في موضع آخر، كالدرة اللامعة. فالشأن إذا في اختيار هذه الطرق أيها أحق بأن يسلك في غرض غرض، وأيتها أقرب توصيلاً إلى مقصد مقصد؛ فهي الجدال أيها أقوم بالحججة، وأدحض للشبهة، وهي الوصف أيها أدق تمثيلاً للواقع، وفي موطن اللين أيها أخف على الأسماع وأرقق بالطبع، وفي موطن الشدة أيها أشد اطلاعاً على الأفئدة بتلك النار الموقدة، وعلى الجملة أيها أوفى بحاجات البيان وأبقى بطرافته على الزمان.

والامر في هذا الاختيار عسير غير يسير؛ لأن مجال الاختيار كثير الشعب مختلف الألوان في صور المفردات والتراتيب، والناس ليسوا سواء في استعراض هذه الألوان، فضلاً عن الموازنة بينها، فضلاً عن حسن الاختيار فيها، فرب

رجلين يهتدي أحدهما إلى ما عَفَلَ عنه صاحبه، ويغفل كل منهما عما هدي إليه الآخر، ورب وجه واحد يفوتك ها هنا يعدل وجهين تحصلهما هناك، أو بالعكس.

وعن جملة الملاحظات التي يلاحظها القائل في قوله، تتولد صورة خاصة مثلها في هذه المركبات المعنوية مثل «المزاج» في تلك المركبات العنصرية المادية، وهذا «المزاج» هو الذي نسميه بالأسلوب أو الطريقة، وعلى حسيه يقع التفاوت في درجات الكلام وفي حظه من الحسن والقبول.

فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسها رحمةً بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويوضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين. لا يوماً أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً، ولا الساكن يغادر منزله حولاً.. وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان.

هذا مطلب له دليله، وإجمال له تفصيله، وليس من قصتنا أن نعجلك الآن بالبحث في أداته وتفاصيله، وإنما أردنا أن نزيح عنك هذه الشبهة لتعلم أن ليس كل كلام عربي بكل كلام عربي، وأن هذه الناحية اللغوية جديرة بأن تتفاوت فيها القوى نازلة إلى حد العجز، أو صاعدة إلى حد الإعجاز.

فإن أحببت أن تعرف للقرآن الكريم سبقه وبلغو跟他 الغاية في هذا المضمار وأنت بعد لم تُرزق قوة الفصل بين درجات الكلام فاعلم أنه لا سبيل لك إلى القضاء في هذا الشأن عن حس وخبرة، وإنما سبilk أن تأخذ حكمه مسلماً عن أهله وتقنع فيه بشهادة العارفين به، وإذاً يكون من حرقك علينا أن نقدم لك مثلاً من شهاداتهم، فخذ الآن هذا المثال:

جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله ﷺ فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال له: ولا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً

ليعطيوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله، قال الوليد: لقد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قوله يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته ... الحديث^(١) رواه الحاكم عن ابن عباس، وقال: صحيح على شرط البخاري.

نعم، إن كنت لا تفرق بين كلام وكلام فهذه شهادة حسبك من شهادة، وناهيك أنها شهادة أهل اللغة أنفسهم، بل شهادة الأعداء لعدوهم.

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأ بصار

(١) للحديث بقية، وهي أن أبي جهل ألح على الوليد، وقال له: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. فقال الوليد: دعني أفك. فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِدَّاً وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَأَمْنَدُهَا وَبَيْنَ شَهْرَيْا وَهَدَّتُ لَهُ تَهْيَيْا ثُمَّ طَمَعَ لَهُ أَرْيَدَ كُلَّا إِنَّهُ كَانَ لِأَكْبَتِنَا عَيْنَدَا سَأْفَقَهُ صَعُودَا إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَرَ فَقِيلَ كَيْفَ فَقَرَ ثُمَّ قُلْ كَفَ فَقَرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَسَ وَبِسَرَ ثُمَّ أَدَبَرَ وَاسْتَكَبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [الآيات من سورة المدثر: ١١ وما بعدها]. فانظر تصوير القرآن للجهاد العنيف الذي بذله الرجل في إصدار حكمه الثاني، حيث يقول: إنه فكر وقدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدب واستكبر، ومعنى هذا كله أنه كان يقاوم فطنته، ويستكره نفسه على مخالفته وجاذبه، وأنه كان في حيرة وضيق بما يقول .. وأخيراً استطاع أن يقول ما قال نزولاً على إرادة قومه.

وانظر الفرق بين هذا الحكم المصطنع وبين حكم البديهة العربية في قوله أول مرة: إنه يعلو وما يعلى، وأنه يحطم ما تحته *.

* عن ابن عباس رض ، «أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكانه رق له فبلغ ذلك أبي جهل، فأتاوه فقال: ولا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: ليعطيوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالا. قال: فقل فيه قوله يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثير أعلاه مخدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته» قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: «هذا سحر يأثره من غيره فنزلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِدَّاً﴾ [المدثر: ١١]».

آخرجه الحاكم في المستدرك: (٥٥٠ / ٢)، (٣٨٧٢).

وأما إن كنت قد أوتيت حظك من معرفة فروق الكلام والميز بين أساليبه فاقرأ ما شئت من خطب العرب وأشعارها، وحكمها وأمثالها، ورسائلها ومحاوراتها، متبعاً في ذلك عصور الجاهلية والإسلام على اختلاف طبقاتها، ثم افتح صفحة من هذا الكتاب العزيز وانظر ماذا ترى؟

أسلوب عجب، ومنهج من الحديث فذ مبتكر، كأن ما سواه من أوضاع الكلام منقول، وكأنه بينها على حد قول بعض الأدباء: «وضع مرتجل» لا ترى سابقاً جاء بمثاله، ولا لاحقاً طبع على غراره، فلو أن آية منه جاءتك في جمهرة من أقوال البلغاء لدلت على مكانها. واستمتازت من بينها، كما يستميز اللحن الحساس بين ضروب الألحان، أو الفاكهة الجديدة بين ألوان الطعام.

٥- سيقول السائل إذا انتهى معنا إلى هذا الموضع: لقد أغفلتم عنا بهذا البيان باباً من الشك، ولكنكم لم تلبثوا أن فتحتم علينا منه باباً جديداً، ألم تقولوا لنا: إن هذه الصناعة البينانية ليست في الناس بدرجة واحدة، وإن القوى تذهب فيه متفاوتة على مراتب شتى، فما نرى إذا علينا من حرج أن نعد الإعجاز الذي حدثمنا عنه أمراً مشاعاً يجري في أساليب الناس كما يجري في القرآن. ألا ترون أن كل قائل أو كاتب إنما يضع في بيانه قطعة من عقله ووجوده على الصورة التي تهديه إليها فطرته ومواهبه؟ وأن اختلاف الناس في هذه الوسائل يتبعه البتة اختلاف طرائقهم في التعبير عن أغراضهم؟ إنكم ل تستطيعون أن تحصوا في اللغة العربية صوراً كلامية بعدة الناطقين بها، بحيث لا تجدون كاتباً يكتب كما يكتب كاتب آخر على السواء، ولا قائلاً كذلك. بل أنتم لا محالة واجدون عند كل واحد منهاجاً خاصاً في الأداء؛ فليس البدوي كالحضري، ولا الذكي كالغبي. وليس الطائش كالحليم، ولا المريض كالسليم. وليس الأدنى في هذا الباب يستطيع الصعود إلى الأعلى، ولا الأعلى يستطيع النزول إلى الأدنى. بل المتشابهان فطرة ومزاجاً، المتساويان تربية وتعلماً قد يشربان من كأس واحدة ثم لا يتناطقان بالكلام على صورة واحدة. فكيف تأمرون الناس أن يجيئوكم بمثل القرآن وهم لا يقدرون أن يجيء بعضهم بمثل كلام بعض؟ وكيف تدعون عجزهم عنه آية على قدسيته وأنتم لا تدعون عجز كل امرئ عن الإتيان بأسلوب غيره آية

على أن ذلك الأسلوب صنع إلهي محض لا كسب فيه للذى جرى على لسانه؟
أليس هذا القياس يسوغ لنا أن نفترض القرآن كلاماً بشرياً كسائر كلام البشر، غير
أنه اختص أسلوبه ب أصحابه كما اختص كل أمرٍ بأسلوب نفسه؟

وجوابنا لهذا القائل أن نقول له: لسنا نماريك في أن كلام المتكلم إنما هو صورة تمليها عليه فطرته وموهبه، ولا في أن هذه الفطر والمواهب لتفاوتها عند أكثر الناس لا بد أن تترك أثراً من التفاوت في صورة كلامهم، ولا في أن تلك الفطر والمواهب إن تشابهت عند فريق من الناس فأمللت عليهم صوراً متشابهة من القول فإنها لا تخرجها في عامة الأمر صورة واحدة.

كل هذا نسلمه ولا ننكره، ولكنه لا يضرنا ولا يوهن شيئاً من حجتنا؛ ذلك أننا حين نتحدى الناس بالقرآن لا نطالبهم أن يجيئونا بنفس صورته الكلامية، كلاماً، ذلك ما لا نطبع فيه، ولا تدعو المعارضين إليه، وإنما نطلب كلاماً أيّاً كان نمطه ومنهاجه، على النحو الذي يحسنه المتكلم أيّاً كانت فطرته ومزاجه، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقاييس الفضيلة البيانية حاذأه أو قاربه في ذلك المقاييس وإن كان على غير صورته الخاصة، فالأمر الذي ندعوه إلى التماش أو المقاربة فيه هو هذا القدر الذي فيه يتناقض البلاغاء، وفيه يتماثلون أو يتقاربون. وذلك غير المعارض والصور المعينة التي لا بد من الاختلاف فيها بين متكلم ومتكلم.

فإن عسر عليك أن تفهم كيف تجيء المماثلة مع هذا الاختلاف ضربنا لك مثلاً؛ قوماً يستبقون إلى غاية محدودة، وقد اتخذوا لذلك مجالاً واسعاً لا يزاحم بعضهم فيه بعضاً، ولا يضع أحدهم قدمه على موضع قدم صاحبه، بل جعل كل منهم يذهب في طريقه الخاص به موازيًا لقرنه في المبدأ والوجهة. ثم يكون منهم المجلبي والمصلبي، والمتفقى والتالى، ويكون منهم من لا حظ له في الرهان. ويكون منهم المتكافئون المتعادلون. وهكذا تراهم وهم مختلفو المنازل يقع بينهم التماثل كما يقع بينهم التفااضل بنسبة ما قطعه كل منهم من طريقه إلى الغاية المشتركة. فكذلك المتنافسون في حلبة البيان يعمد كل منهم إلى الغرض من الطريق التي يرضاها، وعلى الوجه الذي يستميليه من نفسه، ثم يقع بينهم التماثل أو التفااضل على قدر ما يوفون من حاجات البيان أو ينقصون منها، وإن اختلفت المذاهب التي انتهاها كل منهم.

هب -إذاً- المدعوين لمعارضة القرآن فيهم الأكفاء والأنداد لنبي القرآن في الفطرة والسلالة العربية، أو من هم أكمل منه فيها، أو هبهم جميـعاً دونه في تلك المنزلة. فأما الأعلون فسيجيئون على وفق سليقتهم بقول أحسن من قوله. وأما الأنداد فسيجيئون بشيء مثله. وأما الآخرون فلن يكبر عليهم أن يقاربوا ويجيئوا بشيء من مثله^(١)، شيء من هذه المراتب الثلاث^(٢) لو تم لكان كافياً في رد الحجة وإبطال التحدي.

ستقول: بل اختار الواقع، وهو أن العرب على اختلاف مراتبهم في البيان لم يرتفعوا إلى طبقة البلاغة المحمدية، وأزعم أن هذا القصور الذاتي الذي قعد بهم عن مجاراته في عامة كلامه هو الذي قعد بهم عن معارضة قرآنـه. وإذا لا يكون هذا العجز حجة لكم على قدسيـة الأسلوب القرآـني كما لم يكن حجة عندكم على قدسيـة الأسلوب النبوـي.

فنجيب: أما أن محمدًا ﷺ كان هو أفعـص العرب، وكان له في هذه الفضـيلة البيانية المقام الأول بينـهم غير مزاحـم، فذلك ما لا نمارـي -بل لا نـمـتـري- فيه نحن ولا أحد مـمن يـعـرـفـ العـربـيـةـ، غيرـ أنـناـ نـسـأـلـ ماـ مـبـلـغـ هـذـاـ التـفاـوتـ الـذـيـ كانـ بـيـنـهـ وـبـيـنـهـ؟ـ أـكـانـ مـمـاـ يـتـفـقـ مـثـلـهـ فـيـ مـجـارـيـ العـادـاتـ بـيـنـ بـعـضـ النـاسـ وـبـعـضـ فـيـ حدودـ القـوـةـ الـبـشـرـيـةـ،ـ أـمـ كـانـ أـمـرـاـ شـاذـاـ خـارـقاـ لـلـعـادـةـ بـالـكـلـيـةـ؟ـ

فأما إن كان كما نـعـهـدـ شـيـبـهـاـ بـمـاـ يـكـونـ فـيـ العـادـةـ بـيـنـ الـبـلـيـغـ وـالـأـبـلـغـ،ـ وـبـيـنـ الـحـسـنـ وـالـأـحـسـنـ،ـ فـلاـ شـكـ أـنـ هـذـاـ النـحـوـ مـنـ الـعـلـوـ إـنـ حـالـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـمـجـيءـ بـمـثـلـ كـلـامـهـ كـلـهـ لـمـ يـكـنـ لـيـحـولـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ قـطـعـةـ وـاـحـدـةـ مـنـهـ،ـ وـلـئـنـ أـعـجـزـهـمـ هـذـاـ الـقـدـرـ الـيـسـيرـ أـنـ يـحـتـذـوـهـ عـلـىـ التـمـامـ لـمـ يـكـنـ لـيـعـجـزـهـمـ أـنـ يـنـزـلـوـاـ مـنـهـ بـمـكـانـ قـرـيبـ.ـ أـلـاـ وـإـنـاـ قـدـ أـرـخـيـنـاـ لـهـمـ العـنـانـ فـيـ مـعـارـضـةـ الـقـرـآنـ بـهـذـاـ أـوـ ذـاكـ،ـ وـأـغـمـضـنـاـ لـهـمـ فـيـمـاـ يـجـيـئـنـاـ بـهـ أـنـ يـكـونـ كـلـاـ أـوـ بـعـضـاـ،ـ وـكـثـيرـاـ أـوـ يـسـيرـاـ،ـ وـمـمـاثـلـاـ أـوـ قـرـيبـاـ مـنـ الـمـمـاـلـ،ـ فـكـانـ عـجـزـهـمـ عـنـ ذـلـكـ كـلـهـ سـوـاءـ.

(١) لا تنسـ ماـ قـرـرـنـاـهـ فـيـ الـفـرقـ بـيـنـ هـذـهـ الطـبـقـةـ وـالـتـيـ قـبـلـهـاـ.

(٢) غيرـ أـنـ الـمـرـتـبـةـ الـأـلـيـ مـسـكـوـتـ عـنـهـاـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ اـسـتـقـصـارـاـ لـهـمـمـهـمـ،ـ وـاـكـنـفـاءـ بـتـعـجـيزـهـمـ عـمـاـ بـعـدـهـاـ.

وأما إن قيل: إن التفاوت بينه عليه السلام وبين سائر البلوغاء كان إلى حد انقطاع صلتهم به جملة؛ لاختصاصه من بين العرب ومن بين الناس بفطرة شاذة لا تناسب إلى سائر الفطر في قليل ولا كثير إلا كما تناسب القدرة إلى العجز، أو الإمكاني إلى الاستحالة، فلا شك أن القول بذلك هو أخوه القول بأن من الإنسان ما ليس بإنسان، أو هو التسليم بأن ما يجيء به هذا الإنسان لا يكون من عمل الإنسان؛ ذلك أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة، والطبائع الشخصية تقع فيها الأشباه والأمثال في شيء بعد الشيء وفي الواحد بعد الواحد؛ إن لم يكن ذلك في كل عصر ففي عصور متطاولة، وإن لم يكن في كل فنون الكلام ففي بعض فنونه. وكم رأينا من أناس كثيرة تتشابه قلوبهم وعقولهم وألسنتهم فتتوافق خواطرهم وعباراتهم حيناً، وتتقارب أحياناً، حتى لقد يخيل إليك أن الروح الساري في القولين روح واحد، وأن النفس ها هنا هو نفس هناك. وكذلك رأينا من الأدباء المتأخرين من يكتب بأسلوب ابن المقفع وعبد الحميد، ومن يكتب بأسلوب الهمذاني والخوارزمي، وهلم جرا.

فلو كان أسلوب القرآن من عمل صاحبه الإنسان لكان خليقاً أن يجيء بشيء من مثله من كان أشبه بهذا الإنسان مزاجاً، وأقرب إليه هدياً وسمتاً، وألصق به رحماً، وأكثر عنهأخذاً وتعلماً، أو لكان جديراً بأصحابه الذين نزل القرآن بين ظهرهم فقرأوه واستظهروه؛ وتذوقوا معناه وتمثلوه، وترسموا خطواته واغترروا من مناهله - أن يدنوا أسلوبهم شيئاً من أسلوبه على ما تقضي به غريزة التأسي، وشيمة نقل الطياع من الطياع، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يكن، وإنما كان قصارى فضل البليغ فيهم كما هو جهد البليغ فيما أن يظفر بشيء يقتبسه منه في تصعيف مقالته ليزيدها به علواً ونباهة شأن.

بل نقول: لو كان الأسلوب القرآني صورة لتلك الفطرة المحمدية لوجب على قياس ما أصلته من المقدمات أن ينطبع من هذه الصورة على سائر الكلام المحمدي ما انطبع منها على أسلوب القرآن؛ لأن الفطرة الواحدة لا تكون فطرتين، والنفس الواحدة لا تكون نفسيين^(١) ونحن نرى الأسلوب القرآني فراء

(١) هنا موضع سؤال، فكأننا بقائل يقول لنا: إنه ليس بدعاً من الأمر أن يكون للرجل البليغ ضربان =

من الكلام: أحدهما: يجيئه على البديهة فيرسله إرسالاً غير معنى بتهذيبه وتحبيره، والآخر: يتأتي له بالرواية ويحتفل به احتفالاً يجعل بينه وبين الضرب الأول بعدًا شاسعًا يخيل للسامع أنه قول شخص آخر مع صدور القولين عن قاتل واحد. فهلا طبقتم هذا المثل في الكلام المحمدى فجعلتم حديثه من الضرب الأول وقرآنه من الضرب الثاني؟

والجواب: أن توزيع هذين الضربين على الحديث والقرآن توزيع لا يتفق والواقع في شيء؛ فقد كان أكثر الوحي القرآني يجيء إلى النبي ﷺ في شأن لم يسبق له عهد به ولم يتقدم منه تفكير فيه، بل كان يفاجئه من فوره على غير توقع وانتظار؛ جواباً لسؤال سائل، أو فتياً في حادثة نزلت، أو قصصاً عن أمة مضت، أو ما إلى ذلك، وقليلًا ما كان يجيئه بعد ت Shawf وتليث تمكن فيه الرواية، كما في مسألة الإفك ومسألة تحويل القبلة، وقد رأينا أسلوبه في كلتا الحالين، فإذا نسقه هو نسقه ونظامه هو نظامه، وكذلك نقول: إن كلامه النبوي كانت تختلف عليه هذه الظروف ويتحدد فيها أسلوبه، فقد كان يتكلم أحياناً بعد تفكير طويل وروية وتشاور مع أصحابه كما رأينا من حديثه في مسألة الإفك، وكما نرى من حديثه بعد التشاور في شؤون الحرب والصلح ونحوها، وأحياناً بعد تليث يسير؛ انتظاراً للوحي كما في قصة الرجل الذي جاء في الجعرانة سنة ثمان فسائل عن العمرة وهو متضمخ بالطبع وعلىه جبة، فنظر إليه النبي ساعة، ثم سكت، حتى جاءه الوحي، فلما سري عنه قال: «أين السائل عن العمرة؟» فجيء به، فقال ﷺ: «أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فائز بها واصنع في عمرتك ما تصنع في حبك» رواه الشیخان.

وأخرى كان يتكلم على البديهة فيما لا يشكل عليه أمره مما سبقت به قضية العقل أو الدين، وهو في كل ذلك يجري كما ترى على نمط واحد لا تستطيع أن تميز في أسلوبه بين ما كان معناه مدرباً بالرأي وما كان معناه معلماً بالوحي. ولا بين ما يرسله إرسالاً في حديثه مع أهله وأصحابه وما يحتفل به احتفالاً في الجموع الممحشودة والأيام المشهودة. فتبين بطان ما اعتمدته السائل من تفرقة بين القرآن والحديث على هذا التحول. بل إننا لو ذهبنا إلى أبعد من ذلك وافتراضنا جدلاً صحة هذا التقسيم لما صلح أساساً يقوم عليه بناء الشبهة؛ لأن انقسام الكلام إلى المرسل على البديهة والمزور بالرواية ما كان ليتفاوت به منهج الكلام - عند العرب الخلص - هنا التفاوت بعيد الذي يظن فيه أنه قول قائلين. وإنما ظهر هذا التفاوت منذ انترض أهل السليمة العربية ونبت نباتة المؤلدين الذين أخذوا هذه اللغة من غير أمها لهم، فكانت لغتهم التي بها يتكلمون غير اللغة التي بها يكتبون، وهكذا أمكن أن يكون لكل منهم أسلوبان متبابنان، يتخل ب أحدهما إلى العامية الطبيعية ويقصد بالأخر إلى العربية المكسوبة، أما العربي الحق فإنه في عامة أمره ما كان يزيده التفكير والتقدير والرواية إلا استيعاباً لأطراف الحديث واستكمالاً لمقاصده، ولم يكن ذلك ليخرجه عن أسلوبه وطريقته ولغته الخاصة التي يألفها طبعه وتفپيس بها سجبيه وهي اللغة التي يحتذها أهل الفن منا بعد محاولة ومعالجة. ولئن كان فيهم قليل من يريد القول على غير سجبيه ويتعمل له ما ليس من عادته في كلامه، لقد كان هذا التكفل غير مخرج له عن حدود مذهبة جملة. بل كان يترك في غضون حديثه ما ينم عن روحه ومشريه. على أن الكلام بعد تلك المعاناة لم يكن ليزداد فصاحة وحسنًا. بل كان ينزل في هذا الباب بقدر ما يحسب الحاسب أنه يصعد فيه. ومن هنا كانت العرب تتمادح بالأمر يجيء طبعاً لا تكلفاً. ولم يكن النبي ﷺ في شيء

ضربياً وحده، ونرى الأسلوب النبوي، فنراه ضرباً وحده لا يجري مع القرآن في ميدان إلا كما تجري محلقات الطير في جو السماء لا تستطيع إليها صعوداً، ثم نرى أساليب الناس على اختلافها ضرباً واحداً لا تعلو عن سطح الأرض، فمنها ما يحبه حبواً، ومنها ما يشتد عدواً، ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه «السيارات» الأرضية إلى تلك «السيارات» السماوية!

نعم، لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوي فتطمع في اقتناصها ومجاراتها كما تطمع في اقتناص الطائر أو مجاراته؛ ولقد تقرأ الكلمة من الحكمة فيستبه عليك أمرها : أمن كلمات النبوة هي أم من كلمات الصحابة أو التابعين؟ ذلك على ما

= ما من المتكلفين، بل كان أشد الناس كراهة للتتكلف في الكلام وغيره. وكان يقول: «هلك المتنطعون» رواه مسلم وأبو داود. والتنطع في الكلام التعمق فيه والتفاصل. وانظر ذمه الرجل الهندي حين خاصم في دية الجنين فقال: يا رسول الله كيف أغرم دية من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل؟ فمثيل ذلك بطل، أي يهدى دمه. فقال رسول الله ﷺ: «إنما هذا من إخوان الكهان من أجل سجعه الذي سجع». رواه الشيخان وغيرهما. وفي رواية: «أسجع كسجع الأعراب»؟ وفي أخرى: أسعج الجاهلية وكهانتها؟ فذم هذا النوع من السجع وهو ما كان كسجع الكهان مصنوعاً غير مطبوع وكان المعنى فيه تابعاً لللفظ وليس اللفظ تابعاً للمعنى *.

* الأحاديث:

١- عن صفوان بن يعلى بن أمية، أن يعلى كان يقول لعمر بن الخطاب ﷺ: ليتني أرى النبي ﷺ حين ينزل عليه، فلما كان النبي ﷺ بالجعرانة، وعلى النبي ﷺ ثوب قد أظل به عليه، معه ناس من أصحابه، فيهم عمر، إذ جاءه رجل عليه جهة صوف، متضمخ بطيب، فقال: يا رسول الله، كف ترى في رجل أحرم بعمره في جهة بعدها تضمخ بطيب؟ فنظر إليه النبي ﷺ ساعة، ثم سكت، فجاءه الوحي، فأشار عمر بيده إلى يعلى بن أمية: تعال، فجاءه يعلى، فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محمر الوجه، يغط ساعته، ثم سري عنه، فقال: «أين الذي سألني عن العمرة آتقة؟» فالتمس الرجل، فجيء به، فقال النبي ﷺ: «أما الطيب الذي بك، فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها، ثم اصنع في عمرتك، ما تصنع في حبك»، رواه البخاري: (٤٩٨٥)، ومسلم: (١١٨٠).

٢- عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثة، رواه مسلم: (٢٦٧٠).

٣- عن أبي هريرة، قال: «اقتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما في بطنهما، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى رسول الله ﷺ أن دية جنبيها غرة عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها، وورثها ولدها ومن معهم، فقال حمل بن النابغة الهندي: يا رسول الله، كيف أغرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثيل ذلك يطل، فقال رسول الله ﷺ: «إنما هذا من إخوان الكهان، من أجل سجعه الذي سجع»، رواه البخاري: (٥٧٥٨)، ومسلم: (١٦٨١)، وفي رواية لمسلم: (١٦٨٢): «أسجع كسجع الأعراب؟».

علمت من امتياز الأسلوب النبوي بمزيد الفصاحة ونقاء الديباجة وإحكام السرد. ولكنه امتياز قد يدق على غير المنتهين في هذا الفن . وقد يقصر الذوق وحده عن إدراكه ، فيلجأ إلى النقل يستعينه في تمييز بعض الحديث المرفوع من الحديث الموقوف أو المقطوع^(١) .

أما الأسلوب القرآني فإنه يحمل طابعًا لا يلتبس معه بغيره ، ولا يجعل طامعًا يطمع أن يحوم حول حماه؛ بل يدع الأعناق ، تشرئب إليه ثم يردها ناكسة الأدقان على الصدور .

كل من يرى بعينين أو يسمع بأذنين إذا وضع القرآن بإزاء غير القرآن في كفتي ميزان ، ثم نظر بإحدى عينيه أو استمع بإحدى أذنيه إلى أسلوب القرآن ، وبالآخر إلى أسلوب الحديث النبوي وأساليب سائر الناس ، وكان قد رزق حظ ما من الحاسة البينية والذوق اللغوي فإنه لا محالة سيؤمن معنا بهذه الحقيقة الجليلة ، وهي أن أسلوب القرآن لا يدانه شيء من هذه الأساليب كلها ، ونحسب أنه بعد الإيمان بهذه الحقيقة لن يسعه إلا الإيمان بتاليتها .. استدلاً بصنعة «ليس كمثلها شيء» على صانع **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورى: ١١].

٦- فإن كان السائل من طلاب الحق كما وصفنا ، وانتهى من بحثه إلى حيث أشرنا ، فأبصر وسمع ، وقايس وزان ، وذاق ووجد ، فسوف يتقدم إلينا بكلمته الأخيرة قائلًا : نعم ثلت^(٢) كنانة الكلام بين يدي ، وعجمت سهامها فما وجدت كالقرآن أصلب عوداً ، ولقد وردت منهاهل القول وتذوقت طعومها فما وجدت كالقرآن أعدب مورداً . والآن آمنت أنه كما وصفتموه نسيج وحده ، وأنه يعلو وما يعلى ، وأنه يحطم ما تحته ، غير أنني وقد أدركت من قوة الأسلوب القرآني وحالاته ما أدركت -لم يزل الذي أحس به من ذلك معنى يتجمجم في الصدر لا أحسن تفسيره ولا أملك تعليله . وما زالت النفس بعد هذا وذاك نزاعة إلى

(١) لقب اصطلاح عليها علماء الرواية ، يعنون من المرفوع ما نسب إلى النبي ﷺ والموقوف ما نسب إلى الصحابة ، والمقطوع ما نسب إلى التابعين .

(٢) ثلت: استخرجت . (عمرو)

درس تلك الخصائص والمزايا التي استأثر القرآن بها عن سائر الكلام، وكان فيها سر إعجازه اللغوي. فهل من سبيل إلى عرض شيء من ذلك علينا لطمئن به قلوبنا، وننداد إيماناً إلى إيماننا؟

نقول: أما الآن فقد والله طلبت منا جسيماً، وكلفتنا مراماً بعيداً لمثله انتدب العلماء والأدباء من قبلنا وفي عصرنا، فحفيت من دونه أقلامهم، ولم يزيدوا إلا أن ضربوا له الأمثال، واعترفوا بأن ما خفي عليهم منه أكثر مما فطنوا له، وأن الذي وصفوه مما أدركوه أقل مما ضاقت به عباراتهم، ولم تقف به إشاراتهم.

ونحن، وقد أفضت إلينا النوبة من بعدهم، هل تحسب أننا سنسلك سبيلاً غير سبيلهم فننزعهم أننا في هذه العجالة سنبرز لك سر الإعجاز جملة؟ كلا، ولا استقراء ما كشفه الناس من جوانبه، كلا، ولا استقصاء ما نحسه نحن من تلك الجوانب. وإنما نريد أن نصور لك بعض تلك الخصائص التي تلاقينا من كتاب الله كلما سمعناه أو تلوناه وتدربرناه. لعلك واجد في القليل منها ما لا تجده في الكثير مما يعده الناس، فإن زادك الناس من ذلك أنواعاً رجونا أن نزيدك من النوع الواحد إقناعاً وانتفاعاً.



أول ما يفحوك:

أول ما يلاقيك ويستدعي انتباحك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه دراسة في الأسلوب القرائي الصوتي في شكله وجوهره.

الجمل الصوتي للقرآن ١- دع القارئ المجدود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه. ثم انتبذ منه مكاناً قصياً لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغناتها، واتصالاتها وسكتاتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جردت تجريداً وأرسلت ساذجة في الهواء. فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد، وجود هذا التجويد.

ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من سمعك ما تسترعه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر، وستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر. ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحدد الأوزان فيها بيتاً، وشطراً شطراً، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشبه أهواها وتذهب مذهبًا متقارباً. فلا يلبث سمعك أن يمجها، وطبعك أن يملها، إذا أعيدت وكررت عليك بتقيع واحد. بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متتنوع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل^(١) على أوضاع مختلفة، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملاحة ولا سأم. بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب. فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟

وترى الناس قد يتساءلون: لماذا كانت العرب إذا اختصمت في القرآن قارنت المقارنة بين القرآن والشعر بينه وبين الشعر نفيًا وإثباتًا، ولم تعرض لسائر كلامها من الخطابة وغيرها؟

وأنت، فهل تبيّن لها هنا الجواب، وهديت إلى السر الذي فطنت له العرب، ولم يفطن له المستعربون؟

إن أول شيء أحسنته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكن تقسيماً منوغاً يجدد نشاط السامع لسماعه، وزوّدت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط الذي يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس به آناً بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى، وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حد الإسراف في الاستهواء، ثم إلى حد الإملال في التكرير. فإنها ما كانت تعهدك قط ولا كان

(١) هل أنت بحاجة إلى معرفة مسميات هذه الألقاب؟ الحرف المتحرك يتلوه حرف ساكن يقال لهما: «سبب خفيف»، والحرفان المتحركان يتلوهما ساكن «وتد مجموع»، والحرفان المتحركان لا يتلوهما ساكن «سبب ثقيل»، والحرفان المتحركان يتلوهما ساكن «وتد مفروق»، وثلاثة أحرف متحركة يعقبها ساكن «فاصل صغير»، وأربعة أحرف متحركة يعقبها ساكن «فاصل كبير».

يتهيأ لها بتلك السهولة في متثور كلامها سواء منه المرسل والمسجوع؛ بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب تغض من سلاسة تركيبه، ولا يمكن معها إجاده ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه.

لا عجب إذاً أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا في الشعر. ولا عجب أن ترجع إلى نفسها، فتقول: ما هو بشعر؟ لأنه - كما قال الوليد^(١) - ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده. ثم لا عجب أن يجعل مرد هذه الحيرة أخيراً إلى أنه ضرب من السحر؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حد وسط، فكان له من التث جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتنته.

٢ - فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها؛ هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس ورابع يجهر، وأخر ينزلق عليه النفس، وأخر يحتبس عنده النفس. وهلم جرا، فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة^(٢) لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاؤة ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تنافر. وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البدائية وفخامتها برقة الحاضرة وسلامتها، وقد فيها الأمر تقديرًا لا يبغي بعضهما على بعض. فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلامتهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل، عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تتألف قلوبهم.

ومن هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني. وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من الآلى النفيسة، فإنه جلت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يغشى جلائل أسراره

(١) تقدمت كلمة الوليد في ذلك.

(٢) من وقف على صفات الحروف ومخارجها ازداد بهذه المعنى علمًا. وإن شئت فارجع إلى ما كتبه الأديب الرافعي عن هذه الناحية في كتابه الموسم «إعجاز القرآن» فقد أطال نفسه فيها وأجاد.

بأسترار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها. انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قوامًا لبقاء الإنسان فرداً وجماعة. فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم فقضت حكمته أن يختار لها صواناً يحبها إلى الناس بعذوبته، ويغريهم عليها بطلاقته، ويكون بمنزلة «الحداء» يستhort النفوس على السير إليها. ويهون عليها وعثاء السفر في طلب كمالها. لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل. ومن أجل ذلك سيقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وأذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره، وينفذون بها إلى بعيد غوره ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزة وغرابة؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من فقد والضياع؟

فتعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز، واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدلين، وأن ذلك الجمال ما كان ليكفي وحده في كف أيديهم عنه، بل كان أجرد أن يغريهم به. ذلك أن الناس -كما يقول الباقلاني^(١): إذا استحسنوا شيئاً اتبعوه، وتنافسوا في محاكاته بيااث الجبلة.

وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضاً فيما يستجيدونه من الأساليب، وربما أدرك اللاحق فيهم شاؤ السابق أو أربى عليه، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض.

وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلا منها هل مورودة، ومسالك معبدة، تؤخذ بالتعلم، وتراض الألسنة والأقلام عليها بالمرانة، كسائر الصناعات.

(١) في كتابه «إعجاز القرآن».

فما الذي منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألستهم وأقلامهم وهم شرع في استحسان طريقة، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته؟

ما ذاك إلا أن فيه منعة طبيعية كفت ولا تزال تكف أيديهم عنه، ولا ريب أن أول ما تلقيك هذه المخالفة فيما صورناه لك من غريب تأليفه في نيته، وما اتخذه في رصف حروفه وكلماته، وجمله وأياته، من نظام له سمت وحده، وطابع خاص به، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتبعاً عليه. فلا جرم لم يجدوا له مثلاً يحاذونه به، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تدليل منهجه، وأية ذلك أن أحداً لو حاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام الناس من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيين والمرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في فهم كل قارئ ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع، وإذا لنادي الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكبير خبث الحديد **وَإِنَّهُ لَكَتَبٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهُ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ** [فصلت: ٤١].



فإذا أنت لم يلهك جمال العطاء عمما تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة الأستار عمما وراءها من السر المصنون، بل فليت القشرة عن لها، وكشفت الصدفة عن درها، فنفذت من هذا النظام اللغظي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع.

لا نريد أن نحدثك هنا عن معاني القرآن وما حوطه من العلوم الخارجة عن متناول البشر، فإن لهذا الحديث موضعًا يجيء -إن شاء الله تعالى- في بحث «الإعجاز العلمي»^(١) وحديناكم ترى لا يزال في شأن «الإعجاز اللغوي» وإنما اللغة ألفاظ.

(١) تكلم الشيخ عن الإعجاز العلمي في كتابه: (مدخل إلى القرآن الكريم).

وخلاصة كلامه، أن الشيخ دراز لا ينكر وجود حقائق علمية في القرآن، ولكنه يتحفظ عن المبالغة فيها =

بيد أن هذه الألفاظ ينظر فيها تارة من حيث هي أبنية صوتية مادتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات من غير نظر إلى دلالتها. وهذه الناحية قد مضى لنا القول فيها آنفًا، وتارة من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها، وهذه هي الناحية التي سنعالجها الآن، ولا شك أنها هي أعظم الناحيتين أثرًا في الإعجاز اللغوي الذي نحن بصدده؛ إذ اللغات تتفاصل من حيث هي بيان؛ أكثر من تناقضها من حيث هي أجراس وأنغام.

أما النظر في المعاني القرآنية من جهة ما فيها من العلوم العجيبة فتلك خطوة أخرى ونظرة خارجة عن البحث اللغوي جملة؛ إذ الفضيلة البينية إنما تعتمد دقة التصوير وإجاده التعبير عن المعنى كما هو، سواء عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ما تتناوله عقول الناس أو لا يكون، بل سواء عندها أن يكون ذلك المعنى حقيقة أو خيالًا؛ وأن يكون هدىً أو ضللاً^(١)؛ عكس الفضيلة العلمية، فإنها عائدة إلى المعنى في نفسه على أي صورة أخرجته، وبأي لغة عبرت عنه.

نعم، قد تتفاوت اللغات في الوفاء بحق المعنى، فيكون التعبير الجيد مما يزيد في قيمته العلمية، لكن النظر لها هنا في قيمة البيان لا في قيمة المبين فلا تعجل علينا بتلك النظرة العلمية حتى نفرغ من هذه النظرة اللغوية.

= والتعويل عليها بشدة إلا لغرض أنها تذكّر بالخلق، فنجد في قوله: «القرآن في دعوته إلى الإيمان والفضيلة، لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة، ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة - لا بغرض دراستها وفهمها في ذاتها فحسب - وإنما لأنها تذكر بالخلق الحكيم القدير»، ثم يقول: «دفع الحماس بعض المفسرين المحدثين إلى المبالغة في استخدام هذه الطريقة التوفيقية لصالح القرآن، بحيث أصبحت خطرا على الإيمان ذاته؛ لأنها إما أن تقلل من الاعتماد على معنى النص باستنطاقه ما لا تتحمله ألفاظه وجمله، وإما أن تُؤَوِّل أكثر مما يجب على آراء العلماء وحتى على افتراضاتهم المتناقضة أو التي يصعب التتحقق من صحتها، وبعد أن نستبعد هذه المبالغات عن البحث، نرى أن من مقتضيات الإيمان التي لا غنى عنها أن نضاهي الحقائق الفورية التي نجدها في القرآن مع نتائج العلماء المنهجية البطئية». وانظر: منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية، لسعود العريفي، ط. مركز تكوين. (عمرو)

(١) ولذلك كانت حكايات القرآن لأقوال المبطلين لا تقتصر في بلاغتها عن سائر كلامه؛ لأنها تصف ما في أنفسهم على أتم وجه.

- والآن فلنبدأ وصفنا لبعض خصائص القرآن البيانية، ولنرتبها على أربع مراتب:
- ١- القرآن في قطعة قطعة^(١) منه.
 - ٢- القرآن في سورة سورة منه.
 - ٣- القرآن فيما بين بعض السور وبعض.
 - ٤- القرآن في جملته.

(١) نريد منها ما يؤدي معنى تماماً، كالذى يؤدى عادة في بضع آيات. وقد يؤدى في آية طويلة، أو سورة قصيرة. وهو الحد الأدنى الذي تنزل إليه التحدي أخيراً إذ قال: ﴿قَاتُلُوا إِسْرَافِيلَ﴾ ولم يقل بسورة من طواله أو أوساطه، بل أطلق إطلاقاً، فتناول ذلك سور المفصل الذي كان قد نزل أكثره بمكة - قبل أن ينزل هذا التحدي الأخير - حتى سورة العصر والكوثر.

وبعض الناس -كذا نقله الألوسي في مقدمة كتابه روح المعاني عن قائل مجھول- يذهب إلى أن التحدي لم يقع بمطلق سورة، بل بسورة «تبلغ مبلغاً يتبيّن فيه رتب ذوي البلاغة» كأنه رأى أن هذه الرتب لا تبيّن في مقدار ثلات آيات مثلاً. وهذا وإن لم يكن قادحاً في إعجاز القرآن، ولا مطلقاً لحجته «إذ يكفي ثبوت إعجازه، ولو في قدر سورة البقرة، أو سورة يونس، أو سورة هود، أو سورة الإسراء، أو سورة الطور. وهي السور التي ورد فيها ذكر التحدي» إلا أنها نحسب أن صاحب هذا القول حين ذهب إليه إنما ظن ظناً لم يستيقنه، واستبعد استعداداً أن تكون هذه السور القصار معجزة في بيانها؛ لأنه لم يدرك غرابة في نظمها، فلم يفهـم سر هذا الإعجاز فيها. ولكن هلا جعل ذلك حجة على قلة بضاعته في هذه الصناعة، ولم يجعل جهله بقيمتها حجة على عدم إعجازه.

فالنجم تستنصر الأ بصار رؤيـته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

وهلا فكر أن العرب الذين قامت الحجـة بعجزـهم قد استوت قدرـتهم أمام طـوالـه وقصـارـه فـلم يعارضـوا هـذه ولا تـلكـ، فـهـذا وـحدـه حـاسـم لـشـيـهـتهـ إنـ كـانـ يـكـفـيهـ الـبرـهـانـ، فـإـنـ أـرـادـ الـعيـانـ قـيلـ لـهـ: اـعـمـدـ إـلـىـ واحدةـ منـ تـلـكـ السـورـ فـحـصـلـ مـعـانـيـهـ فـيـ نـفـسـكـ، شـمـ جـيـءـ لـهـ بـكـلامـ مـنـ عـنـدـكـ، فـسـوـفـ تـرـىـ أـنـ بـينـ أـمـرـيـنـ: إـمـاـ أـلـاـ تـؤـيـهـاـ عـلـىـ وـجـهـهاـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الـقـدـرـ وـبـمـثـلـ هـذـاـ النـظـمـ، إـمـاـ أـنـ تـعـيـدـ عـيـنـ الـفـاظـهاـ. لـاـ ثـالـثـ. وـحـيـنـذـاكـ تـبـيـنـ أـنـ سـرـ الـإـعـجازـ فـيـ التـصـيـرـ مـنـ سـورـ الـقـرـآنـ مـثـلـهـ فـيـ الـطـوـيلـ، كـمـاـ أـنـ سـرـ الـإـعـجازـ فـيـ خـلـقـ النـمـلـةـ مـثـلـهـ فـيـ خـلـقـ الـفـيلـ. عـرـفـ ذـلـكـ مـنـ عـرـفـهـ، وـجـهـهـ مـنـ جـهـهـ. قـالـ اـبـنـ عـطـيةـ تـكـلـلـهـ: وـنـحـنـ تـبـيـنـ لـنـاـ الـبـرـاعـةـ فـيـ أـكـثـرـهـ وـيـخـفـيـ عـلـيـنـاـ وـجـهـهـاـ فـيـ مـوـاضـعـ، لـقـصـورـنـاـ عـنـ رـتـبةـ الـعـربـ يـوـمـئـذـ فـيـ سـلـامـةـ الـذـوقـ وـجـوـدـةـ الـقـرـيـحةـ. وـقـدـ قـامـتـ الـحـجـةـ عـلـىـ الـعـالـمـ بـالـعـرـبـ، لـأـنـهـاـمـهـ إـلـىـ غـاـيـةـ الـفـصـاحـةـ الـبـشـرـيـةـ» اـهـ. عـنـ الـاتـقـانـ؛ تـقـوـلـ: وـمـنـ سـارـ عـلـىـ الدـرـبـ وـصـلـ، فـإـنـ لـمـ يـدـرـكـ كـلـ مـاـ تـمـنـىـ دـلـهـ مـاـ عـلـمـ عـلـىـ مـاـ جـهـلـ. وـالـلـهـ الـمـسـتـعـانـ.

[١]

«القرآن في قطعة قطعة منه»

لستا ندري والله ماذا نقول لك في أسلوب معجز في وصفه، كما هو معجز أسلوب القرآن
في نفسه؟ غير أننا نقول كلمة هي جملة القول فيه، وهي أنه «تلتقى عنده نهايات
تلتقى عنده تلتقى عنده نهايات الفضيلة كلها على تباعد ما بين أطرافها». نهايات الفضيلة كلها، على تباعد ما بين أطرافها.

هذه الكلمة تحتاج تفسيراً طويلاً يمتدّ به الصدر ولا ينطلق به اللسان، وكل ما أطرافها ستحاوله أن نفسر لك جانباً منها بقدر الطاقة، غير أننا قبل أن نحدثك في هذا الجانب عن القرآن ستحاوله أن تكلم الناس حديثاً يفهمه كل من عالج صنعة البيان بنفسه، لتعرف من وجوه النقص ها هنا وجوه الكمال هناك، ومن أبواب العجز ها هنا أسباب الإعجاز هناك:

(أ - ب)

«القصد في اللفظ» و«الوفاء بحق المعنى»

نهايات كل من حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين ضرتيين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى إحداهما:

فالذى يعمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً، ذلك أنه إما أن يؤدي لك مراده جملة لا تفصيلاً، فيكون سبيله سبيلاً من يقول في باب المحاجة: «صدقوا، أو كذبوا» وفي باب الوصف «حسن، أو قبيح» وفي باب الإخبار: «كان أو لم يكن» وفي

باب الطلب: «افعل، أو لا تفعل» لا زائد على ذلك. وإنما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل، ولكنه إذ يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف يبذل جهده في ضم أطرافه وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق، ووسائل التقرير والتثبيت، وما إلى ذلك مما تمس إليه حاجة النفس في البيان، حتى يخرجه ثواباً متقلصاً يقصر عن غايته، أو هيكلًا من العظم لا يكسوه لحم ولا عصب، ورب حرف واحد ينقص من الكلام يذهب بمامئه ورونقه، ويكشف شمس فصاحته، ورب اختصار يطوي الكلام طيّاً يزهق روحه ويعمي طريقه؛ ويرد إيجازه عيّاً وإلغاراً.

والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره؛ وإبراز كل دقائقه «بقدر ما يحيط به علمه وما يؤديه إليه إلهامه» لا يجد له بدًّا من أن يمد في نفسه مبدأ؛ لأنَّه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة. فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك لا يلبث أن يباعد ما بين أطراف كلامه، ويبطئ بك في الوصول إلى غايته، فتحس بقوة نشاطك وباعثة إقبالك آخذتين في التضاؤل والاضمحلال.

عامة من نعرفهم من الفصحاء - قدامي ومحدثين - يؤمنون من هذا الجانب غالباً، أعني جانب الإملال والإسراف، لا جانب الإخلاص والإجحاف. وأكثرهم تجمح بهم شهوة البيان إلى أبعد من هذا الحد، فمنهم من يذهب إلى التتكلف والتفضح باستعمال الغريب من المفردات والتركيب، فيكلفك أن تبدي وتعيد وتقبل وتدبِّر حتى تهتدِّي إلى وجه مراده، وهكذا لا يزداد كلامه بالبساط إلا ضيقاً عن الفهم. ومنهم من يُلقي حول المعنى ركاماً من الحشو والفضول ينوء بحمله، أو يلبيسه ثواباً فضفاضاً من المترافق والمتقارب يتعرّض في أذياله. يحسب أنه يوافي لك المعنى ويحدده، وفي الحق إنما ينشره ويبده. ولعل أمثل هؤلاء طريقة من لو حذفت شطر كلامه لأغناك عنه ثانٍ شطريه.

ذلك على أن البلغاء مهما أوجفوا من ركابهم، ومهما أجلبوا بخيالهم ورجلهم لا يبلغ الواحد منهم بعمله غاية أمله، وإنما يصل كما قلنا إلى كمال نسبي «بقدر ما يحيط به علمه، وما يؤديه إليه إلهامه في الحال» أما الوفاء بالمعنى حق وفائه

بحيث لا يخطئه عنصر منه ولا حلية من حلاه ولا ينضاف إليه عرض غريب عنه يعد رقعة في ثوبه، ولا ينقلب فيه وضع من أوضاعه يغض من حسن تقويمه، وبحيث لا سبيل فيه إلى نقض أو اقتراح جديد؛ فذلك أمر لا يستطيع أن ينتحله رجل اكتوى ب النار البيان، فضلاً عن أن ينحله ل إنسان غيره.

وآية ذلك أنك تراه حين تعقب كلام نفسه في الفينة بعد الفينة يجد فيه زائداً يمحوه، وناقصاً يثبته؛ ويجد فيه ما يهذب ويبدل، وما يقدم أو يؤخر، حتى يسلك سبيله إلى النفس سوياً. ولعله لو رجع إليه سبعين^(١) مرة لكان له في كل مرة نظرة. وكلما كان أنفذ بصرًا وأدق حسًا، كان أقل من ذلك قناعة وأبعد همًا؛ إذ يرى وراء جهده غاية هي المثل الأعلى الذي يطمح إليه ولا يطاوعه، والكمال البياني الذي يتعلق به خياله ولا يناله ﴿كَبِسْطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَتَغُرَّبَ فَأَهْ وَمَا هُوَ بِلَغَهُ﴾ [الرعد: ١٤].

هذا حظ الكلام البليغ عند قائله، فما ظنك بناقديه ومناسبيه؟

هذا؛ وهو إنما يعمد إلى غاية واحدة، فكيف لو عمد معها إلى الغاية الأخرى، وحاول أن يضع هذه الثروة المعنوية في لفظ قاصد؟ وأنى يكون له ذلك وهو سجين هذه الفطرة الإنسانية التي لا تقرب به من أحد طرفي الطريق إلا بمقدار ما تبعد به عن الطرف الآخر؟

ولئن ظفرت بأحد وُفق لتقرير تينك الغايتين إلى حد ما في جملة أو جملتين، فترخيص به كيف يكون أمره بعد ذلك. وانظر كيف يدركه الكلام والإعياء وفترة

(١) كما يروي عن زهير في تهذيب قصائده التي كان يسميها «الحوليات» *.

* يقول الجاحظ: «ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً، وزماناً طويلاً، يردد فيها نظره، ويجلب فيها عقله، ويقلب فيها رأيه، اتهاماً لعقله، وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله، زماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، إشقاقاً على أدبه، وإحرزاً لما خوله الله تعالى من نعمته. وكانتوا يسمون تلك القصائد: الحوليات، والمقلدات، والمنفحات، والمحكمات، ليصير قائلها فحلاً خنزيراً، وشاعراً مفلقاً»، البيان: (٢/٨).

ويقول ابن حجة: «وكان زهير بن أبي سلمى معروفاً بالتنقيح والتهذيب، وله قصائد تعرف بالحوليات، قيل: إنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر، ويهذبها وينقحها في أربعة أشهر، ويعرضها على علماء قبيلته في أربعة أشهر. ويروى، أنه كان يعمل القصيدة في شهر وينقحها ويهذبها في أحد عشر شهراً. ولا جرم أنه قلماً يسقط منه شيء»، خزانة الأدب: (٢/٣١). (عمرو)

الطبع الإنساني فينحل من عقدة كلامه ما كان وثيقاً، ويذبل من زهرته ما كان غصاً طرياً، ثم لا يعود إلى قوته إلا في شيء بعد شيء، كما تصادف في التراب قطعة من التبر ها هنا وقطعة هناك. فنقول: هذا نفيس جيد، وهذا أنفس وأجود، وهذا هو واسطة العقد وبيت القصيد.

سل العلماء بنقد الشعر والكلام: «هلرأيتم قصيدة أو رسالة كلها أو جلها معنى ناصعاً، ولفظاً جاماً، ونظمًا رائعاً»، لقد أجمعوا كل ملتهم على أن أربع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة، من قصائد معدودة، وكان لهم من وراء ذلك المتوسط والرديء، والغث والمستكره، وكذلك قالوا في الكتاب والخطباء، والأمر فيهم أبين.

فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان على تماهمما بغير فترة ولا انقطاع، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم، تجد بياناً قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمحمية التقثير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية: «نقية» لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، «وفية» لا يشد عنها شيء من عناصرها الأصلية ولو احتجتها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاذه. ففي كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كل حرف منه جزء بقدرها، وفي أوضاع كلماته من جمله، وأوضاع جمله من آياته سر الحياة الذي يتنظم المعنى بأدائه.

وبالجملة ترى - كما يقول الباقلاني: «محاسن متواالية^(١)، وبداع ترا».

ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعد ما أحصته كفك من الكلمات عدداً، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً^(٢) عن الدفتين، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك. ثم انظر: كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من هذا الكلام دون إخلال بعرض قائله؟ وأية كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها

(١) أصل الكلمة «متوالى» هكذا في كتاب إعجاز القرآن للباقلاني، ولكننا نقلناها بالمعنى، ولم ننقلها قصدًا لإصلاح خطأ مشهور بين المبتدئين، إذ يظنون كلمة «ترا» فعلاً مضارعاً، وإنما هي اسم منصوب أصله وتراء، أي متتابعاً، ولا يخفى أن جعل القرينة الأولى فعلاً مضارعاً من شأنه أن يقرر هذا الوهم في نفس الطالب؛ فتأثرنا تعديلها على هذا الوجه مع التنبيه على ذلك.

(٢) وكلام النبي ﷺ وإن كان - لما أشربه من روح الوحي - أوجز وأفصح كلام تكلم به الناس، لا يبلغ في وجازته واقتائه بتلك الثروة المعنية معاشر ما تجده من ذلك في القرآن الكريم.

هناك؟ فكتاب الله تعالى -كما يقول ابن عطية: «لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم توجد»^(١) بل هو كما وصفه الله ﷺ كتب أخْرَكَتْ مَا يَنْهَا ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ [هود: ١]^(٣).

(ج - د)

«خطاب العامة» و«خطاب الخاصة»

وهاتان غايتان آخريان متباعدتان عند الناس، ولو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوىً لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك -إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك- أن تخاطب كل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرى؛ كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فاما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقه والملوك فيراها كل منهم مقدرة على مقاييس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم. فهو قرآن واحد يراه البلوغ أو في كلام بطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أيهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة

(١) عن الإتقان.

(٢) يقول ابن عطية: «والصحيح أن الإيتان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينتفعها حولا كاملاً، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامدة فيبدل فيها وينتفع ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، كتاب الله لو نزعت منه لفظة شم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة النطق ووحدة القريحة ومن الكلام»، المحرر، المحقق: (٥٢/١). (عمرو)

(٣) وأنت فأنعم النظر في هذه الآية الكريمة تجدها قد جمعت كل ما بسطناه في هذا الفصل بكلماتي «الإحکام» و«التفصیل» وأی إحکام وتفصیل؟ إحکام من «حکیم» متقن لا خلل في صناعته، وتفصیل من «خبیر» عالم بدقائق الأمور وتفاصیلها على ما هي، عليه.

والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد ﴿وَلَقَدْ يَسَّرَنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

(ه - و)

«إقناع العقل» و«إمتناع العاطفة»

وفي النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجдан، وحاجة كل واحدة منهمما غير حاجة أحدهما. فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفى لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً.

فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس؟

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلواً في جانب، وقصوراً في جانب.

«فَإِنَّمَا» الحكماء «يُؤْدُونَ إِلَيْكُمْ ثِمَارَ عُقُولِهِمْ غَذَاءً لِعُقُولِكُمْ». ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواه نفسك واحتلال عاطفتك. فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفاف وعربي ونبو عن الطابع.

«وَأَمَّا» الشعراء فإنما يسعون إلى استشارة وجدانك، وتحريك أوتار الشعور من نفسك، فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غياً أو رشدًا؛ وأن يكون حقيقة أو تخيلة. فتراهم جادين وهم هازلون، يستبكون وإن كانوا لا يبكون، ويُطربون وإن كانوا لا يطربون ﴿وَالشَّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَافُونَ﴾ [٢٢٤] ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] وما بعدها.

وكل امرئ حين يفكر فإنما هو فيلسوف صغير. وكل امرئ حين يحس ويشعر فإنما هو شاعر صغير، فسل علماء النفس: «هلرأيتم أحداً تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائل القوى النفسية على سواء؟ ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس فهل ترونها تعمل في النفس دفعة ونسبة واحدة؟» يجيبوك بلسان واحدة: «كلا، بل لا تعمل إلا مناوبة في حال بعد حال، وكلما

تسلطت واحدة منهن أضمرحت الأخرى وكاد ينمحى أثرها . فالذى ينهمك فى التفكير تتناقص قوته وجداهه ، والذى يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره ، وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى هاتين الغايتين قصداً واحداً ، وإلا ل كانت مقبلة مدبرة معًا . وصدق الله : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب : ٤] . فكيف تطمع من إنسان في أن يهرب لك هاتين الطلبتين على سواء ، وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء؟ وما كلام المتكلم إلا صورة الحال الغالبة عليه من بين تلك الأحوال .

هذا مقياس تستطيع أن تتبيّن به في كل لسان وقلم أي القوتين كان خاضعاً لها حين قال أو كتب : «إذا» رأيته يتوجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلت : هذا ثمرة الفكر . «وإذا» رأيته يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيتها ، وقبضها أو بسطها ، واستشارة كوامن لذتها أو ألمها ، قلت : هذا ثمرة العاطفة . «وإذا» رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرغ له بعد ما قضى وطره من سابقه ، كما ينتقل من غرض إلى غرض ، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه .

وأما أن أسلوبياً واحداً يتوجه اتجاهًا واحدًا ويجمع في يديك هذين الطرفين معًا ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معًا ، أو كما يسري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر ، فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر ، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية .

فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعتمدين . ومن المتعنة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين؟

ذلك الله رب العالمين ، فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن . وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معًا بلسان . وأن يمزج الحق والجمال معًا يلتقيان ولا يبغيان . وأن يخرج من بينهما شرابة خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت ؛ ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره^(١) لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة؟

(١) اقرأ مثلاً سورة القصص وسورة يوسف ﴿سِرْكَبِنَى﴾ .

أو لا تراه في معمعة براهينه^(١) وأحكامه^(٢) لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق، وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيز، وتبكيت وتأنيب؟ بيث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها ﴿فَقَسَرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَحْشُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، ﴿إِنَّمَا لَقُولُ فَصْلٍ﴾ ^(٣) [وما هو بالمنز]

(ز - ح)

«البيان» و«الإجمال»

وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن ولا تجدها فيما سواه. ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل. وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس. أو إلى اللغو الذي لا يفيد. ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد.

وتقرأ القطعة من القرآن فنجد في ألفاظها من الشفوف، والملasse والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يت سابق به مغزاها إلى نفسها دون كد خاطر ولا استعادة حديث. كأنك لا تسمع كلاماً ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة. وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبراً ووقفت على معناه محدوداً؛ هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيك منه بإزاء معنى جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول

(١) اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيمَا ءَاهَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَنَا فَسَبَحَنَ اللَّهَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وانظر كيف اجتمع الاستدلال والتهويل والاستعظام في هذه الكلمات القليلة. بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات اليقينية ووضوح المقدمات المسلمة ودقة التصوير لما يعقب التنازع من «الفساد» الريء. فهو برهاني خطابي عاطفي معاً. هل تجد مثل هذا في كتاب من كتب الحكمة النظرية؟

(٢) اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُنُّكُمْ أَقْصَاصُ فِي الْأَرْضِ يُلْمُرُ وَالْعَبْدُ يُلْمُرُ وَالْأُنْثَى يُلْمُرُ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخْيَهُ شَيْءٌ فَإِنَّمَا يُعَوَّفُ وَآدَمُ إِلَيْهِ يُاخْسِنُ ذَلِكَ تَحْقِيقٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] وانظر الاستدراج إلى الطاعة في افتتاح الآية بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وترقيق العاطفة بين الوارتين والموتورين في قوله: ﴿أَخْيُهُ﴾ وقوله: ﴿بَالْمَعْوَفِ﴾ وقوله: ﴿يُلْمُرُ﴾، والامتنان في قوله: ﴿تَحْقِيقٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ والتهديد في ختام الآية. ثم انظر في أي شأن يتكلم؟ أليس في فريضة مفصلة وفي مسألة دموية؟ وتتبع هذا المعنى في سائر آيات الأحكام حتى أحكام الإلاء والظهور، فنفي أي كتاب من كتب التشريع تجد مثل هذا الروح؟ بل في أي لسان تجد هذا المزاج العجيب؟ تالله لو أن أحداً حاول أن يجمع في بيانه بين هذين الطرفين ففرق همه وزوع أجزاء نفسه، لجاء بالأضداد المتناففة ولخرج بثوب بيانه رقعاً ممزعة.

مرة، وكذلك .. حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة^(١) وجوهاً عدّة. كلها صحيح أو محتمل للصحة، كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعاً، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدرى ماذا تأخذ عينك وماذا تدع. ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأي منها أكثر مما رأيت. وهكذا نجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان يأخذ كل منه ما يسر له؛ بل ترى محيطاً متراصياً للأطراف لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال.

ألم تر كيف وسع الفرق الإسلامية على اختلاف منازعها في الأصول والفروع؟ وكيف وسع الآراء العلمية على اختلاف وسائلها في القديم والحديث؟ وهو على لينه للعقول والأفهام صلب متين. لا يتناقض ولا يتبدل. يحتاج به كل فريق لرأيه، ويدعوه لنفسه، وهو في سموه فوق الجميع يطل على معاركم حوله، وكان لسان حاله يقول لهؤلاء وهؤلاء: ﴿كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرِئِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَيِّلَا﴾ [الإسراء: ٨٤]^(٢).

(١) هذا مثل صغير: اقرأ قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٣١٢]. وانظر هل ترى كلاماً أبین من هذا في عقول الناس. ثم انظر كم في هذه الكلمة من مرونة. فإنك لو قلت في معناها: إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسبة يحاسبه، ولا سائل يسأله لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ويقدره على هؤلاء، أصبحت. ولو قلت: إنه يرزق بغير تقدير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاذ، أصبحت. ولو قلت: إنه يرزق من يشاء من حيث لا يتظاهر، ولا يحتسب، أصبحت. ولو قلت: إنه يرزق بغير معاتبة ومناقشة له على عمله، أصبحت، ولو قلت: يرزقه رزقاً كثيراً لا يدخل تحت حصر وحساب، أصبحت. فعلى الأول يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأرزاق في الدنيا وأن نظامها لا يجري على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله، بل تجري وفقاً لميشيته وحكمته سبحانه في الابتلاء، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين، ومن الهضم لنفوس المغورين من المترفين. وعلى الثاني يكون تنبيئاً على سعة خزاناته وبساطة يده جل شأنه. وعلى الثالث يكون تلويناً للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر حتى يبدل عسرهم يسراً وفقرهم غنى من حيث لا يظنو. وعلى الرابع والخامس يكون وعداً للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب. وإما بمضاعفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرها العدد. ومن وقف على علم التأويل واطلع على معرك أفهام العلماء في آية رأى من ذلك العجب العاجب.

(٢) يقول د. ياسر المطرفي ما ملخصه: «بين الله تعالى طبيعة علاقة الإنسان بالقرآن، وهي علاقة التدبر، يقول الله -تعالى-: ﴿كَتَبَ اللَّهُ أَنْذِلَتْهُ إِلَيْكُمْ مُّكَرَّرًا لَّيَبَرُّوا مَا يَتَّهِمُونَ، وَلَيَذَكَّرَ أُولُو الْأَيْنِ﴾ [سورة ص: ٢٩]، فهو هنا يبين أن وظيفة تنزيل القرآن على البشر، هو تدبر آياته. والتدبر مرحلة بعد مرحلة الفهم، وبالتالي فهو مطالب بالفهم أولاً ثم بالتدبر ثانياً.

لكن هذه الوظيفة وهي التدبر والسعى نحو الوصول إلى هدایاته هي وظيفة (ابتلائية)، ففي سبيل الوصول إلى مقصود (الهداية) ثمة مقصود آخر وهو (الابتلاء)، وبعد أن ذكر الله - سبحانه - تزيله للقرآن بالحق في قوله: ﴿وَأَرْتَنَا إِلَيْكَ الْكِتَبَ بِالْحَقِّ﴾ - ذكر أنه مع تزيله لهذا الكتاب لم يشاً أن يجعل الناس أمة واحدة، بل سيختلفون وهذا من الابتلاء لهم، فقال في نفس الآية: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَجَاهَةً وَلَكُنْ لَيَتَبَوَّأُمُّمٌ فِي مَا ءَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

إنَّ وظيفة تأويل النص هي وظيفة (ابتلائية)، وتحدِّ كثير يخوضه القارئ أمام النص، ويزداد هذا التحدي من خلال معرفة تركيبة الإنسان الجدلية، التي يذكرها الله بعد ذكره لبيان القرآن، فيقول: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنَ إِلَيْكُمْ مِّنْ كُلِّ مَلِكٍ وَكَانَ إِلَّا نَسْكُنَ أَكْثَرَهُ شَيْءًا جَلَّ﴾ [الكهف: ٥٤].

فإن الله - سبحانه - مع وصفه القرآن بأنه مفصل ومبين يذكر أنه مع هذا التفصيل فإن من طبيعة الإنسان (وهو القارئ) الجدل، فمع وضوح بيان النص وتفصيله، إلَّا أَنْ قارئه جدلي في طبعه، وهذه الطبيعة ستؤثر دونما شك في طبيعة تعاطيه مع النص.

بل إنَّ الطبيعة الجدلية ربما قادته للجدل بدون برهان وعلم، مما يعني أن القضية ترجع إلى عامل نفسي هو تكبر الإنسان أحيانًا أمام الحقيقة البينة الواضحة، يقول الله - سبحانه - في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحْدِثُونَ فِي أَيْكَتَ اللَّهَ بِعَيْرِ سُلْطَنٍ أَنَّهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كَيْرٌ مَا هُمْ بِكَلِيفُونَ﴾ [غافر: ٥٦].

إنَّ التحدي الأكبر أمام النص القرآني ليس من النص ذاته وإنما من قارئه.

وكما يقول ابن تيمية: «وكلام الله ورسوله وكلام العلماء مملوءٌ بما يفهمُ الناس منه معنى فاسدًا»؛ فكان العيب في فهم الفاهم لا في كلام المتكلم الذي يخاطب جنس الناس» «تخصيص كتاب الاستغاثة»، ٦١٥/٢).

ولذلك؛ فإنَّ الله - سبحانه - لَمَّا ذكر معوقات تدبر القرآن حصرهما في أمرين: أحدهما يعود على النص والآخر راجع إلى القارئ.

يقول الله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ أَخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وفي الآية الأخرى يقول - سبحانه -: ﴿فَلَمَّا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْرٌ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفَعَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ففي الآية الأولى: أرجع عائق التدبر إلى طبيعة النص، وهو: وجود الاختلاف فيه، فبراً النص من وجود الاختلاف الذي يحول دون التدبر.

وفي الآية الثانية: أرجع عائق التدبر إلى طبيعة القارئ، الذي كأنما أغلق قلبه بفعل موانع تمنعه من التدبر.

فالله - سبحانه - نفى العائق الأول الذي يعود إلى النص، وأثبت العائق الثاني الذي يعود إلى قارئه.

إذا فالقارئ أمام وظيفة (الابتلاء) في فهم النص، وفي ظل ذلك يمكن أن نفهم سبب وجود المحكم والمتشابه في القرآن.

فالله - سبحانه - عندما ذكر اشتغال كتابه على المحكم والمتشابه في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْلَكَ عَلَيْكَ الْكِتَبَ مِنْهُ مَا يَكُنْتُ تَحْكَمُتْ هُنَّ أُمُّ الْكِتَبِ وَأُخْرُ مُتَشَبِّهَتِهِنَّ﴾ [آل عمران: ٧] - بين أن ما يحصل من الإشكال في التعامل مع هذا المحكم والمتشابه هو من هوى القارئ وهو ما عبر عنه بـ(الزيغ)، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْلَكَ عَلَيْكَ الْكِتَبَ مِنْهُ مَا يَكُنْتُ تَحْكَمُتْ هُنَّ أُمُّ الْكِتَبِ وَأُخْرُ مُتَشَبِّهَتِهِنَّ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَعَمَّدُونَ مَا تَشَبَّهُ مِنْهُ أَبْتِغَاهُ الْقُشْشَةَ وَأَبْتِغَاهُ تَأْوِيلَهُ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

ها نحن أولاء قد عرضنا لك جانباً من تلك العجائب البينية التي لا تزال مثالاً على أيدي الناس. وها قد أعطيناك في حاشية كل منها نموذجاً صغيراً، يفتح لك الباب إلى احتجائه فيسائر القرآن. فهل ترى في هذا وفاءً بما وعدناك، وبما عودناك، من التقافية على آثار التفصيل بشيء من التطبيق والتمثيل؟ أم لا تزال بحاجة إلى المزيد من هذه الأمثلة؟!

سنزيدك. وسنوجه نظرك بنوع خاص إلى دقة التعبير القرآني ومتانة نظمه. وعجب تصرفه، حتى يؤدي لك المعنى الوافر الشري، فيالله القاصد النقي،

= ويلاحظ في تعبير القرآن أنه عَبَرَ بـ «فِي فُلُوْبِمَ زَيْعٌ»، ولم يقل «في عقولهم» إشارة منه إلى أنَّ هوَ القارئ هو الذي يتحكم في عقليه لينحرف في تأويل النص من اعتماد (المحكم) إلى اعتماد (المتشابه). إنَّ العقل الذي هو أداة التأمل في النص، لكنَّها أداة عندما تتأثر بالهوى يحصل لها الزيف والاتحراف عن طريق الوصول إلى المعنى الصحيح.

والنزعية (العقائدية) قد تتحول إلى هوىٍ في بينما يحسب القارئ أنه يفسر النص من أجل الوصول إلى هدایته؛ إذا به يُفسره من أجل الوصول إلى نصرة مذهبة ومعتقده.

والرازي يرجع حكمة وجود المحكم والمتشابه إلى (الهداية)، فهو يذهب إلى عكس ما يتبارى إلى الأذهان من أن وجود المحكم والمتشابه سيؤدي إلى عدم الاهتمام لحقائق النص = فيرى أن التنوع ما بين المحكم والمتشابه سيقود الفرق المختلفة إلى الوصول لهداية الحق؛ فإنَّ التدافع العقائدي حول النص القرآني سيدعو تلك الطوائف في نهاية المطاف إلى التفتيش داخل النص لتوسيع مقولاتها، حتى إذا ما استغرقت فيه قادها النص إلى هدایاته، يقول في توضيح هذه الفكرة: «لو كان القرآن كله محكمًا لما كان مطابقًا إلا لمذهب واحد، وذلك مما يُنَفِّرُ أرباب المذاهب المخالفة له، ويُبعِدُهم عن النظر فيه، ولذلك اشتمل القرآن على المحكم والمتشابه، فيطبع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوى مذهبة، فإذا نظروا وبالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرةً للمتشابهات، وبهذا الطريق يتخلص المُبِطَّلُ عن باطله، ويصل إلى الحق».

و هذا الذي يصفه قد يحصل من جهة أخرى، فربما يريد المستدل جمع الأدلة التي تدل على مقولاته العقائدية، فيجد أنَّ النص لا يدل عليها، بل يدل على عكسها، فيقوده ذلك إلى تغيير تلك القناعة واستبدالها بقناعة أخرى يجدها من خلال استقراء النص.

لكنَّنا نذهب إلى أنَّ حكمة تنوع آيات القرآن ما بين المحكم والمتشابه هي من (ابتلائية) الله في التعامل مع النص.

لكن هذا الابتلاء ليس مجردًا عن الأسباب التي تساعده على تجاوزه، بل إنَّ الله - سبحانه - ضمَّن في داخل النص من التدابير ما يساعد على النجاح في تجاوزه، انتهى كلامه، وقد أظهر في البحث ما يعين على تجاوز ابتلائية الفهم، والوصول للفهم الحق، فانظره فإنه نفيس جدًا، العقائدية، ياسر المطرفي: (٦٩٥)، وما بعدها.

إذ كانت هذه الخاصة الأولى - من الخواص التي ذكرناها - أحوج إلى التوقيف والإرشاد.

ولا تحسين أننا سننضرب لك الأمثال بتلك الآيات الكريمة التي وقع اختيار الناس عليها وتوصفو الإعجاب بها. كقوله تعالى : ﴿وَقَدْ يَتَأَرُّضُ الْجَعْلُ مَاءِكَ﴾ ... [هود: ٤٤] الآية^(١) ، قوله : ﴿وَلَكُمْ فِي الْفِصَاصِ حَيَّةٌ يَتَأْوِي إِلَّا لَبَّبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]^(٢) ، وأشار بهما. بل نريد أن نجيئك بمثال من عروض القرآن في معنى لا يأبه له الناس ولا يقع اختيارهم على مثله عادة. ليكون دليلاً على ما وراءه.

يقول الله تعالى في ذكر حجاج اليهود : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ إِيمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْنُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] والآياتان بعدها .

هذه قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل ، والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلي :

- ١- مقالة ينصح بها الناصح لليهود، إذ يدعوهם إلى الإيمان بالقرآن.
- ٢- إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين.
- ٣- الرد على هذا الجواب بركتيه ، من عدة وجوه.

وأقسمُ لو أن محاميًّا بليغاً وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن في هذه القضية، ثم هُدي إلى استنباط هذه المعاني التي تختليج في نفس الداعي والمدعو لما وسعه في أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات. ولعله بعد ذلك لا يفي بما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق.

قال الناصح لليهود: آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة؛ ألستم قد آمنتم بالتوراة التي جاء بها موسى لأنها أنزلها الله؟ فالقرآن الذي جاء به محمد أنزله الله، فآمنوا به كما آمنتם بها.

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكبير في هذا اللفظ الوجيز ﴿إِيمَنُوا بِمَا

(١) اقرأ إن شئت ما كتبه السكاكي عن هذه الآية في كتابه «مفتاح العلوم» بعد تعريف البلاغة والفصاحة في آخر علم البيان.

(٢) اقرأ ما كتبه عنها المفسرون وما كتبه صاحب «الإنقان» في بحث الإيجاز والإطناب.

أَنْزَلَ اللَّهُ ﷺ . وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنaitه، فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشيء بحجه، وبذلك أخرج الدليل والدعوى في لفظ واحد.

ثم انظر كيف طوى ذكر المتنزل عليه فلم يقل: آمنوا بما أنزل الله «على محمد» مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة. أتدرى لم ذلك؟ ... لأنه لو ذكر لكان في نظر الحكمة البينية زائداً، وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسداً.

أما الأول: فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها في الإلزام، فأدير الأمر على القدر المشترك وعلى الحد الأوسط الذي هو عمود الدليل^(١).

وأما الثاني: فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أصحابهم ويثير أحقادهم فيؤدي إلى عكس ما قصده الداعي من التأليف والإصلاح.

ذلك إلى ما في هذا الحذف من الإشارة إلى طابع الإسلام، وهو أنه ليس دين تفريق وخصوصة، بل هو جامع ما فرقه الناس من الأديان، داع إلى الإيمان بالكتب كلها على سواء: بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم. لا نفرق بين شيء من كتبه، كما لا نفرق بين أحد من رسله.

كان جواب اليهود أن قالوا: إن الذي دعانا للإيمان للتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب، بل إننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا، والقرآن لم ينزله علينا، فلكم قرآنكم ولنا توراتنا، ولكل أمة شرعة ومنهاج.

هذا هو المعنى الذي أوجزه القرآن في قوله: **﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾** وهذا هو المقصد الأول. وقد زاد في إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة؛ لأنه تقدم ذكره في نظيرتها.

(١) مقصوده بالخصوصية؛ إزال الله للقرآن، المقصود والمشترك أن القرآن نزل على محمد، فلذلك كانت الدعوة إليه. (عمرو)

من البين أن اقتضارهم على الإيمان بما أنزل عليهم يومئ إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم، وهذا هو المقصود الثاني. ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر، فأراد القرآن أن يبرزه. انظر كيف أبرزه؟ إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهبًا لهم، ولم يدخل مضمون قولهم في جملة ما نقله من كلامهم، بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقالتهم: فقال:

﴿وَيُكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أليس ذلك هو غاية الأمانة في النقل؟

ثم انظر إلى التعبير عن القرآن بلفظ **﴿بِمَا وَرَاءَهُ﴾** فإن لهذه الكلمة وجهاً تعم به غير القرآن ووجهاً تخص به هذا العموم. ذلك أنهم كما كفروا بالقرآن المنزلي على محمد ﷺ كفروا بالإنجيل المنزلي على عيسى، وكلاهما وراء التوراة، أي جاء بعدها. ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوراة من صحف إبراهيم مثلاً. وهكذا تراه قد حدد الجريمة تمام التحديد باستعمال هذا اللفظ الجامع المانع. وهذا هو غاية الإنصاف وتحري الصدق في الاتهام.

جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه.

فتراه لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتابهم، بل يتركها مؤقتاً لأنها مسلمة ليبني عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب، فيقول: كيف يكون إيمانهم بكتابهم باعثاً على الكفر بما هو حق مثله؟ لا، بل **﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾** كله⁽¹⁾ - وهل يعارض الحق حتى يكون الإيمان بأحدهما موجباً للกفر بالأخر؟!

ثم يترقى فيقول: وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه كالأمر بين كل حق وحق «فقد يكون الشيء حقاً وغيره حقاً فلا يتکاذبان، ولكنهما في شأنين مختلفين فلا يشهد بعضهما لبعض». أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً و**﴿مُصَدِّقاً﴾** لما بين يديه من الكتب. فأنا يكذب به من يؤمن بها؟!

ثم يستمر في إكمال هذا الوجه قائلاً: ولو أن التحريف أو الضياع الذي نال من هذه الكتب قد ذهب بمعالم الحق فيها جملة لكان لهم بعض العذر في تكذيبهم بالقرآن؛ إذ يحق لهم أن يقولوا: «إن البقية المحفوظة من هذه الكتب في

(1) فإن ما سواه إن خالقه كان شاهداً على نفسه بالبطلان، ولا كان صحيحاً أو محتملاً للصحة. فهو إذاً معيار الحق وميزانه.

عصرنا ليس بينها وبين القرآن هذا التطابق والتصادق، فليس الإيمان بها موجّهاً للإيمان به» . . بل لو أن هذه البقية ليست عندهم ولكنهم كانوا عن دراستها غافلين، لكان لهم مثل ذلك العذر. أما وهذا القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب في زمنهم وبأيديهم ويدرسونه بينهم فبماذا يعتذرون وأنني يذهبون؟! هذا المعنى كله يؤدّيه لنا القرآن بكلمة ﴿لَمَا مَعَهُم﴾.

فانظر إلى الأحكام في صنعة البيان: إنما هي كلمة رُفعت وأخرى وضعـت^(١) في مكانها عند الحاجة إليها؛ فكانت هذه الكلمة حسماً لكل عذر، وسدّاً لكل باب من أبواب الهرب؛ بل كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم تمت في خطوة واحدة، وفي غير ما جلبة ولا طنطنة.

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوي الذي ساقه مساق الاعتراض والاستطراد، استوى إلى الرد على المقصد الأصلي الذي تبجحوا بإعلانه والافتخار به، وهو دعواهم بالإيمان بما أنزل عليهم، فأوسعهم إكذاباً وتغنىداً، وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم، قد أشربوه في قلوبهم ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضًا مزمناً، وأن الذي أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ﷺ ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم؛ وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفظعة التي لا سبيل لإنكارها، في جهلهم بالله، وانتهاكهم لحرمة آنبيائه، وتمردتهم على أوامرها: ﴿فَلْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

١- تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له في آخر المرحلة السابقة؛ إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين بكتابهم نفسه؛ وهل الذي يكذب من يصدقك يبقى مصدقاً لك؟!

غير أن هذا المعنى إنما أخذ استنباطاً من أقوالهم، وإلزاماً لهم بمال مذهبهم، ولم يؤخذ بطريق مباشر من واقع أحوالهم. فكانت هذه هي مهمة الرد الجديد

(١) ذلك أنه كان مقتضى السياق أن يقال: «مصدقاً لما أنزل عليهم» ولكنه لأمر ما نحنّ عن كتابهم ذلك اللقب القديم، وألبسه هذا العنوان الجديد، ولو بدلّت أحد اللقبين مكان الآخر لما صلح أحدهما في موضع صاحبه، بل لو جئت بلقب آخر فقلت: «مصدقاً لما هو باق في زمنهم» أو «مصدقاً لما عندهم» لما تم الإلزام، وهذا من عجب شأن القرآن؛ لا تبديل لكلماته.

وهكذا كانت الكلمة ﴿مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ﴾ مغلاقاً لما قبلها مفتاحاً لما بعدها، وكانت آخر درجة في سلم الغرض الأول هي أول درجة في سلم الغرض الثاني. فما أوثق هذا الالتحام بين أجزاء الكلام! وما أرشد هذه القيادة للنفس بزمام البيان، تدريجياً له على مدارجها، وتنزيلاً له على قدر حاجتها وفي وقت تلك الحاجة! فما هو إلا أن آنس تطلع النفس واستشرافها من تلك الكلمة إلى غاية، إذا هو قد استوى بها إلى تلك الغاية ووقفها عليها تامة كاملة.

٢- وانظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلي، وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقى لتلك الجرائم، فلم يقل: «فلم قتل آباءكم أنبياء الله، واتخذوا العجل، وقالوا سمعنا وعصينا؟»؛ إذ كان القول على هذا الوضع حجة داحضة في بادئ الرأي، مثلها كمثل محاجة الذئب للحمل في الأسطورة المشهورة^(١)، فكان يحق لهم في جوابها أن يقولوا: «وما لنا ولآبائنا؟ تلك أمة قد خلت، ولا تزر وازرة وزر أخرى».

ولو زاد مثلاً: « وأنتم مثلهم ، قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم » ل جاء هذا التدارك بعد فوات الوقت ، ولتراخي حبل الكلام وفترت قوته .

فكان اختصار الكلام على ما ترى - بوقفهم بادئ ذي بدء في موقف الاتهام- إسراهاً بتسديد^(٢) سهم الحجة إلى هدفها، وتبنيها في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض، وأنهم سواسية في الجرم، فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم؛ لأنهم لا ينفكون عن الاستنان بسنة أسلافهم، أو الرضا عن أفاعيلهم، أو الانطواء على مثل مقاصدهم.

٣- وانظر كيف زاد هذا المعنى ترسيحاً^(٣) بإخراج الجريمة الأولى وهي جريمة القتل في صيغة الفعل المضارع تصويراً لها بصورة الأمر الواقع الآن، بأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزكية.

(١) التي تزعم أن ذئباً عدا على حمل صغير بحجة أن أخيه أو أبوه كان قد عكر عليه ماء القناة وهو يشرب منذ عام مضى. وهي تمثل عدوان القوي على الضعيف استناداً لأوهن الأسباب.

(٢) وهذا هو ما يسمى في المناظرة «بالتقريب» بين الدليل والمطلوب.

(٣) أي: تقوية. (عمرو)

٤- ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح باباً من الإيحاش لقلب النبي العربي الكريم، وباباً من الإطماء لأعدائه في نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله. فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فقطع بهذه الكلمة أطماعهم وثبت بها قلب حبيبه ﷺ إذ كانت بمثابة وعده إيهامه بعصمته من الناس. ذلك إلى ما فيها من تنبيه على أصل وضع الكلام وعلى ما صنع به من التجوز المذكور آنفًا في الإسناد وفي الصيغة.

٥- وانظر كيف جيء بالأفعال في الجرائم التالية على صيغة الماضي بعد أن وطأ لها بهذه الكلمة: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعي حين لم تبق هناك حاجة إلى مثل التعبير الأول.

٦- وانظر إلى الآداب العالية في عرض الجريمة الثانية وهي جريمة الشرك؛ فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها وأشد نكرًا في العقول نبه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها، فلم يقل: اتخدتم العجل إلهًا، بل طوى هذا المفعول الثاني استبشارًا للتصریح به في صحبة الأول، وبيانًا لما بينهما من مفارقة .. وكم في هذا الحذف من تعبير وتهويل!! فرب صمت هو أنطق بالحكم، وأنكى في الخصم.

٧- ثم انظر إلى النواحي التي أوثر فيها الإجمال على التفصيل، إعراضًا عن كل زيادة لا تمس إليها حاجة البيان في الحال، فقد قال: إن القرآن مصدق لما معهم، ولم يبين مدى هذا التصديق: أفي أصول الدين فحسب، أم في الأصول والفروع جميعًا، أم في الأصول وبعض الفروع، وإلى أي حد؟ ذلك أن هذا كلام الملوك لا يتنزل إلا بقدر معلوم. وماذا يعني الداعي إلى أصل الإيمان أن يمتد التطابق بين الأديان إلى فروعها أو لا يمتد؟ فليبحث علماء التشريع!

وقال: إنهم يقتلون أنبياء الله. فمن هم أولئك الأنبياء؟ ... ليبحث علماء التاريخ!

وقال: إن موسى جاءهم باليينات. فكم هي؟ وما هي؟

وقال: إنهأخذ عليهم ميثاقهم. فعلى أي شيء كان الميثاق؟

إن حكمة البيان القرآني لأجل من أن تعرض لهذه التفاصيل في مثل هذا

الموضع. ولو ذكرت ها هنا لكان مثلها مثل من يسأل: لم ضربت عبده؟ فيقول: لأنه ضرب غلامًا اسمه كذا واسم أبيه كذا وحليلته كذا، وولد في عام كذا. ألا ترى أن هذا زائد وكثير^(١).

ـ ٨ـ ولو ذهبنا نتبع سائر ما في هذه القطعة من اللطائف لخرجنا عن حد التمثيل والتبني الذي قصدنا إليه. فلنكتفي بتوجيه نظرك فيها إلى سر دقيق لا تراه في كلام الناس. ذلك أن المرء إذا أهمه أمر من الدفاع أو الإقناع أو غيرهما بدت على كلامه مسحة الانفعال بأغراضه، وكان تأثيره بها في نفسك على قدر تأثيره هو؛ طبعاً أو تطبعاً، فتكاد تحس بما يحالجه من المسوقة في ظفروه ومن الامتعاض في إخفاقه. بل تراه يكاد يهلكأسفاً لو أعرض الناس عن هداه إذا كان مؤمناً بقضيته، مخلصاً في دعوته، كما هو شأن الأنبياء ﷺ. أما هنا فإنك تلمح وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض، قوة تؤثر ولا تتأثر، تصف لك الحقائق: خيرها وشرها، في عزة من لا ينفعه خير، واقتدار من لا يضره شر.

هذا الطابع من الكبراء والعظمة تراه جلّا من خلال هذا الأسلوب المقتضى في حجاجه أخذًا ورداً، المقتضى في وصفه مدحًا وقدحًا.

انظر إليه حين يجادل عن القرآن فلا يزيد في وصفه على هذه الكلمة: ﴿وَهُوَ أَكْبَرُ﴾. نعم إنها كلمة تملأ النفس، ولكن هل تشبعك أيها الإنسان تلك الكلمة إذا أردت أن تصف حقيقة من الحقائق التي تقتضي بها وتحب أن تقنع بها الناس؟ وانظر إليه بعد أن سجل علىبني إسرائيل أفحش الفحش وهو وضعهم البقر الذي هو مثل في البلادة موضع المعبد الأقدس، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم في تأبّيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة؛ فتراه لا يزيد على أن

(١) ومن هنا عيب على امرئ القيس تفصيله في غير موضع التفصيل، وذلك فيما هو معدود من أجود شعره، قوله:

قف نبك من ذكري حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمرة

لم يقنع في وصف المنزل بقوله: «بسقط اللوى» حتى حده بحدود أربعة. قال الباقياني: «... كأنه يريد بيع المنزل، فيخشى إن أخل بحد منه أن يكون بيعه فاسداً أو شرطه باطلًا!».

يقول في الأولى: إن هذا «ظلم» وفي الثانية: «بئسما» صنعتم. أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم، إنهم كلامان وافتتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما، ولكن أين الألم وحرارة الاندفاع في الانتقام؟ بل أين الإقاذ والتثنيع؟ وأين الإسراف والفجور الذي تراه في كلام الناس إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم؟

لله ما أعنَّ هذه الخصومة، وما أعزَّ هذا الجناب وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، وتالله إن هذا كلام لا يصدر عن نفس بشر.

قلنا: إن القرآن الكريم يستثمر دائمًا برقق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد الإيجاز في القرآن أكثر ما يمكن من المعاني. أجل؛ تلك ظاهرة بارزة فيه كله؛ يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب. ولذلك نسميه إيجازاً كله^(١)؛ لأننا نراه في كلام

(١) لما كان هذا اصطلاحًا جديداً تختلف به مصطلح القوم لم نر بدأ من إيضاح سبب المخالفة: قسم علماء البلاغة الكلام إلى «مساوٍ» و«موجز» و«مطنب». وعرفوا المساواة بأنها أداء المعنى بلطف على قدره، والإيجاز بأنه أداء المعنى بلطف ناقص عنه واف به، والإطناب بأنه أداء المعنى بلطف زائد عنه لفائدة. وجعلوا المقاييس الذي يضبط به هذا التقسيم أمراً عرفيًا أو وضعياً: فاعتبر السكاكي المدار الذي يتكلم به أوساط الناس في محاوراتهم ومتعارف خطابهم، هو ضابط المساواة، وهو القدر الذي لا يحمد منهم، ولا ينم في باب البلاغة، فيما نقص عنه مع الوفاء به فهو الإيجاز، وما زاد عنه مع الإفادة فهو الإطناب. والكلام البليغ إنما يقع في هذين الطرفين. هذا محصول كلام السكاكي. وقد وافقه الذين جاءوا من بعده على هذا التقسيم، إلا أن بعضهم رأى أن البناء على العرف فيه رد إلى الجهلة، فجعل حد المساواة هو المدار الذي يؤدي المعاني الأولية بالوضع من غير رعاية للمناسبات الرائدة على أصل المعنى.

وقد فهمنا من وضعهم التقسيم على هذا الأساس، واعتبارهم المساواة بأحد هذين المقاييس المتعارفين في المال، أنهم ظنوا أن العبارة التي تؤدي بها المعاني الأولية في لسان العوام تقع دائمًا بين الإطالة والاختصار. وهذا ما لا دليل عليه في العرف ولا في الوضع، أما الأول فإن العوام يتكلمون في المعنى الواحد باللفظ المطول تارة وبالمحض تارة أخرى، وإن لم يتحرروا إصابة المحز في كل منها، وأما الثاني فلا أن اللفظ الذي وضع في اللغة تأدية المعنى الأول مختلف، فمنه ما يؤديه بوجه محمل، ومنه ما يؤديه بلطف مفصل، وكل من الإجمال والتفصيل يتفاوت في نفسه تفاوتاً كثيراً، فلا ينضبط منها قدر يرجع إليه في معرفة الإيجاز والإطناب؛ إذ ما من كلام وجيز إلا ويمكن تأدية معناه الإجمالي بأقل من لفظه أو بما يساويه وإن لم يغُّ غناه ولم يوف وفاءه، حتى المثل الذي عدوه علماً في الإيجاز وهو قوله تعالى: «في ألقاص حِكْمَةٌ» [البقرة: ١٧٩] يمكن تأدية أصل معناه بقولك «انتقم تسلّم» =

= أو «اقتصرت حيّا» أو بالاكتفاء بكلمتين منه «القصاص حيّا»، بل فاتحة الكتاب الكريم التي جمعت مقاصد القرآن كلها في سبع آيات يمكن أداء معانيها الأصلية في خمس كلمات: «نحمدك اللهم ونبعدك، ونستعينك ونستهديك» وإن شئت ففي أقل من ذلك.

كذلك يقال: ما من كلام مطبب إلا ويمكن تأدبة معناه الوضعي مفصلاً في لفظ أطول منه، فقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَمْتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] إيجاز، وقد جاء بسطه في قوله: ﴿وَكِبَّنَا عَيْنَهُمْ فِيهَا أَنَّ النَّفَسَ بِالنَّفَسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأَذْكَرُ بِالْأَذْكَرِ بِاللَّيْلِ وَاللَّيْلُ وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] وهذا الكلام على طوله يعد موجزاً إذا قولك في مثل معناه: «من قتل نفساً قتل بها، ومن فرق عيناً فقتلت عينه، ومن جدع أنفًا جدع أنفه، ومن جدع أذناً جدعت أذنه، ومن كسر ستّاً كسرت ستة ...». وإن شئت زدت: واليد باليد، والأصبع بالأصبع، والآمة بالأمة والموضحة بالموضحة وهلم جرا. وقوله تعالى: ﴿إِمَّا نَّاهَهُ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قِبْلَهُ﴾ [المائدة: ٥٩] جاء معناه ميسوطاً في قوله: ﴿فُولَّا مَامِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَّا إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْتَعْيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَقْوُبَ وَالْأَشْبَاطَ وَمَا أُوْقِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوْقِيَ الْتَّيْبُونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهذا المعنى يؤدى عادة بقولك: آمنا بالله وبالقرآن الذي أنزله الله إلينا، وبالتوراة التي أنزلها الله على موسى، وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، وبالزبور الذي آتاه الله لداود، وبالصحف التي آتاهها الله لإبراهيم ولو شئت عدلت الأسباط سبطاً سبطاً، وذكرت سائر من قض الله علينا من النبيين في غير هذا الموضع بل لو شاء الله لقص علينا من أنباء سائر الرسل ما لم يقصه علينا.

والقوم معترفون ضمّناً بوجود هاتين المرتبتين في كلام العوام، إذ قالوا: إن مرتبتي الاختصار المخل والتطويل الممل ليستا من البلاغة في شيء فإذا لم تكونا من كلام البلاغة كانتا البة من كلام غير البلاغة وإن فكلام من تكونان؟! وإذا فلا تصلح المعاني الأولية ولا العبارات العامية مقاييساً منضبيلاً للوسط المفروض.

هذا وقد نشأ من قياسهم التوسط بالمقدار الذي تؤدى به المعاني الأولية في لسان العوام-بعد تسليم كونه سبطاً-أن جعلوا الفضيلة البيانية في هذا الباب ماثلة أبداً طرف النقص أو طرف الزيادة. وذلك عكس ما بنيت عليه قاعدة الفضائل من تبؤها مكاناً سبطاً بين الأطراف «ولقد تعجب إذا رأيتمهم يرجعون فيدخلون المساواة في كلام الرجل البليغ إذا دعاهم إليها داع، لأن يكون كلامه مع العامة ثم تزداد عجباً إذا رأيتمهم يدخلونها في القرآن نفسه، وهو ما علمت خطاب للعامة وللحاصة على السواء، ويمثلوها بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ لِسَيِّئٍ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] على أن في هذه الكلمة إيجازاً بالحذف على اصطلاحهم نفسه، إذ المعنى لا يتحقق ضرر المكر وعاقبته».

لهذا كله رأينا أن نضع التقسيم وضعياً آخر نرد فيه الفضيلة إلى نصابها من الحد الوسط، ونرجع فيه النم إلى الطرفين، وذلك يجعل المقاييس هو المقدار الذي يؤدى به المعنى بأكمده، بأصله وحليته على حسب ما يدعو إليه المقام من إجمال أو تفصيل؛ بغير إجحاف ولا إسراف. هذا القدر الذي من نقص عنه أو زاد عده البلاغة حائلاً عن الجادة بقدر ما نقص أو زاد، هو الميزان الصحيح الذي لك أن تسمى طرفيه بحق تقتصيراً أو تطويلاً، وأن تسميه هو بالمساواة أو القصد أو التوسط أو التقدير أو ما شئت =

المقامين لا يجاوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما، ونرى أن مراميه في كلام المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلّى بأقل من الفاظه ولا بما يساويها. فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى.

فسمه. ونحن قد سميناه أيضاً باسم «الإيجاز» مطمئنين إلى صحة هذه التسمية، إذ رأينا حد الإيجاز ينطبق عليه، فما الإيجاز إلا السرعة والتخفيف في بلوغ الحاجة بالقدر الممكن، فالذى يسرع فوق الطاقة لا يبلغ حاجتك فيكون مجنحاً مخللاً، والذي يطع حيث تمكّن السرعة لا يكون إلا مسرفاً مملاً. ورأينا الناس ما زالوا يتواصون بهذه الوجازة في البيان ويجعلون خير الكلام ما قل ودل، حتى روی عن سيد البلغاء صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أنه قال لجرير بن عبد الله البجلي: (يا جرير إذا قلت فأوْجزَ، وإذا بَلَغْتَ حاجتكَ فَلَا تَتَكَلَّفْ) هكذا أحفظه، ولا يحضرني الآن تخريجه، وما سمعنا أحداً يوصي بهذا الإطناب الذي عده المؤلفون فضيلة ثانية تقابل الإيجاز، وإنما هو إحدى شعبتيه: الاختصار المفهم أو الإطناب المفهم. ولو سمعناه فضيلة ثانية تقابل لخشينا أن تكون هذه المقابلة وحدها رخصة في التحلل من قيوده وتسامحًا في الإثار الذي جاء ذمه بكل لسان، حتى قال ﷺ: «... وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيمة أساوتكم أخلاقًا الثراثرون المستندون المتفقهون» رواه أحمد وابن حبان وغيرهما عن أبي ثعلبة. فلا وربك إنما هي فضيلة واحدة تطلب من المتكلم في كل مقام، ويؤخذ بها في سعة التفصيل كما يؤخذ بها في ضيق الإجمال، بل لعلها في مقام التفصيل أكدر طلبًا وأصعب مناً. فالكلام الطويل إن حوى كل جزء منه فائدة تمس إليها الحاجة في الموضوع ولا يسهل أداء تلك الفائدة بأقل منه كان هو عين الإيجاز المطلوب، وإن أمكن أداء الأغراض فيه كاملة بمحذف شيء منه أو بإبداله بعبارة أخرى منه كان هو حشوًا أو تطويلاً معيناً. والكلام التصريح إن وفى بالمقاصد الأصلية والتكميلية المناسبة في الحال كان هو التوسط المطلوب، وإلا كان بتراً أو تقصيراً معيناً.

وليس الإيجاز قاصرًا على جانب الإجمال كما زعموا حتى بنا عليه ما بنوا، وحتى أخرجوه منه مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِنَافِ آيَيْلَ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكِ الَّتِي يَهْرُبُ فِي الْبَخْرِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، يجعلوها من باب الإطناب بحججة أنه يمكن إيجازها بهذه العبارة: إن في ترجيح وقوع أي ممكן كان لا على وقوعه لآيات للعقلاء-مفتاح العلوم» وأنت فهل عهدت عربياً قط بلغياً أو غير بلغين تكلم بهذا التعبير الفلسفى الجاف القلق الذى افترضه السكاكي مقياساً للمساواة في معنى الآية، كلا، إنك لو رجعت إلى ما تكلم به الناس في آيات الله الكونية تفصيلاً أو إجمالاً لرأيت كلاماً عربياً صحيحاً أطول من هذا أو أقصر، ولرأيت الآية الكريمة هي أوجز كلام وأحكم نظام في بابها من التفصيل، كما أن قوله تعالى: ﴿فَلِمَنْ أَنْظَرْتُ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] هو أوجز كلام في بابه من الإجمال. قلنا: إن فضيلة الإيجاز بمعناه الصحيح هو الوسط المعتدل، وهو الفضيلة الوحيدة التي توافق بها البلغاء في كل مقام بحسبه، غير أنه ليس للإنسان ما تمنى، فالمثال الكامل وإن تطاولت إليه أعناق الناس وتفاوتوا في طلبه قرباً وبعداً، لا يستطيع أحد منهم أن يأتي على غايته، وإنماأتي عليها القرآن الحكيم، فهو المثل الأعلى في حسن الإيجاز، كيف لا وهو حد الإعجاز.

دع عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية إنها «مقحمة» وفي بعض حروفه إنها «زادية» زيادة معنوية. ودع عنك قول الذي يستخف كلمة «التأكيد» فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة، لا يبالي أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلح لتأكيده أو لا تكون، ولا يبالي أن يكون بالموقع حاجة إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به.

أجل، دع عنك هذا وذاك، فإن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها إنما هو ضرب من الجهل -مستوراً أو مكسوفاً- بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن.

وخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسراره البينية على ضوء هذا المصباح. فإن عمي عليك وجه الحكمة في الكلمة منه أو حرف إياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون؛ ولكن قل قوله سديداً هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف. قل: «الله أعلم بأسرار كلامه، ولا علم لنا إلا بتعليمه». ثم إياك أن تركن إلى راحة اليأس فتقعد عن استجلاء تلك الأسرار قائلاً: أين أنا من فلان وفلان؟ .. كلا، فرب صغير مفضول قد فطن إلى ما لم يفطن له الكبير الفاضل. ألا ترى إلى قصة ابن عمر في الأحجية المشهورة^(١)؟ فجدّ في الطلب وقل: رب زدني علماً، فعسى الله أن يفتح لك باباً من الفهم تكشف به شيئاً مما عمي على غيرك. والله ولبي الذين آمنوا بخرجهم من الظلمات إلى النور. ولنضرب لك مثلاً، قوله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

«أكثر» أهل العلم قد ترافت كلمتهم على زيادة الكاف بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة، فراراً من المحال العقلي الذي يفرضي إليه بقاوئها على معناها

(١) عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، حدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البدية، ووقع في نفسي أنها النخلة، قال عبد الله: فاستحييت، فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها؟ فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» قال عبد الله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: «لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا»، رواه البخاري: (١٣١).

قال الشيخ دراز: وفي القرآن ﴿فَهَمَّنَهَا سُلَيْمَانٌ﴾.

الأصلية من التشبيه؛ إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية الشبيه عن مثل الله، فتكون تسلیماً بثبوت المثل له سبحانه، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفاءه؛ لأن السالبة -كما يقول علماء المنطق- تصدق بعدم الموضوع. أو^(١) لأن النفي -كما يقول علماء النحو- قد يوجه إلى المقيد وقيده جميماً. تقول: «ليس لفلان ولدٌ يعاونه» إذا لم يكن له ولد قط أو كان له ولد ولا يعاونه. وتقول: «ليس محمدًّا أخًا لعلي» إذا كان أخًا لغير علي أو لم يكن أخًا لأحد.

«وقليل منهم» من ذهب إلى أنه لا بأس ببقاءها على أصلها؛ إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال لا نصاً ولا احتمالاً؛ لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضًا.

وذلك أنه لو كان هناك مثلٌ لله لكان لهذا المثل مثل قطعاً وهو الإله الحق نفسه، فإن كل متماثلين يعد كلاهما مثلاً لصاحبِه، وإذا لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل وهو المطلوب.

وقصيرٌ هذا التوجيه -لو تأملته- أنه مصحح لا مرجح، أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف، ولكنه لا يثبت فائدته ولا يبين مسيس الحاجة إليه؛ ألسنت ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه سواء، وأنه إن كان قد ازداد به شيئاً فإنما ازداد شيئاً من التكلف والدوران وضررًا من التعميم والتعقيد. وهل سبile إلا سبيل الذي أراد أن يقول: «هذا فلان» فقال: «هذا ابن أخت حالة فلان»؟ فماله إذا إلى القول بالزيادة التي يسترونها باسم التأكيد، ذلك الاسم الذي لا تعرف له مسمى هنا؛ فإن تأكيد المماثلة ليس مقصوداً البتة، وتأكيد النفي بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان.

ولو رجعت إلى نفسك قليلاً لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظاً بقوته دلالته، قائماً بقسطه جليل من المعنى المقصود في جملته، وأنه لو سقط منها لسقطت معه

(١) هذا الترديد مبني على اختبار مضمون الجملة أو منطوقها؛ فعلى الأول يقع المثل موضوعاً؛ لأنها في قوته قولنا: «مثل ليس له مثل». وعلى الثاني يبقى في المحمول؛ لأنه واقع في خبر ليس.

دعامة المعنى، أو لتهدم ركن من أركانه، ونحن نبين لك هذا من طريقين، أحدهما أدق مسلكاً من الآخر.

«الطريق الأول» وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور: أنه لو قيل: «ليس مثله شيء» لكان ذلك نفياً للمثل المكافئ، وهو المثل التام المماثلة فحسب؛ إذ إن هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه. وإذا لدب إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام: أن لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء، أو للكواكب وقوى الطبيعة، أو للجن والأوثان والكهان، فيكون لهم بالإله الحق شبه ما في قدرته أو علمه، وشرك ما في خلقه أو أمره .. فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاءً للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها، كأنه قيل: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً لله، فضلاً عن أن يكون مثلاً له على الحقيقة. وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى، على حد قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْتُلْ هُمَّا أُفِيَ وَلَا نَهَرُ هُمَّا﴾ [الإسراء: ٢٣]، نهياً عن يسير الأذى صريحاً، وعما فوقه يسيراً بطريق الأخرى.

«الطريق الثاني» وهو أدقهما مسلكاً: أن المقصود الأولي من هذه الجملة وهو نفي الشبيه، وإن كان يكفي لأدائه أن يقال: «ليس كالله شيء» أو «ليس مثله شيء» لكن هذا القدر ليس هو كل ما ترمي إليه الآية الكريمة، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم تريد في الوقت نفسه أن تلفتكم إلى وجه حجتها وطريق برهانه العقلي.

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي عن امرئ نقيصة في خلقه فقلت: «فلان لا يكذب ولا يبخل» أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجردة عن دليلها. فإذا زدت فيه كلمة فقلت: «مثل فلان لا يكذب ولا يبخل» لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص آخر يماثله مبرأً من تلك النقائص، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كلي، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك؛ لوجود التنافي بين طبيعة هذه الصفات وبين ذلك النقص المohoem.

على هذا المنهج البلigh وضعت الآية الحكيمه قائلة: «مثله تعالى لا يكون له مثل». تعني أن من كانت له تلك الصفات الحسنى وذلك المثل الأعلى لا يمكن أن يكون له شبيه، ولا يتسع الوجود لاثنين من جنسه. فلا جرم جيء فيها بلفظين، كل واحد منها يؤدى معنى المماثلة؛ ليقوم أحدهما رکاً في الدعوى، والآخر دعامة لها وبرهاناً. فالتشبيه المدلول عليه «بالكاف» لما تصوب إليه النفي تأدى به أصل التوحيد المطلوب؛ ولللفظ «المثل» المصرح به في مقام لفظ الجاللة أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب.

واعلم أن البرهان الذي ترشد إليه الآية على هذا الوجه برهان طريف في إثبات وحدة الصانع، لا نعلم أحداً من علماء الكلام حام حوله؛ فكل براهينهم في الوحدانية قائمة على إبطال التعدد بإبطال لوازمه وأثاره العملية. حسبما أرشد إليه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنياء: ٢٢]^(١).

أما آية الشورى المذكورة فإنها ناظرة إلى معنى وراء ذلك ينقض فرض التعدد من أساسه، ويقرر استحالته الذاتية في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار. فكأننا بها تقول لنا: إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدد والاشراك والتماثل في مفهومها، كلا، فإن الذي يقبل ذلك إنما هو الكمال الإضافي

(١) ونحن نلخص لك هنا وجوه استدلالهم في نسق واحد، لتتبين أنها كلها قائمة على أساس المعنى المستنبط من هذه الآية، وهو أن تعدد الآلهة المستجمعة لشرائط الإلهية يتضمن «إما» عدم وجود شيء من المخلوقات، وذلك هو فسادها في آن الإيجاد «إما» وجودها على وجه التفاوت والاختلاف المؤدي إلى فسادها غب الإيجاد.

ذلك أنه «لو» توجهت إرادة الإلهين إلى شيء واحد لتعذر عليهما إحداثه، لاستحالاته صدور أثر واحد عن مؤثرين. والقول بصدوره عن قدرة أحدهما مع استواهما في القدرة وفي توجه القصد ترجيح بلا مرجع. و«لو» توجهت إرادة أحدهما إلى شيء وإرادة الآخر إلى تقضيه لم يمكن إحداثهما، والإجتماع التقىضان. وإحداث أحدهما دون الآخر يلزم المرجح المذكور. و«لو» توجهت إرادة أحدهما إلى بعض الخلق والآخر إلى بعضه، إذا لذهب كل إله بما خلق، ولكن هنا عالمان مختلفان النظام، فلا يليث أن يطغى بعضها على بعض حتى يتما Hanna. وكل أولئك باطل بالمشاهدة، إذ نرى العالم قد وجد غير فاسد واستمر غير فاسد، ونراه بجميع أجزائه وعلى اختلاف عناصره وأوضاعه -علوًّا وسفلاً وخيراً وشراً- يؤدي وظيفة جسم واحد تعاون أعضاؤه بوظائفها المختلفة على تحصيل غرض واحد. وهذه الوحدة في نظام الأفعال دليل على وحدة الفاعل المنظم لها جل شأنه.

الناقص، أما الكمال التام المطلق الذي هو قوام معنى الإلهية، فإن حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المتشابهة والاثنيّة؛ لأنك مهما حققت معنى الإلهية حققت تقدماً على كل شيء وإنشاءً لكل شيء: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وحققت سلطاناً على كل شيء وعلواً فوق كل شيء: ﴿هُوَ مَقَاتِلُ الْأَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات لتناقضت؛ إذ تجعل كل واحد منهمما سابقاً مسبوقاً، ومنشئاً منشأً. ومستعلىاً مستعلىاً عليه. أو لأحلت الكمال المطلق إلى كمال مقيد فيهما؛ إذ تجعل كل واحد منهمما بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقاً ولا مستعلىاً. فأنني يكون كل منها إلهًا، ولله المثل الأعلى؟!

رأيتكم أدنى من هذه «الكاف» وجوهها من المعاني كلها شاف كاف؟

فاحفظ هذا المثال وتعرف به دقة الميزان الذي وضع عليه النظم الحكيم حرفاً حرفاً.

الإعجاز «وبعد» فإن سر الإيجاز في القرآن لا يقف عند الحد الذي أشرنا إليه، من اجتناب الحشو والفضول بتة، وانتقاء الألفاظ الجامحة المانعة التي هي - بطبيعتها اللغوية- أتم تحديداً للغرض، وأعظم اتساعاً لمعانيه المناسبة، لا، بل إنه كثيراً ما يسلك في إيجازه سبيلاً أعز وأعجب.

فلقد تراه يعمد -بعد حذف فضول الكلام وزوائده- إلى حذف شيء من أصوله وأركانه التي لا يتم الكلام في العادة بدونها، ولا يستقيم المعنى إلا بها، ولقد يتناول بهذا الحذف كلماتٍ وجملًا كثيرة متلاحقة ومترفرفة في القطعة الواحدة، ثم تراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ في تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح، وفي طلاوة وعدوية، حتى يخيل إليك من سهولة مسلك المعنى في لفظه أن لفظه أوسع منه قليلاً.

فإذا ما طلبت سر ذلك رأيته قد أودع معنى تلك الكلمات أو الجمل المطوية في كلمة هنا وحرف هناك، ثم أدار الأسلوب إدارة عجيبة وأمر عليها جندة

(١) هذه الكلمة تمثيلية أردنا بها أن نصور هذا الأثر البياني في مثال من الصناعات اليدوية. ذلك أنك ترى الخياط الماهر يتتفع باليسير من البز فيجعل منه حلة حسنة، مقدرة على الجسم تقديرًا، بل إنها لسهولة مسلك الأعضاء فيها تحسبها ضافية. بينما غيره لا يحسن الانتفاع بهذا القدر ولا بأكثر منه، فيخرجه لباساً ضيقاً حرجاً. ذلك مثل صناعة الإيجاز القرآني بالقياس إلى كلام الناس.

البيان بيد صناع، فأحکم بها خلقه وسواء. ثم نفح فيه من روحه، فإذا هو مصقول أملس، وإذا هو نير مشرق، لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطي، ولا بما صار إليه من استغناء واكتفاء، إلا بعد تأمل وفحص دقيق.

لا نكران أن العرب كانت تعرف شيئاً من الحذف في كلامها، وترى ذلك من الفضيلة البينية متى قامت الدلائل اللاحقة على ذلك المحذوف، ولو كان من أجزاء الجملة ومقوماتها. فإذا قيل للعربي: أين أخوك؟ قال: في الدار. وإذا قيل له: من في الدار؟ قال: أخي. ولو قال: أخي في الدار، لعد ذلك منه ضرباً من اللغو والخشو. لكن الشأو الذي بلغه القرآن في هذا الباب -كغيره من أبواب البلاغة- ليس في متناول الألسنة والأقلام، ولا في متناول الأماني والأحلام.

خذ لذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعِجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ أَسْبَعَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُنْيَ مِثَالٌ عَلَى إِعْجَازِ الْحَذْفِ﴾ [إتيهم أجلهم فندر الذين لا يرجون لقاءاً في طغيتهم يعمهون] [يونس: ١١].

الآية مسوقة في شأن منكري البعث الذين قال لهم النبي: إنني رسول الله إليكم، وإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقالوا متهكمين: ﴿وَإِذْ قَاتَلُوا اللَّهَمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأنفال: ٣٢]. فلما لم يجدهم الله إلى اقتراحهم وأخر عنهم العذاب إلى ساعته المحدودة أطغاهم طول الأمن والدعة والعافية الحاضرة حتى نسوا ريب الدهر وأمنوا مكر الله، فجعلوا يستعجلون بالشر استعجالهم بالخير، ويقولون: متى هو؟ وما يحبسه لو كان آتياً؟!

أراد القرآن أن يقول في جواب هذا الاستعجال: لو كانت سنة الله قد مضت بأن يجعل للناس الشر إذا استعجلوه، كتعجيله لهم الخبر إذا استعجلوه، لعجله لهؤلاء. ولكنه قد جرت سنته التي لا تتبدل بأن يمهل الظالمين و يؤخر حسابهم إلى أحل مسمى. وعلى وفق هذا النظام المنسنون سيترك هؤلاء وشأنهم حتى يجيء وقتهم.

هذا هو الوضع الذي يوضع عليه الكلام في السنة الناس وفي طبيعة اللغة لتأدية المعنى الإجمالي الذي ترمي إليه الآية. فانظر ماذا جرى ..؟

١- كان الكلام في وضعه العادي مؤلفاً من قضايا ثلات: اثنان منها بمثابة المقدمات. والثالثة بمنزلة النتيجة. فاقتصر القرآن على الأولى والأخيرة. أما الوسطى وهي الاستدراك -أو الاستثنائية كما يسميها علماء المنطق- فقد طواها طيّاً.

٢- وكانت المقدمة الأولى في وضعها الساذج تتالف من أربعة أطراف: تعجيل من الله في الخير وفي الشر، واستعجال من الناس كذلك. ولكن الكلام هنا هنا ليس فيه إلا تعجيل واحد من الله، واستعجال واحد من الناس.

٣- وكانت المقابلة في التشبيه بحسب الظاهر إنما هي بين تعجيل وتعجيل، أو بين استعجال واستعجال، فأدبر الكلام في الآية على وجه غريب، وجعلت المشابهة بين تعجيل واستعجال.

وبعد هذا التصرف كله هل ترى كلاماً مبتوراً أو طريقاً ملتوياً يتعرّض فيه الفهم؟ أم ترى مغزى الآية لائحاً للعامة والخاصة، كالبدر ليس دونه سحاب؟
فارجع إلى طلب شيء من أسرار البيان، وقل: كيف جاء هذا الإشراق مع هذا الاختصار البليغ؟

نقول: «أما الأول» فإنه لم يدع تلك المقدمة المطوية إلا بعد أن رفع لها علمين من جانبها يدلان على مكانها ويوحيان بها إلى النفس من وراء حجاب؛ فقد أقام عن يمينها كلمة «لو» الامتناعية التي صدر بها المقدمة الأولى، دلالة على أنه لا يكون منه هذا التعجيل، وعن يسارها حرف التفريع الذي صدر به النتيجة في قوله: «فنذر» لكي ينم على أن لهذا الفرع أصلاً من جنسه يقال فيه: ولكن شأنه أن يذر الناس؛ فلذلك يذر هؤلاء.

ولما كانت الفاء وحدها ليست نصاً في المطلوب؛ لأنها كما تكون للتفريع تكون لمجرد العطف - فربما اتصل القارئ عاطفاً بها على جزء الشرط قبلها، من قبل أن يتبيّن له فساد المعنى لو عطف - لم يكتف بالفاء، بل عزّزها بقوتين آخريتين، إذ حَوَّل صيغة النتيجة من الماضي إلى المضارع، ثم من الغيبة إلى التكلم؛ ليكون هذا الانقطاع اللفظي بينها وبين ما قبلها إذاناً بانقطاعها عنه معنى، وإذناً بالوقوف دونها، حتى لا تقع النفس لحظة ما في أدنى اضطراب

أو لبس، ذلك إلى ما في هذا التحويل من الافتنان في الأسلوب تجديداً لنشاط السامع، ومن إلقاء الرعب في القلوب بتصور نطق الوعيد والاستدراج على لسان الجبروت الملكي نفسه.

«أما الثاني» فإنه لما حذف طرفين من الأطراف الأربع لـم يحذفهما من جنس واحد، بل أبقى من كل زوجين واحداً هو نظير ما حذفه من صاحبه، لينبه بالذكر على الممحض. فكانت كلمة «التعجّيل» منبهة على نظيرتها في المشبه به، وكلمة «الاستعجال» منبهة على مقابلتها في المشبه.

«أما الثالث» فإنه نبه به علىٰ معنى هو غاية في اللطف، وهو سر الإمهال، وحكمة عدم التعجيل من الله. ذلك بأنه صور هذا التعجيل المفروض بصورة تشبه التماس الطالب وحرصه الشديد علىٰ إرضاء شهوته وسد حاجته الملحة التي تبعثه علىٰ استعجاله، ولا سيما إذا كان يطلب الخير لنفسه. كأنه قيل: إنه تعالى لو عجل لهم ذلك لكان مثله بهذا التعجيل كمثل هؤلاء المستعجلين، في استفزاز البواعث إياه. وحاشا لله.

هذا إلى تصرفات عجيبة أخرى:

«منها» أن الكلمة «لو» بحسب وضعها وطبيعة معناها تتطلب أن يليها فعل ماضٍ ولكن المطلوب هنا ليس هو نفي الماضي فحسب، بل بيان أن هذا الفعل خلاف سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً. فلو أُدِيَ المعنى على هذا الوضع لطال الكلام، ولقيل: «لو كان سنة الله المستمرة في خلقه أن يعجل .. الخ»: فانظر كيف اختصر الكلام في لفظ واحد بإخراج الفعل في صورة المضارع الدال على التكرر والاستمرار، واكتفى بوضع «لو» قرينة على أن ما بعدها ماض في معناه. وهكذا أُدِيَ الغرضين جميعاً في رفق ولين.

«ومنها» أنه كان مقتضى التطابق بين الشرط والجواب أن يوضع الجواب عدلاً له فيقال: «لِعَجْلَهُ»، ولكن عدل إلى ما هو أفحى وأهول؛ إذ بين أنه لو عجل للناس الشر لعجل لهؤلاء منه نوعاً خاصاً هم له أهل، وهو العذاب المستأصل الذي تُقضى به آجالهم.

«ومنها» أنه كان مقتضى الظاهر في تقرير النتيجة أن يقال: «فنذرهم» أو «فنذر هؤلاء» ولكنه قال: ﴿فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ تحصيلاً لغرضين مهمين: أحدهما التنبية على أن منشأ هذا الاستعجال منهم هو عدم إيمانهم بالبعث، والثاني التنبية على أن قاعدة الإمهال من الله قاعدة عامة لهم ولآمثالهم.

(ومنها غير ذلك ...)

قل لنا بربك: لو ظفرت في كلام البشر بواحدة من هذه التصرفات، ففي أي أسلوب غير أسلوب القرآن تظفر بهذه المجموعة أو بما يداريها، في هذا القدر أو في ضعفيه من الألفاظ؟

وإليك مثال آخر في المعنى نفسه:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَرَى يَمِّنَ إِنْ أَتَكُمْ عَذَابًا، بَيْتًا أَوْ نَهَارًا مَّا ذَا يَسْعَى جُلُّ مِنْهُ أَمْمَ إِذَا مَا وَقَعَ عَامِنْ بِهِ، إِلَّا كُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَعَاجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١].

يقول الله تعالى: نبيوني عن حالكم إن جاءكم العذاب بغتة في ليل أو نهار ماذا أنت يومئذ صانعون؟ إنكم هنالك بين أمرتين: فإذا الإصرار على ما أنت عليه الآن من تكذيب واستعجال؛ وإما الإيمان. فأيهما تختارون؟ «أ تستعجلون» بالعذاب يومئذ كما تستعجلون به اليوم؟ كلا، فإنكم مجرمون، وكيف يتسوق المجرم لرؤيه العذاب الذي إن جاء فهو لا محالة مُواقعه؟ ثم نبيوني أي نوع منه تستعجلون؟ فإنه ليس نوعاً واحداً بل هو ألوان وفنون. «أم» أنت اليوم تكذبون ثم إذا وقع بعد حين آمنت به؟ ألا إنه لن ينفعكم يومئذ إيمانكم بعد أن ماطلتكم وسوقتم حتى ضيعتم الفرصة وفاتكم وقت التدارك. بل هنالك يقال لكم تنديمًا وتحسيراً: الآن تؤمنون وقد كتتم به تكذبون وتستعجلون!!

هذا هو المعنى في ثوبه الطبيعي .

فانظر كم من كلمة وكم من جملة طويت في صدر الكلام وفي شقيقه؟ وكيف أنها حين طويت لم يترك شيء منها إلا وقد جعل في اللفظ مصباح يكشف عنه ومفتاح يوصل إليه؟ فوضع استفهماءين متقابلين في الكلام دل على أن هنالك استفهماماً جامعاً لهما مردداً بينهما ، يقال فيه :

ماذا تصنعون ، وأي الطريقين تسلكون؟

والاستفهام عن الصنف المستعجل به من العذاب دل على استفهام تمهيدي قبله عن حصول أصل الاستعجال. وكلمة «المجرمون» دلت على استحالة هذا الشق من الترديد. وكلمة «ثم» العاطفة دلت على المعطوف عليه المطوي بينها وبين الهمزة. ولفظ الظرف «الآن» دل على عامله المقدر. وقس على ذلك سائر المحنوفات .. حتى إن مدة الاستفهام الداخلة على هذا الظرف قد دلت على طول مدة التسويف الذي منع من قبول إيمانهم؛ لأنهم ^{عُمِّرُوا} ما يتذكر فيه من تذكّر.

فمن ذا الذي يستطيع أن يجري في هذا المضمار شرفاً أو شرفين ثم لا تضطرب أنفاسه، ولا تكتبو به ركائب البيان وأفراصه؟
اللهم إن من دون ذلك لشقة بعيدة وسفرًا غير قاصد. وإن في دون ذلك لحداً للإعجاز.

القرآن في سورة سورة منه

«الكثرة» و«الوحدة»:

هذا الذي حدثناك عنه من عظمة الثروة المعنوية في أسلوب القرآن على وجاهة لفظه، يضاف إليه أمر آخر، هو زينة تلك الشروة وجمالها، ذلك هو تناقض أوضاعها، وائلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها.

وأنت قد تعرف أن الكلام في الشأن الواحد إذا ساء نظمه انحلت وحدة معناه، فتفرق من أجزائها ما كان مجتمعاً، وانفصل ما كان متصلةً؛ كما تتبدد الصورة الواحدة على المرأة إذا لم يكن سطحها مستوياً، أليس الكلام هو مرآة المعنى؟ فلا بد إذا لإبراز تلك الوحدة الطبيعية «المعنوية» من إحكام هذه الوحدة الفنية «البيانية». وذلك بتمام التقريب بين أجزاء البيان والتأليف بين عناصره؛ حتى تتماسك وتعانق أشد التماسك والتعاونق.

وليس ذلك بالأمر الهين كما قد يظن الجاهل بهذه الصناعة؛ بل هو مطلب كبير «يحتاج» مهارة وحذقاً ولطف حس في اختيار أحسن الموضع لتلك الأجزاء: أيها أحق أن يجعل أصلًا أو تكميلًا، وأيها أحق أن يبدأ به أو يختتم أو يتبرأ مكاناً وسطاً؟ «ثم يحتاج» مثل ذلك في اختيار أحسن الطرق لمزجها بالإسناد أو بالتعليق، أو بالعطف، أو بغيرها، هذا كله بعد التلطف في اختيار تلك الأجزاء نفسها، والاطمئنان على صلة كل منها بروح المعنى، وأنها نقية من

الخشو، قليلة الاستطراد، وأن أطراها وأوساطها تستوي في ترامتها إلى الغرض، ويستوي هو في استهدافه لها، كما تستوي أبعاد نقط الدائرة بالقياس إلى المركز، ويستوي هو بالقياس إلى كل منها.

تلك حال المعنى الواحد الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالاً طبيعياً.

فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها، المنفصلة بطبيعتها؟ كم من المهارة والصدق، بل كم من الاقتدار السحري يتطلبه التأليف بين أمزجتها الغريبة واتجاهاتها المتتشعبة؟ حتى لا يكون الجمع بينها في الحديث كالجمع بين القلم والحناء والمنشار والماء؛ بل حتى يكون لها مزاج واحد واتجاه واحد، وحتى يكون عن وحداتها الصغرى وحدة جامعة أخرى.

إنه من أجل عزة هذا المطلب نرى البلوغ وإن أحسنا وأجادوا إلى حد ما في غرض غرض، كان منهم الخطأ والإساءة في نظم تلك الأغراض كلاً أو جلاً، «فالشعراء» حينما يجيئون في القصيدة الواحدة بمعانٍ عدة، أكثر ما يجيئون بها أشتاناً لا يلوى بعضها على بعض، وقليلًا ما يهتدون إلى حسن التخلص من الغرض إلى الغرض، كما في الانتقال من النسب إلى المدح .. «والكتاب» ربما استعاناً على سد تلك الشغرات باستعمال أدوات التنبيه أو الحديث عن النفس؛ كقولهم: ألا وإن - هذا ولكن - بقي علينا - نعود - ولننتقل - قلنا - وسنقول. هذا شأن الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد في المجلس الواحد. فكيف لو قد جيء بها في ظروف مختلفة وأزمان متباينة؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعاً، والهوة بينها أعظم اتساعاً؟

فإن كنت قد أعجبك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه، حيث الموضوع واحد بطبيعته، فهلماً إلى النظر في السورة منه حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة، لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز.

أليست تعلم أن ما امتاز به أسلوب القرآن من اجتناب سبيل الإطالة والتزام جانب الإيجاز -بقدر ما يتسع له جمال اللغة- قد جعله هو أكثر الكلام افتناً، يعني أكثره تناولاً لشئون القول وأسرعه تنقلاً بينها^(١)، من وصف، إلى قصص،

(١) والأعجب أنه مع كونه أكثر الكلام افتناً وتنوعاً في الموضوعات، هو أكثر افتناً وتلويناً في

إلى تشريع، إلى جدل، إلى ضروب شتى، بل جعل الفن الواحد منه يتشعب إلى فنون، والشأن الواحد فيه تنطوي تحته شئون وشئون.

أو لست تعلم أن القرآن -في جل أمره- ما كان ينزل بهذه المعاني المختلفة جملة واحدة، بل كان ينزل بها آحاداً مفرقة على حسب الواقع والداعي المتتجدة، وأن هذا الانفصال الزماني بينها؛ والاختلاف الذاتي بين دواعيها، كان بطبيعته مستتبعاً لأنفصال الحديث عنها على ضرب من الاستقلال والاستئناف لا يدع بينها متزعاً للتواصل والترابط؟

ألم يكن هذان السبيان قوتين متظاهرتين على تفكيك وحدة الكلام وتقطيع أوصاله إذا أريد نظم طائفة من تلك الأحاديث في سلك واحد تحت اسم سورة واحدة؟

= الأسلوب في الموضوع الواحد. فهو لا يستمر طويلاً على نمط واحد من التعبير، كما أنه لا يستمر طويلاً على هدف واحد من المعاني، ألا تراه كما ينتقل في السورة الواحدة من معنى إلى معنى يتنقل في المعنى الواحد بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، واسمية وفعالية، ومضي وحضور واستقبال وتكلم وغيبة وخطاب؛ إلى غير ذلك من طرق الأداء، على نحو من السرعة لا عهد لك بمثله ولا بما يقرب منه في كلام غيره قط. ومع هذه التحولات السريعة المستمرة التي هي مظنة الاختلاط والاضطراب، بل مظنة الكبواة والعثار، في داخل الموضوع أو في الخروج منه، تراه لا يضطرب ولا يتعثر، بل يحتفظ بتلك الطيقة العليا من متانة النظم وجودة السبك حتى يصوغ من هذه الأغانين الكثيرة مظراً مؤلماً. فأي امرئ يحسن العربية وينظر في نظم القرآن هذه النظرة ثم لا يرى فيه من أثر القدرة الباهرة سرّاً من أسرار التحدي والإعجاز؟!

وأنت فقد تسمع بعض المبدئين في تذوق جمال القرآن والبحث عن منابع جماله يتساءلون: ما سر تلك الحال النفسية التي يجدها تالي القرآن وسامعه من طراوة وتجلد في نشاطه مع كل مرحلة منه، حتى لا يعرف الملل مهما أمعن السير فيه؟ فنبئهم أن تلك الظاهرة العجيبة لها في القرآن منابع جمة قدأشير قبل إلى طرف منها «فيما تقدم لنا من الحديث عن خاصة القرآن الصوتية».

وهذه الخاصة التي نشير إليها فيها منبع آخر أعمق وأغزر، غير أنه لا يقدرهما حق قدرها إلا من نظر في كلام البلغاء ووقف على مبلغ افتناهم في أساسليتهم وملبغ افتنانهم في أغراضهم، ثم جاء ليتدبر هاتين الناحيتين من نظم القرآن. فهناك يرى نفسه أمام نهاية لم يجاوز البلغاء بدايتها، إذ يرى أنه لا ينتقل فيه من خطوة إلى خطوة إلا استعرض في الخطوة التالية من مذاهب المعنى وألوان الأسلوب جديداً إثر جديد. فكيف يعرف الملل سبيلاً إلى قلبه مع دوام هذه النظرة والتتجدد؟ كل امرئ يستطيع أن يجرؤ نفسه حين يطول به الوقوف أمام منظر واحد جميل، هل يجد لديه من هزة الاستحسان في هذا الاستمرار ما يجعله لو اعترض سلسلة من المناظر الرائعة قد صنفت فيها ضروب الفوائد والمتع، ثم جعلت تمر به منوعة في أبدع تنسيق وأحسن تقويم؟ اللهم، لا. فذلك كذلك.

خذ بيديك بضعة متون كاملة من الحديث النبوى كان التحدى بها في أوقات مختلفة، وتناولت أغراضًا متباعدة؛ أو خذ من كلام من شئت من البلوغ بضعة أحاديث كذلك. وحاول أن تجيء بها سرداً لتجعل منها حديثاً واحداً. من غير أن تزيد بينها شيئاً أو تنقص شيئاً. ثم انظر:

كيف تتناكر معانيها وتتناقض مبانيها في الأسماء والأفهام! وكيف يبدو عليها من الترقيق والتلقيق والمفارقة ما لا يبدو على القول الواحد المسترسل!



وسبب ثالث كان أجدر أن يزيد نظم السورة تفكيرًا ووحدتها تمزيقاً. ذلك هو الطريقة التي اتبعت في ضم نجوم القرآن بعضها إلى بعض، وفي تأليف وحدات السور من تلك النجوم. وإنها لطريقة طريفة سنريك فيها العجيبة الثالثة الكبرى التي خرجت بهذا التأليف القرآني عن طبيعة التأليف الإنساني، فتعال وانظر!

انظر إلى الإنسان حين يزاول صناعة ما من صناعاته التركيبية. ألا تراه يبدأ عمله دائمًا بتعرف أجزاء المركب ومقوماته، والوقوف على عناصره ومتتماته، قبل أن يبت الحكم في تحديد موقع كل جزء منها؟ هاتان مراحلتان تتنزل الثانية منها منزلة الصورة من مادتها. فلا جرم أن عكس القضية فيما لا يكون إلا سيراً بالعقل البشري في غير سبيله، وإدلاجاً به في منزلة لا قرار للإقدام عليها، ولا هدى للسلوك فيها. وهل رأيت أحداً سلك هذه السبيل المؤتفكة، ثم استقام له الأمر عليها إلى نهايته^(١)؟

(١) نقول: هل رأيت عاقلاً تعجل بالقضاء في تحديد الموقع لجزء جزء من صنته قبل أن يحيط بسائر أجزائها علمًا؟ وهل تراه لو فعل يكون قضاة في هذا الترتيب قضاءً مبرراً؟ ثم هل تراه لو أصر على هذا الترتيب يتم له ما يشتتهي لصنعته من نظام محكم؟، كلا، إن العاقل لو قام بهذه التجربة في بعض الأجزاء نزولاً على البدائية الحاضرة فإنما يتخذها تعلة وقية، ربما يجد له عنصر آخر أحق بهذه الرتبة أو تلك؛ ثم لا يلبث أن يعود إلى الأول ليقصيه عن مكانه قليلاً أو كثيراً، أو ليفصله عن هذه المجموعة إلى مجموعة أخرى، أو ليجعله كلاً قائماً برأسه .. وهكذا لا يزال يقلب وجوه الرأي في نظام تلك المواد، حتى إذا ما فرغ منها جمعاً وتحصيلاً، وانكشفت له جملة وتفصيلاً، فهناك فقط يستطيع أن يقر كل جزء في مستقره الأخير، وأن يعطي المركب صيغته النهاية. وكل ترتيب تأخذه الآحاد =

بل انظر إلى الإنسان حين يأخذ في ترتيب أجزاء المركب بعد جمعها. ألا تراه خاضعاً لسنة السير الطبيعي التي يخضع لها كل سائر إلى غرض ما؛ حسي أو عقلي؟ فهو إن قطع سبيله خطوات لم يستطع أن يجتاز أخراها قبل أولها، وإن صعد فيه درجات لم يستطع أن يؤخر أسفلها عن أعلىها.

تلك حدود رسمتها قوانين الفطرة العامة، فلا يستطيع أحد أن يتخطاها. سواء في صناعاته المادية أو المعنوية. فالبناء والحانك والكاتب والشاعر في هذه الحدود سواء.

ونضرب لك مثلاً:

قدر في نفسك أن رجلاً نزل وادياً فسيحاً ليس عليه بنيان قائم، وليس به شيء من مواد البناء وأنقاضه، فما ليث أن أحس ببرحة أرضية أو عاصفة سماوية، وإذا قمة الجبل تنصلع قليلاً فتلقي بجانبه صخراً أو بضعه صخور.. ثم تمضي فترة طويلة أو قصيرة، وإذا هزة ثانية أو ثالثة تلقي إليه شظيات من الحديد والحمم، أو نُثارات من الفضة والذهب.. أترى أن هذا الرجل أو أن أحداً من العقلاء يستطيع منذ اللحظات الأولى أن يضع تصميمه على إقامة مدينة جامدة من تلك المواد المتشربة ومما عساه أن يجيء من أمثالها؟ وأن يبدأ بالعمل في مهمة التخطيط والبيان؟ فما يدريه لعل هذه الظواهر لا تتكرر أمامه نزلة أخرى، ثم ما يدريه أنها إن عادت كم مرة تعود، وما نوع المادة التي تساقط معها في كل مرة، وكم عدة القطع في كل مادة من هذه المواد، وكم عدة الأبنية التي يمكن إقامتها منها، وما النظام الهندسي الخاص بكل بناء: سعة وارتفاعاً ونقشاً وزخرفاً، وما ذرع الفضاء الذي ستشغله هذه الأبنية جملة؟..

في هذا الجو المملوء غموضاً وإبهاماً لا يجرؤ عاقل أن يغامر بتصميمه في بناء كوخ حقير، فضلاً عن بلد كبير، فضلاً عن أن يهب من فوره لإنفاذ عزمه فيمضي في مهمة البناء منذ وصلت إليه تلك اللبنات الأولى.

= قبل ذلك فإنه لا يجمعها إلا تلفيقاً، ولا يعطيها إلا صورة شوهاء، وكذلك كل نظام أقيم على غير أساس العلم المفصل بأجزاء المنظوم فأحرى به أن يكون مثلاً للضعف والاختلال. وإن بقي اليوم قائماً لم يليث أن ينهار غداً.

ولئن افترضت إنساناً غامر هذه المغامرة، وأن المقادير سارعت في هواه، وأسعفته بما شاء من مواد البناء الذي تخيله وتمناه، أتراه يعمد إلى مخاطرة أخرى؟ فيتخد له في البناء أسلوباً يُراغم به قانون الطبيعة، بأن يؤلي على نفسه إلا يدع لِبنة تصل إلى يديه إلا أنزلها -في ساعة وصولها- منزلها الخلق بها حيث كان؟ ذلك على حين أن تلك اللبنات لم تتتساقط إليه متجانسة مرتبة على ترتيبها في وضعها المنتظر، بل جعلت تتناثر خفافاً وثقلاً، مختلفاً ألوانها وأحجامها وعناصرها وطاقاتها، فربما وقعت له الزخارف والشرفات، قبل أن تقع له بعض القواعد والمسافات، وربما وقعت له على التوالي أجزاء ناقصة لتوسيع في أماكن متفرقة من أبنية متنائية، أفلأ تراه إن ذهب يضع كل جزء ساعة نزوله في موضعه المعين لم يجد مناسقاً من أن يبدد أجزاء البناء هنا وهنا على أبعاد غير متساوية ولا متناسبة، فيقارب بينها طوراً ويباعد طوراً، ويعلو بها تارة وينزل تارة أخرى، حتى لقد يبني أعلى البيت قبل أسفله، ويمسك المحمول معلقاً بدون حامله.

فكيف يطيق بشرٌ كائناً من كان أن يضطلع بهذه المهمة؟ ثم كيف يمضي قدماً في هذا الأمر إلى نهايته، فلا يعود إلى جزء ما ليزيله عن موضعه الذي أحله فيه أول مرة، أو ليلتجيء فيه إلى كسر أو نحت أو حشو أو دعامة؟ ثم كيف تكون عاقبة أمره أنه في الوقت الذي يضع فيه آخر لبنة على هذا المنهاج يرفع يده عن مدينة منسقة ليس فيها قصر ولا غرفة ولا لبنة ولا جزء صغير ولا كبير إلا وقد نزل منزله الرصين الذي يرتضيه ذوق الفن، حتى لو تبدل واحد منها مكان غيره لاختل البنيان أو ساء النظام؟ أليس ذلك إن وقع يكون تحدياً للقدرة البشرية جماء؟

ألا فقد وقع مصداق هذا المثل في مسألتنا. إليك البيان:

«أما» الرجل فهو هذا النبي الأمي صلوات الله عليه.

«وأما» المدينة الجامعة التي شرع في بنائها منذ وقعت له لبناتها الأولى فذلك الكتاب العزيز الذي أخذ هو منذ وصلت إليه باكوره رسائله يرتب أجزاءه ترتيب الواشق المطمئن إلى أنه سيكون له منها ديوان تام جامع.

«واما» القصور، والغرفات، واللبنات، فهي أجزاء هذا الديوان: من السور، والنجموم، والآيات.

«وأما» تلك العوامل الفجائية التي جعلت تستنزل من مختلف معادن الجبال ما ركبت منه هذه القصور المشيدة فتلك هي الأحداث الكونية والاجتماعية، والمشاكل الدينية والدنيوية التي كانت تعترض الناس آناً بعد آن في شؤونهم العامة والخاصة، فكان يتقدم بها المؤمن منهم مستفتياً ومسترشداً، والمكذب مستشكلاً ومجادلاً، وكان على وفق ذلك يتنزل الكلام نجماً فنجماً، بمعانٍ تختلف باختلاف تلك المناسبات والمواضع، وبمقادير تتفاوت قلة وكثرة، وعلى طرق تتتنوع ليناً وشدة .. ومن هذه النجوم المختلفة المترفرفة صارت تتألف تلك المجاميع المسماة بالسور، لا على أساس التجانس بين أجزاء كل مجموعة منها، بل على أن يأوي إلى الحظيرة الواحدة ما شئت من فصائل الجنس الواحد والأجناس المتغيرة.

«واما» الطريق العجب الذي اتبع في تأليف تلك الأبنية من أجزائها - وهو السبب الثالث الذي رفع المسألة من حد العسر إلى حد الإحالة - فهو أن ذلك الذي نزل عليه الذكر لم يتربص بترتيب نجومه حتى كملت نزولاً، بل لم يتربص بتتأليف سورة واحدة منه حتى تمت فصولاً، بل كان كلما أقيمت إليه آية أو آيات أمر بوضعها من فوره في مكان مرتب من سورة معينة. على حين أن هذه الآيات والسور لم تتخذ في ورودها التنزيلي سبيلها الذي اتبعته في وضعها الترتيبي؛ فكم من سورة نزلت جميعاً أو أشانتاً في الفترات بين النجوم من سورة أخرى، وكم من آية في السورة الواحدة تقدمت فيها نزولاً وتأخرت ترتيباً، وكم من آية على عكس ذلك.

نعم، لقد كان للنجوم القرآنية في تنزيلها وترتيبها ظاهرتان مختلفتان، وسيبياناً قلماً يلتقيان، ولقد خلص لنا من بين اختلافهما أكبر العبر في أمر هذا النظم القرآني .

فلو أنك نظرت إلى هذه النجوم عند تنزيلها، ونظرت إلى ما مهد لها من أسبابها، فرأيت كل نجم رهيناً بنزل حاجة ملحة، أو حدوث سبب عام أو خاص، إدأً لرأيت في كل واحد منها ذكرًا محدثًا لوقته، وقولًا مرتجلًا عند باعثته، لم يتقدم للنفس شعور به قبل حدوث سببه. ولرأيت فيه كذلك كلاً قائماً بنفسه لا يترسم نظاماً معيناً يجمعه وغيره في نسق واحد.

ولو أنك نظرت إليها في الوقت نفسه فرأيتها وقد أعدَّ لكل نجم منها ساعة نزوله سياج خاص يأوي إليه سابقاً أو لاحقاً؛ وحدد له مكان معين في داخل ذلك السياج متقدماً أو متأخراً^(١) إِذَا لرأيت من خلال هذا التوزيع الفوري المحدود أن هنالك خطة تفصيلية شاملة قد رسمت فيها موقع النجوم كلها من قبل نزولها، بل من قبل أن تخلق أسبابها، بل من قبل أن تبدأ الأطوار الممهدة لحدوث أسبابها، وأن هذه الخطة التي رسمت على أدق الحدود والتفاصيل قد أبرمت باكدا العزم والتصميم: فما من نجم وضع في سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها، وما من نجم جُعل في مكان من السورة آخرأ أو أولاً، ثم وجد عنه أبد الدهر مصرفًا ولا متحولاً.

وهنا تقف موقف الحيرة في أمرك، وتکاد تنكر ما تحت سمعك وبصرك، ثم ترجع إلى نفسك تسائلها عن وجه الجمع بين ما رأيت وما ترى: «أليس هذا التنزيل قد سمعته الآن جديداً وليد يومه، ووحيداً رهين سببه؛ فما لي أراه ليس جديداً ولا وحيداً؟ لكانني به وبالقرآن كله كان ظاهراً على قلب هذا الرجل قبل ظهوره على لسانه، وكان على هذه الصورة مؤلفاً في صدره قبل أن يؤلفه بيانيه. وإنما بالله يؤلف هذا التأليف بين آحاد لا تتداعى إلى الاجتماع بطبعاتها؟ لماذا لم يذرها كما جاءت فرادى منشورة؟ وهلا إذ أراد جمعها أدخلها كلها في مجموعة واحدة؟ أو هلا قسمها إلى مجاميع متساوية أو متجانسة؟ ترى على أيه قاعدةبني توزيعها وتحديد أوضاعها هكذا قبل تمامها أو تمام طائفة منها؟ هل عسى أن تكون هذه الأوضاع كلها جارية على محض المصادفة والاتفاق؟ كلا، فقد ظهر في كل وضع منها أنه مقصود إليه بعينه، كما ظهر القصد في كل طائفة أن تنتظم منها وحدة محدودة ذات ترتيب ومقدار بعينه .. أم هل عسى أن تكون هذه الأوضاع - وإن قصدت - ليست وليدة تقدير سابق، وإنما هي تجربة اختبارية

(١) فترى هذا النجم مثلاً يؤمر به عند نزوله أن يوضع في ختام سورة كذا، والنجم الذي بعده يؤمر به أن يجعل في أثناء تلك السورة نفسها على رأس عدد محدود من آيتها. وهذا يجعل صدراً لسورة تأتي بعد حين، والذي يليه يأخذ جانباً من سورة مضت منذ حين .. وهلم جرا.

أشمرتها فكرة وقتية؟ -كلا، فإن واضعها حين وضعها قد ضربها ضربة لازب، ثم لم يكر عليها بتبديل ولا تحويل. فعلام إذاً بنى ذلك القصد وهذا التصميم؟ .

ولن يكون الجواب الذي تسمعه من نفسك لو أصاحت إلى بديهة العقل إلا أن تقول :

إنه لا يجرؤ في قراره الغيب على وضع هذه الخطة المفصلة المصممة إلا أحد اثنين: جاهل جاهم في حضيض الجهل؛ أو عالم عالم فوق أبواب العقل.
لا ثالث.

«فاما» إن كان فرغ من نظام تأليفها وصورة تركيبها من قبل أن يستحكم له العلم بأسباب ذلك ومقاصده وأدباره وعواقبه، وإنما بنى أمره على الظن والتحسّن وعلى التخيّل والتمني، فذلك امرؤ بلغت به الجرأة على نفسه أن أعلن ملك ما لا يملكه وادعى علم ما ستكتشف الأيام عن جهله. وما عليك إلا أن تتربيص به قليلاً لترى بطلان أمره وفساد صنعته، ففيهات أن يلد الجهل نظاماً جارياً، وإحکاماً باقياً.

«واما» إن كان قد فصلها على علم وبصر، وأعطى كل جزء منها موقعه بميزان وقدر، فلا ريب أن سيكون نظامها مثال الإتقان وأية الجمال، ولكن واضعها إذاً لا يمكن أن يكون هو هذا الإنسان؛ إلا أن يكون قد استمدّها من أفق أعلى من أفق نفسه ومحيط أوسع من محيط علمه؛ إذ أنّي للإنسان وهو هذا المحكوم بطبيعة الدهر أن يكون عليها متحكمًا؟ أم كيف يتهمأ له وهو في جهله العتيد بمقدّمات عمله أن يكون بنتائجها التفصيلية عالماً؟ أفيكون بالشيء الواحد جاهلاً وعالماً معًا؟ أم يكون من وجه واحد حاكماً ومحكومًا معًا؟

وهل رأيت أو سمعت أن أحداً من الكتاب أو الشعراء استطاع في مفتاح حياته الأدبية أن يحصي كل ما سيجيء على لسانه من جيد الشعر أو النثر في المناسبات المتنوعة إلى آخر عهده بالدنيا، وأن يضع من أول يوم منهاجاً لديوانه المنتظر، يفصّله تفصيلاً لا يقنع فيه بتقدير أبوابه وفصوله حتى يقدر لكل باب عدة ما يحويه من خطاب أو قصيدة، ويحدد لكل واحد من هذين مكاناً معلوماً لا يستقدم عنه ولا يستأخر، حتى إذا جاء عند داعيته رده إلى مكانه غير متثبت ولا متوقف، ثم

ينجح في هذه التجربة نجاحاً مطربداً تنفذ فيه أحكامه وتحقق به أحلامه، فيستقيم له النسق بين هذه المقطوعات كلها ، من غير أن يقدم فيها شيئاً أو يؤخر شيئاً ، ومن غير أن يزيد فيها أو ينقص شيئاً .

«العمري» لئن صح هذا الفرض في أحد من البشر لصح مثله في نبي القرآن ﷺ ولكن الإنسان هو الإنسان. ومن لم يحط علماً بما سيعرضه في دهره من بواعث القول وفنونه فهو عن الإحاطة بنصوص هذا القول أبعد، وهو عن الإحاطة بمراتب هذه النصوص أشد بعدها . بل الإنسان حين تحفذه باعثة القول وترد إليه سانحته لا يدرو فيها إحدى خطتين: فهو «إما» أن يدعها كما هي سانحة منعزلة . وكذلك يفعل في أمثالها ، حتى إذا بلغ الغاية رجع أدراجه فأخذ فيها جمعاً وتفريقاً، وتبويباً وترتيباً . «إما» أن يأخذ في ضم هذه النصوص ولاة على وفق ورودها الأول فالأول . أما الثالثة وهي أن يجعلها هكذا «عزين». ولا يزال يظاهرها من قريب وبعيد، عن أيمانها وعن شمائلها وفي خاللها ، بهذه الطريقة المحددة، وبهذه الطريقة المشتتة المعقنة ، على أن يجعل المكان الذي أحل كل سانحة فيه مكاناً مسجلاً لا تحول عنه ولا تزول . ثم يطبع أن يخرج له بتلك الصنعة ديوان كامل التقسيم والتبويب، جيد التنسيق والترتيب، مترابط مت Manson في جملته وتفصيله، كلمة كلمة وحرف حرفاً، فتلك أمنية لا يظفر المرء منها إلا بعكس ما تمنى» .

ها أنت ذا قد عرفت نهج التأليف الإنساني في صنعة البيان وغير البيان . ورأيت بعد ما بينه وبين نهج التأليف في نجوم القرآن . وعرفت ماذا كان يجب أن يحدث في النظم القرآني من جراء هذا النهج العجيب . في أسباب ثلاثة^(١) من شأنها ألا يستقيم بها للكلام طبع . ولا يلائم لها معها شمل .

فانظر الآن هل استطاعت هذه الأسباب على تضافرها أن تناول شيئاً من استقامة النظم في السور المؤلفة على هذا النهج؟

(١) عناصر معنوية مختلفة .

ظروف زمانية منفصلة .

أوضاع تأليفية عجلى ومشتتة .

أما العرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا في نظم سورة منها مطمعاً لطامعاً، بله مغمزاً لغامزاً، لكان لهم معه شأن غير شأنهم . وهم هم .

وأما البلوغاء من بعدهم فما زلنا نسمعهم يضربون الأمثال في جودة السبك وإحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن إلى فن .

وأما أنت فأقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأي يد وضع بنائه؟ وعلى أي عين صنع نظامه؟ حتى كان كما وصفه الله ﴿فَرُّؤَا نَّا عَرِّيَّا عَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] .

اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها في القرآن ، فهي جمهورته - وتنقل بفكيرتك معها مرحلة مرحلة ، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدئت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدواجت مقدماتها بنتائجها ووطئت أولاهما لا خرها؟ ..

وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البة في نظام معانيها أو مبنيتها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى . ولسوف تحسب أن السبع الطول^(١) من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة ، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها^(٢) قد نزلت نجوماً . أو لتقولن : إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع؛ كمثل بنيان كان قائماً على قواعده فلما أريد نقله بصورةه إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبنياته ، ثم

(١) وإذا كانت هذه السور على طولها وكثرة نجومها لا يبدو عليها انفصال النظم ، فيما ظنك بما دونها إلى سور المفصل؛ حيث جرى التنجيم حتى في بعض القصار منها ، كالضحي ، واقرأ ، والماعون ، التي نزلت كل واحدة منها مفرقة على نجمين .

(٢) هذا الترديد ناظر إلى اختلاف المفسرين في سورة الأنعام ، ومذهب الجمهور أنها نزلت جملة واحدة ، وقد روى الطبراني وغيره ذلك عن ابن عباس موقوفاً عليه ، وروى عن أبي بن كعب مرفوعاً بسند فيه ضعف على أنه لو صح ما ذهب إليه الجمهور في هذه السورة وكانت من جملة الشواهد على اتحاد طريقة النظم في المنجمات وغيرها ، لأن نظام الانتقال بين المعاني في سورة الأنعام مثله في السور المتفق على تنجيمها ، سواء .

فرق أنقاضاً فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضًا كهيئته أول مرة.

أجل، إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضاعاً من المعاني حشيت حشوأ، وأوزاعاً من المبني جمعت عفواً؛ فإذا هي -لو تدبرت- بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أساس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصير أو تطول؛ فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامن والالتحام. كل ذلك بغير تكلفة ولا استعاناً بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السيادة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلة، والمختلف مُؤْتَلِفاً.

ولماذا نقول: إن هذه المعاني تنسق في السورة كما تنسق **الحُجُّرات** في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتجم فيها كما تلتجم الأعضاء في جسم الإنسان، فيين كل قطعة وجارتها رباط موضعى من أنفسهما، كما يلتقي العظامان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوسائل تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرابين والعروق والأعصاب؛ ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتوادي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاونون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية.

فيما ليت شعري: إذا كانت كافة الأجزاء والعناصر التي تتألف منها وحدة السور منوطة بأسباب لم تكن كلها واقعة ولا متوقعة، وكان لا بد لتمام هذه الوحدة من قوع تلك الأسباب كلها في عصر نزول القرآن ليتناولها ببيانه، فما الذي أخضع دورة الفلك لنظام هذه الوحدات وجعل هذه النوازل تتوارد بأسرها في إيان التنزيل؟ لماذا لم يتفق في حادثة واحدة منها أن تخلفت عن عالم الوجود يومئذ ليختerm هذا النظام، فتجيء سورة من سور مبتورة في مفتحتها أو في مختتمها

أو فيما بين ذلك؟ أليس مطاوعة تلك الأحداث الكونية ومعاونتها بدقة دائمًا لنظام هذه الوحدات البينية، شاهدًا واضحًا على أن هذا القول وذاك الفعل كانا يجيئان من طريق واحدة، وأن الذي صدرت هذه الكلمات عن علمه، هو نفسه الذي صدرت تلك الكائنات عن مشيته^(١)؟

بل ليت شعري لو أن هذا الإنسان الغريب الذي جاء القرآن على لسانه كان قد أحصى ما سوف يلده الزمان من مفاجآت الحوادث المستقبلة صغيرة وكبيرة في مدى دهره، ثم قدر ما سوف تتطلبه تلك النوازل من تعاليم الفرقان، فما علمه بالنظام البيني الذي ستوضع عليه صيغة تلك التعاليم؟ ثم ما علمه أي هذه التعاليم سيكون قرينة لهذا الجزء أو ذاك؟ ليتأهب لتلك القرائن قبل ورودها فيودع في كل جزء ساعة نزوله عروة لائقة بقرينته المعينة، حتى إذا قدمت استمسكت بعروتها فازدواجت بقرينهما ذلك الازدواج المحكم؟ ولماذا حين وردت كل قرينة وجدت من قرينهما جارًا لا يجور ولا يجار عليه، ووجدت بجانبه المكان الذي ينتظراها، لا ضيقًا فيزاحمهما ويترسم بها، ولا واسعًا فتنقطع الصلة بينهما، بل وجدته مقدارًا بمقدارها، حتى لا حاجة إلى الاستدراك على الماضي بمحو حرف، ولا بزيادة حرف، ولا بتبدل وضع، وحتى لا مجال هنا لقول: «ليت ...» ولا «لو إن ...».

بل كيف عرف كل جزء من هذه الأجزاء أين مجموعته، وأين مستقره بينها في رأس أو صدر أو طرف: من قبل أن تتبين سائر الآحاد والفصائل .. حتى إذا تم توزيع تلك الأجزاء المتفرقة، والأشلاء الممزقة، إذا الستار يرتفع في كل سورة عن دمية حسناء كاملة الأعضاء متناسقة الحلبي؟

أي تدبير محكم، وأي تقدير مبرم، وأي علم محيط لا يضل ولا ينسى، ولا يتزدد ولا يتمكث؛ كان قد أعد لهذه المواد المبعثرة نظامها، وهذاها في إبان تشتيتها إلى ما قدره لها، حتى صيغ منها ذلك العقد النظيم، وسرى بينها هذا المزاج العجيب؟

(١) قل كل من عند الله سبحانه، لا معقب لحكمه، ولا مبدل لكلمته.

سبحان الله! هل يمترى عاقل في أن هذا العلم البشري؛ وأن هذا الرأي الأنف البدائي الذي يقول في الشيء: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لقلت أو فعلت، ولقدمت أو أخرت» لم يك أهلاً لأن يتقدم الزمان ويسبق الحوادث بعجيب هذا التدبير؟ أليس ذلك وحده آية بينة على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع بشر، وإنما هو صنع العليم الخبير؟ بلـي؟ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ أَخْلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

أما إن طلبت شاهداً من العيان على صحة ما أصلناه في هذا الفصل من نظام **الوحدة** الوجودان في السور على كثرة أسباب اختلافها، وأما إن أحببت أن نريك نموذجاً الموضعية في السور القرآنية من السور المتجمعة كيف التأمت منها سلسلة واحدة من الفكر تتلاحق فيها = سورة البقرة الفصول والحلقات، ونسق واحد من البيان تتعانق فيه الجمل والكلمات، فأي شيء أكبر شهادة وأصدق مثلاً من سورة نعرضها عليك هي أطول سور القرآن كافة، وهي أكثرها جمعاً للمعاني المختلفة، وهي أكثرها في التنزيل نجوماً، وهي بعدها في هذا التنجيم تراخيأ.

تلك هي سورة البقرة التي جمعت بضعاً وثمانين ومائتي آية، وحوت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفاً وثمانين نجماً، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً^(١).

واعلم أنه ليس من همنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوسائل اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير. ذلك ولو نشاء لأريناك في القطعة الواحدة منها أسباباً ممدودة عن أيمانها وعن شمائتها تمت بها إلى الجار ذي القربي

(١) ففيها ذكر تحويل القبلة، وذكر صيام رمضان، وذكر أول قتال وقع في الإسلام فنزل بسيبه قوله تعالى: ﴿يَسْتَأْنُوكُمْ عَنِ الْشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وكل أولئك كان نزولهم في أوائل السنة الثانية من الهجرة. وفيها تلك الآية الخاتمة التي نزلت في آخر السنة العاشرة من الهجرة، وهي آخر آية من القرآن بإطلاق: ﴿وَأَئُمُّوا يَوْمًا تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] وفيها ما بين ذلك.

والجار الجنب، في شبكة من العلاقة يحار الناظر إلى خيوطها، مع أيها يتوجه؟
ولا يدرى أيها هو الذي قصد بالقصد الأول.

وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضًا واحدًا نرسم به خط سيرها إلى
غايتها، ونierz به وحدة نظامها المعنوي في جملتها، لكي ترى في ضوء هذا البيان
كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى.

السياسة الرشيدة
في دراسة
النسق القرآني

بيد أنها قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه نحب أن نقول «كلمة» ساق الحديث
إليها: وهي أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا
النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في
الصلات الموضوعية بين جزء جزء منه - وهي تلك الصلات المبسوطة في مثاني
الآيات ومطالعها ومقاطعها - إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء
أجزائها وضبط مقاصدتها على وجه يكون معواناً له على السير في تلك التفاصيل
عن بيته؛ فقدیماً قال الأئمة^(١): «إن السورة مهما تعددت قضایاها فهي كلام
واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما
تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. إنه لا غنى لمفهوم نظم السورة
عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية».

وبهذا تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات
حين يفكرون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين
المناسبات بين أو القضایا المجاورة، غاضبين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضع عليه
الآيات.
دراسة
الناسخة
الآيات

الناسخة في
الآيات

السوارة في
الآيات

مهما عن
الآيات

السوقة في جملتها، فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحب من جور عن القصد،
البحث في وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم؛ وهل يكون مثله في ذلك إلا
كمثال امرئ عرضت عليه حلة موشية دقيقة الوشي ليتأمل نقوشها فجعل ينظر فيها
خيطاً خيطاً ورقعة رقعة، لا يجاوز بيصره موضع كفه، فلما رأها يتجاوز فيها
الخط الأبيض والخط الأسود وخيوط آخر مختلف ألوانها اختلافاً قريباً أو بعيداً

(١) كأبي بكر النيسابوري، وفخر الدين الرازي، وأبي بن العربي، وبرهان الدين البقاعي، وأبي إسحاق الشاطئي وغيرهم. أما النص المذكور هنا فمستبطن من كلمات للشاطئي في المواقفات، في المسألة

الثالثة عشر من الكلام على الأدلة تفصيلاً. وقد عرض فيها سورة «المؤمنون» عرضًا إجمالياً.

لم يجد فيها من حسن الجوار بين اللون واللون ما يروقه ويونقه. ولكنه لو مد بصره أبعد من ذلك إلى طرائف من نقوشها لرأى من حسن التشاكل بين الجملة والجملة، ما لم يره بين الواحد والواحد، ولتبين له من موقع كل لون في مجموعته بإزاء كل لون في المجموعة الأخرى ما لم يتبيّن له من قبل. حتى إذا ألقى على الحلة كلها نظرة جامعة تنتظم أطراها وأواساطها بدا له من تناسق أشكالها ودقة صنعتها ما هو أبهى وأبهر. فكذلك ينبغي أن يصنع الناظر في تدبره لنظم السورة من سور القرآن.

« وكلمة أخرى » تمس إليها حاجة الباحث في النسق إذا أقبل على تلك المناسبات الموضعية بين أجزاء السورة: وهي أن يعلم أن الصلة بين الجزء والجزء لا تعني اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصلات الجنسية حسب، كما ظنه بعض الباحثين في المناسبات، فجعل فريق منهم يذهب في محاولة هذا النوع من الاتصال مذاهب من التكلف والتعسف. وفريق آخر متى لم يجد هذه الصلة من وجه قريب أسرع إلى القول بأن في الموضع^(١) اقتضاباً محضاً؛ جرياً على عادة العرب في الاقتضاب.

ألا إن هذا الرأي بشعبته لأوغل في الخطأ من سابقه^(٢)، وإن الأخذ به على علاته في القرآن لغفلة شديدة عن مستوى البلاغة التي تميز بها القرآن عن سائر الكلام.

(١) بل زعم بعضهم أن الاقتضاب هو الأصل في القرآن كله، نقل السيوطي في الإنقاذه في بحث المناسبة بين الآيات والسور؛ عن أبي العلاء محمد بن غانم أن القرآن إنما وقع على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم. وكذلك نقل عن عز الدين بن عبد السلام أن النظر في مناسبة الآية لا يحسن إلا في القضية التي نزلت على سبب واحد، أما إذا اختلفت الأسباب فالربط بينها ضرب من التكلف؛ لأن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض أ. هـ. وقد خالفهما الأئمة ووهمهما.

(٢) وهو تضييق دائرة البحث في المناسبات بالتماسها بين المعاني المجاورة خاصة. فإذا أضيف إلى ذلك التزام طريق معين في المناسبة وهو أن تكون من قبيل التجانس المعنوي زادت المسألة ضيقاً وحرجاً؛ ولذلك أفضى هذا الرأي بأصحابه إلى أحد الطرفين المذمومين: التكلف أو الخروج.

فلو أن ذاهباً ذهب يمحو تلك الفوارق الطبيعية بين المعاني المختلفة التي يتضمنها القرآن في سورة منه إذا لجرده من أولى خصائصه، وهي أنه لا يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالاً يرده إلى الإطالة المملة. كيف وهو الحديث الذي لا يمل؟

ولو أنه -من أجل المحافظة على استقلال هذه المعاني- ذهب يفرقها، ويقطع أرحامها، ويزيل التداعي المعنوي والنظمي من بينها، إذا لجرده من خاصته الأخرى، وهي أنه لا ينتقل في حديثه انتقالاً طفرياً يخرجه إلى حد المفارقات الصبيانية التي تجمع شتى الأحاديث على غير نظام. والتي لا تدع نفس السامع تستشرف إلى اختتام كلام وافتتاح كلام. كيف وهو القول الرصين المحكم؟

كلا، بل الحديث فيه كما علمت ذو شجون، ولكنه حين يجمع الأجناس المختلفة لا يدعها حتى يبرزها في صورة ممتدة، وحتى يجعل من اختلافها نفسه قواماً لائلاتها. وهذا التأليف بين المختلافات ما زال هو «العقدة» التي يطلب حلها في كل فن وصنعة جميلة، وهو المقياس الدقيق الذي تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق في تلك الفنون والصناعات فإن تقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر الكثيرة أصعب مراساً وأشد عناً منه في أجزاء اللون الواحد والعنصر الواحد.

وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها، فيخرج بذلك محاسنها ومساويتها في أجل مظاهرها، ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحکامها بسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير أو التفريع، أو الاستشهاد أو الاستنباط، أو التكميل أو الاحتراض، إلى غير ذلك. وربما جعل اقتران معنيين في الواقع التاريخي، أو تجاور شيئاً في الوضع المكاني، داعمة لاقترانهما في النظم، فيحسبه الجاهل بأسباب النزول وطبيعة المكان خروجاً وما هو بخروج، وإنما هو إجابة لحاجات النفوس التي تداعي فيها تلك المعاني. فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها، رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر

إما بحسن التخلص والتمهيد. وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع^(١) يتلاقى فيه المتباعدان، ويتصافح به المتقاربان.

وهذه كلها وجوه حسنة لو نظر إليها بين آحاد المعاني لأنّى بعضها عن بعض في إقامة النسق.

على أن روعة النظم القرآني كما علمت لا تقوم دائمًا على حسن التجاوز بين الآحاد، بل ربما تراه قد أتم طائفة من المعاني ثم عاد إلى طائفة أخرى تقابلها، فيكون حسن الموضع في التجاوز بين الطائفتين موجّاً لحسن المقابلة بين الأوائل من كل منها، أو بين الآخرين كذلك لا بين الأول من هذه والآخر من تلك.

وملاك الأمر في ذلك أن تنظر إلى النظام المجموعي الذي وضع عليه السورة كلها كما وصيناك به من قبل. ونحن ذاكرون لك الآن نموذجاً منه لو وضعته نصب عينيك واحتذيه فيسائر سور لكان ذلك نعم الدليل في دراستك. وبالله التوفيق.

(١) ولقد يعرض في هذا الوجه اللغوي أسراراً دقيقة لو سئل المرء البيان عن وجه الحسن فيها لعجز عن وصفه، بل لو سئل أين موضع الوصل منها لصعب عليه تحديده بقاعدة علمية. على أنه لو تناهى تلك الألقاب الأصطلاحية والأسلمة الفضولية وخلّى نفسه ووجودها ثم اتصل بهذه المواضع تلاوة أو استماعاً لما شعر بيها بشيء من الخروج أو الانتقال ينبو عنه الذوق أو يتعثر فيه السمع، بل يحس بيها بروح الاتصال وحالوة الانتقال من قبل أن يهتدى لناحية محدودة أو علة معينة.

ومن طال مزاولته لأساليب الكلام وتذوقه لطعومه حتى رسخت فيه ملكة التمييز بين الجيد منه والرديء وجد من نفسه أهلية هذا الحكم، إن لم يكن على نحو من الاستدلال المنطقي، فعلى ضرب من الاستحسان الفقهي، ولا سيما إن كان ممن يقيت في عروقهم قطرات من الدم العربي، وفي نفوسهم أثارة من الحاسة العربية، فمن أخطأه وجدان هذا الحسن الإجمالي في موضع ما من القرآن فلا يلوم من إلا نفسه، ولا يعجلن بالحكم قبل أن يأخذ أحنته. وليدرك دائمًا أنه بمقاييس ما يجده نحو أسلوب القرآن من استحسان أو توقف إنما يختبر ما في مزاجه اللغوي من صحة أو اعتلال، وما في دراسته اللغوية من نقص أو كمال. وأنه ليس بأذواق القاصرين من المولدين أمثاله تخترق لغة القرآن، كيف وقد درج أهلها الذين سجدوا للبالغة. وكان فيهم الحكم الذي ترضى حكومته هذا. ولكن وقف علم التشريح عن إدراك سر الخلق في بعض الأعضاء الباطنة لعدم الاهتمام لوظيفتها. فهل وسع أحداً من علماء التشريح إلى حين أو طبيعيين أن يحكموا بخلوها عن الحكمة والفائدة؟ كلا، فإنهم لما بهرتهم عجائب الصنعة في سائر أجزاء البدن لم يسعهم في القليل الذي جهلوه إلا أن يعترفوا على الجملة بأن له البتة حكمة لم يكشفها العلم، ثم لا يلبث أن يكتشفها لمن أعانه همة البحث وأيداه التوفيق.

اعلم أن هذه السورة على طولها تتألف وحدتها من: مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة. على هذا الترتيب:

«المقدمة» في التعريف بشأن هذا القرآن^(١)، وبيان أن ما فيه من الهدایة قد بلغ حدًا من الوضوح لا يتزدد فيه ذو قلب سليم. وإنما يعرض عنه من لا قلب له، أو من كان في قلبه مرض.

«المقصد الأول» في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.

«المقصد الثاني» في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

«المقصد الثالث» في عرض شرائع هذا الدين تفصيًّا.

«المقصد الرابع» ذكر الوازع والناظع الديني الذي يبعث على ملازمته تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها.

«الخاتمة» في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم.

رغبتنا إليك أيها القاريء الكريم حين تدرس معنا تفاصيل هذا النسق أن تستظهر بالمصحف بين يديك لتكون من المؤمنين بصحة ما نشير إليه في كل خطوة^(٢).

المقدمة في عشرين آية (١ - ٢٠)

(١) بدئ السورة الكريمة بثلاثة أحرف مقطعة لا عهد للعرب بتضليل مثلها في الإنشاء والإنشاد؛ وإنما عهدوها من القراء الكاتبين في بدء تعليمهم التهجي للناشئين «أ. ل. م».

ومهما يكن من أمر المعنى الذي قصد إليه بهذه الأحرف، والسر الذي وضعت هنا من أجله، فإن تقديمها بين يدي الخطاب مع غرابة نظمها وموقعها من شأنه أن يوحي للأسماع ويوجه القلوب لما يلي هذا الأسلوب الغريب.

(١) عرفت في رأس البحث الأول أن لفظ القرآن يطلق على كله وعلى بعضه، فالإشارة هنا يصح أن تتوجه إلى القرآن جملة، وأن تتووجه إلى سورة البقرة خاصة. وقد أردنا بقاءها على هذا الاحتمال اقتداءً بالنص الكريم: **﴿هَذِهِكَلِمَةُ رَبِّكُمْ﴾**؛ لأن الإشارة فيه على الاحتمال أيضًا.

(٢) سقطت هذه الجملة من طبعة «دار القلم»، وعوض عنها بذكر الآيات!! (عمرو)

(٢) وألحقت بهذه الأحرف الثلاثة جمل ثلاث:

أما أولاهن فإعلان للسامع أن ما سيتلئ عليه الآن هو خير كتاب أخرج للناس، وأنه ليس في الوجود ما يصلح أن يسمى كتاباً بالقياس إليه: ﴿ذلِكَ الْكِتَبُ﴾.

وأما الآخريان فيدعمان هذا الحكم بالحججة والبرهان. أليس تفاضل الكتب إنما هو بمقاييس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل. أو ليس كمال هذا الحق أن يكون نيراً لا يثير شبهة. أو ليس أكمل الكمال بعد هذا وذاك أن يكون ذلك الحق مما تمس إليه حاجة الناس في إنارة السبيل وإقامة الدليل إذا ما اشتبهت عليهم السبيل وتفرق المسالك. فذلكم القرآن هو جماع هذه الفضائل الثلاث: فهو الحق الممحض الذي لا باطل فيه، بل هو الحق اللائح الذي لا شبهة باطل فيه، ثم هو بعد ذلك الهدى المبين الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿لَا رِبَّ فِي هُدَى﴾.

هكذا كان موقع هذه الجمل الثلاث بعد تلك الأحرف الثلاثة موقع التنوية بالمقصود بعد التنبيه إليه.

وكذلك المربي الصالح «يبدأ» خطابه الجليل الشأن باستنصات الناس واسترقاء أسماعهم «ويثنى» باتخاذ الوسائل المشوقة التي تشير فيهم بواعث الإقبال على طلب الاستفادة.

(٣) أول ما تتشرف إليه النفس بعد سماع هذا الوصف البليغ للقرآن وهدايته هو تعرف الأثر الذي سيحدثه في الناس ومقدار إجابتهم لدعوته. فمست الحاجة إلى أن ينساق الحديث لبيان هذه الحقيقة العجيبة، وهي انقسام الناس في شأنه إلى فئات ثلاث: فئة تؤمن به، وأخرى كافرة، وثالثة متربدة حائرة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

فكيف ترى ينتقل من الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن الناس؟ أ يجعل الحديث عنهم حديثاً مؤتنفاً ائتناً بحثاً؟ .. أم يسوقه مساق الاستدراك على ما قبله؟ .

شيء من ذلك لم يكن. ولكن انظر إليه وقد مزج الحديثين مزجاً عجياً يدع أدق الناس فطنة لتصريف وجوه القول لا يفطن لما حدث بينهما من الانتقال.

ذلك أنه في أول الأمر لم يعرض لذكر الطائفتين الأخيرتين، بل أعرض عنهما، لأن القرآن لم ينزل من أجلهما، ثم عمد إلى الطائفة الأولى فجعل الحديث عنها من تمام الحديث عن هداية القرآن نفسه قائلاً: إنه ﴿هُدَى لِّمُتَّقِينَ ﴾ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ فكانت هذه «اللام الجارة» هي المعبرة السرية التي انزلت عليها الكلام وانصب انصباباً واحداً إلى نهاية الحديث عن المؤمنين.

(٤) ولقد كان قصر الانفاس بهداية القرآن على هذه الطائفة وحدها بعد وصف القرآن بأنه الحق الواضح الذي لا ريبة فيه - حرياً في بادئ الرأي أن يعد من المفارقات التي تشير في نفس السامع أشد العجب، إذ كيف تكون الحقائق القرآنية بهذه المرتبة من الوضوح ثم لا تنفذ إلى قلب كل من يسمعها؟!

ومن جهة أخرى فقد كان موقف هذا النبي الرحيم ﷺ في جده البالغ في دعوة أمته، وحرصه الشديد على هدايتهم، مصوراً له في عين من يراه بصورة الطامع في إيمان الناس أجمعين، الظان أن هذه الأمنية ستتصبح في متناول يده متى أخذ في أسبابها العادية، كأنه يرى أن ليس بينهم وبين هذه الهدایة إلا أن يصل صوت القرآن إلى آذانهم فإذا هم مسلمون. ذلك مع أن القرآن يكاد يحدد الآن مهمته ويقول: إن الذي سيعتني بهداه إنما هم المتقوون. فكان هذا التحديد مظنة لأن يتباهى الرسول ﷺ إلى ربه قائلاً: سبحانك اللهم، ولم لا يهتدى به الناس أجمعون؟!

وجب إذاً أن تقرر الحقيقة بصورة حاسمة لكل طماعية وتردد، مريحة للنفس من طلب ما لا سبيل إليه، وأن تبين مع ذلك الموانع الطبيعية من عموم هداية القرآن بأسلوب ينزع القرآن نفسه عن شائبة القصور، ويرد النقص إلى قابلية القابل لا إلى فاعلية الفاعل، وهل يغض من مهارة الطبيب أن يعرض المريض عن تناول الدواء منه فيما لو بجهله؟ وهل يضر الشمس ألا ينتفع بنورها العمى أو المتعامون؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

هكذا انتقل الحديث عن المؤمنين الذين سبقت لهم الحسنة، إلى الكافرين الذين حقت عليهم كلمة العذاب، لا على وجه اقتران الحديثين في القصد من أول الأمر، إذاً لعطف أحدهما على الآخر، بل على وجه يبني فيه بعض الكلام

على بعض، إجابة لهذا السؤال الذي نطق به الحال، وإزالة لذلك التعجب الذي أثاره سابق المقال. وهذا هو ما يسميه علماء البلاغة بالاستئناف البيني.

(٥) وجرى الحديث عن هؤلاء إلى نهايته، فانضم الشكل إلى شكله، وعطفت الطائفة الثالثة على آخرها؛ لأنهم في التجافي عن الهدى مُشتركون، تتشابه قلوبهم وإن اختلفت أسلوباتهم: ﴿وَمَنْ أَنَّاسٍ مَنْ يَقُولُ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

(٦) وارجع الآن قليلاً إلى نظام الأحاديث عن الطوائف الثلاثة، لترى كيف تقابلت أوضاعها أتم التقابل، فقد اشتمل الحديث في كل طائفة على ثلاثة عناصر مرتبة على هذا النمط: وصف الحقيقة الواقعية، في بيان السبب فيها، فالإثبات عن نتيجتها المنتظرة.

«حقيقة» الطائفة الأولى أنهم قوم حصلوا فضيلة التقوى بركنيها العلمي والعملي. «سبب ذلك» استمساكهم بالهدى وإمدادهم بال توفيق من ربهم «ومآل أمرهم الفوز والنجاح».

«حقيقة» الطائفة الثانية أنهم مجردون من أساس التقوى وهو الإيمان، وأنهم مصرون على ذلك إصراراً لا ينفع معه إنذار. «والسبب» عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم، فلهم قلوب لا يفهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها. «وعاقبة أمرهم العذاب العظيم».

«حقيقة» الطائفة الثالثة صفة مركبة من ظاهر خير وباطن سوء. فهم يقولون بأسلافهم: إنهم مؤمنون، وليس في قلوبهم من الإيمان شيء. ولكل من الوصفين «سبب» و«جزاء» أما دعواهم الإيمان فسببها قصد المخادعة، وجاء الخداع عائد إليهم. وأما إسرارهم الكفر فسببه مرض قلوبهم، وجراحته زيادة المرض والعذاب الأليم.

وكما بين في الطائفة الثانية أنها بلغت من الإصرار والغباء مبلغاً لا يجدي معه الإنذار، بين في الطائفة الثالثة أنها بلغت من الغرور والجهالة المركبة مبلغاً لا ينفع فيه نصح الناصحين. فهم المفسدون ويزعمون أنهم المصلحون، وهم السفهاء ويزعمون أنهم الراشدون. ومن لك بشفاء سقيم يعتقد أنه سليم؟

ثم كما ختم الكلام في شأن الطائفتين الأولى بأن سجل لهم وصف الهدى والفلاح، ختم الكلام في شأن الطائفتين الآخرين بأن سجل عليهم^(١) وصف الضلالة والخسران.

(٧) على أن هذه الأوصاف التحقيقية للطائفتين لم تكن وحدتها لتشفي النفس من العجب في أمرهم، فالعهد بالناس أنهم إنما يختلفون في الأمور الغامضة لا في الحقائق البينة، فاختلاف هؤلاء في شأن القرآن على وضوحيه يعد شاداً عن العادات الجارية، محتاجاً إلى وصف تمثيلي يقربه من المشاهد المحس، حتى يطمئن القلب إلى إمكانه.

لذلك ضرب الله لكلتا^(٢) الطائفتين مثلاً يناسبها.

(١) مضى جمهور المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَصْلَاهُ بِإِلَهَيْهِمْ﴾ مشار به إلى أقرب الطائفتين في الذكر، وهو المنافقون ولكن المروي عن ابن عباس وابن مسعود يعني أنه راجع إلى الكفار مطلقاً، وهذا هو الذي عولنا عليه؛ لأنه أقعد في المعنى وفي النظم؛ أما في المعنى فلا أنه لا واسطة بين الهدى والضلاله ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِيقَ إِلَّا الْأَصْلَالُ﴾. وإذا كانوا كلهم عن الهدى ناكبين، وفي الضلاله مشتركين، فتخصيص الإشارة بالبعض مع إمكان رجوعها إلى الجميع صريحاً تخصيص بغير موجب. وأما في النظم فلأن تناولها للطائفتين يتم به حسن المقابلة بين الإشارتين في قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَصْلَاهُ بِإِلَهَيْهِمْ﴾ ثم به يتم جمال الصنعة في تفريق الأقسام ثم جمعها، ثم تفریقها ثم جمعها. فقد رأيته يفرق الطائفتين في أوصافهما الخاصة، ثم يجمعهما في هذا الوصف المشترك. وستراه يعود إلى تفریقهما في ضرب الأمثل، ثم يجمعهما مرة أخرى مع سائر العالم في النداء الآتي: ﴿بَتَّأْهُمَا الْكَائِنُونَ أَعْدَدُوا رَبِّكُمْ﴾.

(٢) لعلك ترى هنا شيئاً من المخالفة لكلام المفسرين، إذ جعلوا المثلين كليهما راجعين إلى المنافقين خاصة، وجعلناهما موزعين على الطائفتين، نشراً على ترتيب اللف. ولكنك إذا رجعت بنسنك إلى أجزاء المثلين ستدرك معنا أن المثل الأول ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التي ذكرها الله للكافرين، وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثاني وحده. فهو لاء القوم الذين ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَرَكَبُهُمْ فِي ظُلْمَتِنَّ لَا يُبَصِّرُونَ﴾ ﴿صُمُّ بَكُمْ عَنِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أليسوا هم أولئك القوم الذين ﴿غَنَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَنْظَرِهِمْ غَشْوَةً﴾. وهذه الظلمات الثابتة المستقرة التي ليس فيها بصيص من نور وليس فيها تقلب ولا تذبذب، هل ترى فيها تصويراً لألوان النفاق ووجوهه المختلفة باختلاف الأحوال؟ إنك لا تجد هذه الصورة إلا في المثل الثاني حيث يتعاقب فيه الظلام والنور، الوقوف والمسيير. وكذلك ترى في المثل الثاني قوماً لهم أسماع وأبصار لم يذهب الله بها ولو شاء لذهب، وهذا مناسب لقوله في المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَّةٌ﴾ فوصفهم بالمرض ولم يصفهم بالختم الكلي على القلوب والحواس.

نعم، يمكن تقرير كلام المفسرين على وجه صحيح إذا ضمننا إليه ضمية. ذلك بأن نقول: إن =

فضرب مثلاً للمصرين المختوم على قلوبهم بقوم كانوا يسرون في ظلام الليل فقام فيهم رجل استوقد لهم ناراً يهتدون بضوئها، فلما أضاءت ما حوله لم يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر، بل لأمر ما سُلّبوا نور أبصارهم وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجئة. فذلك مثل النور الذي طلع به محمد^(١) ﷺ في

= المثل الأول يصور حال المتأففين في بواتفهم، وهو الأمر الذي يشاركون فيه سائر الكفار. والمثل الثاني يصور حالهم في ظواهرهم، وهو الأمر الذي يتقلب عندهم بتقلب الدواعي؛ لأن تقلبهم إنما هو في الظاهر لا الباطن. غير أن هذه الدعوى أيضاً محل نظر، إذ ما يدرينا، لعل نوع الكفر الذي يبطنه المتأفف نوع خاص يتقلب فيه قلبه بالشك والتrepidation، وأن هذا الاضطراب الذي نشاهده على حركاته الظاهرة في أقواله وأعماله إنما هو صورة الاضطراب النفسي الذي يحس به هو في دخلته بخلاف النوع الأول، وهو كفر المجاهرين، فهو طبيعة واحدة مصممة، حسماً تشهد به وحدة آثاره.

(١) وهذا أيضاً غير ما ذكره المفسرون فقد جعلوا مستوقد النار مثلاً «للمنافق الذي تكلف النطق بكلمة الإسلام خداعاً، فلم ينتفع بها إلا يسيراً في دنياه، ثم قضى أجله وأقضى إلى عمله، فإذا هو في الظلمات والخسران المبين». هكذا اعتبروا الضمائر المجموعة في قوله: «ذَهَبَ اللَّهُ يُؤْهِمُ» إلخ، عائدته إلى «أَسْتَوَقَدَ نَارًا» بمراجعة معناه، بعد أن عادت إلى الضمائر المفردة بمراجعة لفظه. ونحن لا نزعم بطلان هذا التأويل، ولا ننكر إساغة اللغة له. ولكن الوجه الذي عرضناه هنا في شرح المثل يجمع إلى صحته العقلية واللغوية أنه مستنبط من النظم القرآني نفسه. ونحسبه مع ذلك أقرب لأسلوب القرآن وأليق بجزالته. فإن لم يكن فليكن أحد الوجوه التي يحملها القرآن. أما كيف استنبطنا هذا المعنى من النظم فإليك بيانه:

لقد نظرنا إلى المثلين فرأينا الأسلوب فيهما يتجه اتجاهًا متوازيًا؛ إذ وجدنا في صدر كل منهما حديثاً عن شيء مفرد، وفي عجز كل منهما حديثاً عن جماعة. ثم نظرنا إلى المثل الثاني فرأينا الضمير المجموع فيه ليس راجعاً إلى مرجع الضمير المفرد، بل هو راجع باتفاق المفسرين إلى أمر مفهوم من فحوى الكلام هو القوم الذين نزل عليهم الصيب «ومعلوم أن هذه التشبيهات المركبة التي ينظر فيها إلى مقابلة المجموع بالمجموع لا يعني فيها بالمقابلة الفظوية الأحادية لأبين ما قبل الكاف وما يليها على الترتيب: بل ربما يكون الاختلاف بينهما كما هنا أمراً مطلوباً للبلاغة في وجيز الكلام يقصدون به التنبيه من أول الأمر على ما سيحدثون في التشبيه من طي وتقديم وتأخير، والتنبيه على أن المشبه به ليس هو مدخول الكاف وحده، وإنما هو قصة متعددة الفصول، هذا المدخل أحد فصولها. ذلك ليقيس السامع محظوظاً بانتباذه وتشوقه إلى تمام الكلام الذي به يظهر له التطابق بين طرفي التشبيه، وبه يمكنه رد كل شيء إلى شبيهه - هذا الضرب في أسلوب القرآن كثير، منه قوله تعالى «وَمَنْ كَفَرَوْا كَفَرُوا كَفَرُوا أَلَّذِي يَنْهَى» [البقرة: ١٧١] وقوله: «إِنَّمَا مَكَنُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَلَّا» [يونس: ٢٤] ، وقوله: «أَفَ كَمِيمٌ مَّنْ أَلْسَمَهُ» [البقرة: ١٩].

حيثند عدنا إلى المثل الأول فقلنا: هل عسى أن يكون هو أيضاً سائراً على هذا النهج حسماً يرشد إليه تعادل الأسلوبين؟ .. فيكون الضمير المجموع فيه ليس عائداً إلى «الذي استوقد ناراً» بل إلى

تلك الأمة الأمية على فترة من الرسل، ففتتحت له البصائر المستنيرة هنا وهناك، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين الذين ألفوا العيش في ظلام الجاهلية، فلم يرثوا له رأساً، بل نكسوا على رءوسهم ولم يفتحوا له عيناً بل خروا عليه صمماً وعمياً : **﴿فَلْ هُوَ لِلَّذِينَ إِمَّا مُّنْتَهَىٰ هُدًىٰ وَإِمَّا شَفَاعَةٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي إِذَا نِهَمُّ وَقَرَرُ﴾**

= القوم الذي استوقدت النار من أجلهم، أليس السامع متى انتهى إلى كلمة «ما حوله» يزداد شعوراً بأن هناك قوماً مشبهاً بهم؟ إذ سرعان ما ينتقل الذهن من المكان إلى السكان .. هذه الخطوة الأولى لم تثبت أن لحقتها الخطوطات التالية: وهي أن النور الذي ذهب الله به إذاً كان هو نور أولئك القوم، ولم يكن هو ضوء النار التي استوقدتها المستوقدة فتلك النار إذاً لم تطفأ ولم يذهب ضوءها فما يكون مضرب المثل بهذا الضياء الذي بقي هو وذهب غيره؟ .. ألا يكون هو ضوء الهدىية الحقيقة التي أبى الله إلا أن يتمها ولو كره الكافرون. ثم من يكون مضرب المثل بمستوقد النار؟ .. ألا يكون هو الهدىي الأعظم صلوات الله عليه .. فقد استوقد شعلة الهدىية الإسلامية، أي عالج إيقادها أمام زوابع من الفتنة وأعاصير من المقاومات العنيفة، فلما أوقدها وأضاءت ما حوله رغمت بها أنوف أعداء الحق، الذين أكل الجهل والحسد قلوبهم، فانطممت بصائرهم، وكانوا كلما ازدادت هي تألفاً وإشراقاً، ازدادوا هم ظلمة وانتكاساً.

عند هذا الحد تمت أركان التشبيه، واستقام هذا المعنى الجديد على أنه احتمال يمكن فهم الآية عليه بحسب اللغة والعقل وبحسب معهود القرآن أيضاً في ضربه النور والضياء مثلاً للهدى والإيمان، والظلمة والعتمى مثلاً للجهل والكفران، بيد أن اتفاق التفاسير التي بأيدينا على جعل مستوقد النار مثلاً للمنافقين جعلنا نتهيب تأدباً أن نضربه مثلاً للرسول الأمين من غير شاهد يؤيد ذلك من الكتاب أو السنة .. وما برحت هذه المخالفة التي تحيك في الصدر وتبعده اطمئنان القلب إلى هذا المعنى حتى ظفرنا بشاهده الصريح الصحيح في حديث النبي عن نفسه، حيث يقول ﷺ: «إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار تقع فيها، فجعل ينزعنها ويغلبها فيقتصرن فيها». فانا آخذ بجزك عن النار وأنتم تقتصرن فيها» رواه الشيخان. نعم التمثال به في الحديث من وجه غير الوجه الذي في الآية، ولكن هذا لا يضرير، إذ المثل الواحد يضرب لمعان متعددة باعتبارات مختلفة، والذي يعنيها إنما هو وقوع التمثال به للنبي الكريم ﷺ، وهو صريح في صدر الحديث كما نرى. فبدلك ازدادت النفس ركوتاً إلى صحته.

وبعد مما بنا -علم الله- حب الخلاف ولا شهوة الإغراق، ولكنها أمانة العلم والنصححة لكتاب الله تعالى حملتنا على أن نقول فيه أحسن ما نعلم، ثم شجعنا على أن نسجل بالقلم هذا الذي قلناه بالفم، لنعرضه في الطرس على أنظار الفارئين، كما عرضناه في الدرس على أسماع الطالبين لعل هؤلاء واجدون فيه من مواضع النقد والت محicus ما لم يجده أولئك. وهذا الباب من أبواب البحث والاستنباط الذي لا يمس أصلاً من أصول الدين ولا يحل حراماً أو يحرم حلالاً لن يزال مفتوحاً لكل مسلم أعطاه الله فهمماً في كتابه، على شريطة القصد والأناة في سير العقل، ومع الاستضاعة في هذا السير بمصباحين من اللغة والشرع، على الحد الذي وصفنا، والمنهج الذي رسمنا. وبالله التوفيق.

وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَّى أُولَئِكَ يُنَادِونَكَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ [فصلت: ٤٤].

وضرب مثلاً للمترددين المخادعين بقوم جادتهم السماء بغية منهم في ليلة ذات رعد وبروق. فأما الغيث فلم يلقوا له بالاً، ولم ينالوا منه نيلًا. فلا شربوا منه قطرة، ولا استبتوا به ثمرة، ولا سقوا به زرعاً ولا ضرغاً. وأما تلك التقلبات الجوية من الظلمات والرعد والبرق فكانت هي مثار اهتمامهم، ومناط تفكيرهم؛ ولذلك جعلوا يترصدونها: ويدبرون أمرورهم على وفقها، لا بسين لكل حال لبوسها: سيراً تارة، ووقفاً تارة، واختفاءً تارة أخرى.

ذلك مثل القرآن الذي أنزله الله غيشاً تحيا به القلوب، وتنبت به ثمرات الأخلاق الزكية والأعمال الصالحة؛ ثم ابتلى فيه المؤمنين بالجهاد والصبر وجعل لهم الأيام دولاً بين السلم وال الحرب، وبين الغلب والنصر. فما كان حظ بعض الناس منهم إلا أن لبسوا شعاره على جلودهم دون أن يشربوا حبه في قلوبهم أو يتذوقوا ما فيه من غذاء الأرواح والعقول، بل أهمتهم أنفسهم وشغلتهم حظوظهم العاجلة؛ فحصروا كل تفكيرهم فيما قد يحيط به من مغامن يمشون إليها، أو مغامر يتقونها، أو مآذق تفهوم منه موقف الروية والانتظار، وهكذا ساروا في التدين به سيراً متعرجاً متقلباً مبنياً على قاعدة الربح والخسر، والسلامة الدينية.

فكانوا إذا رأوا عرضاً قريباً وسفرًا فاصداً وبرقت لهم «بروق» الأمل في الغنية ساروا مع المؤمنين جنباً إلى جنب، وإذا دارت رحى الحرب وانقضت «صواعقها» منذرة بالموت والهزيمة أخذوا حذراً وفروا من وجه العدو قائلين: ﴿إِنَّ يُؤْتَنَا عَوْرَةً﴾ أو رجعوا من بعض الطريق قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا تَبْعَنُّنَا﴾. حتى إذا كانت الثالثة فلم يلمحوا من الآمال بارقة ولم يتوقعوا من الآلام صاعقة بل اشتبهت عليهم الأمور وتلبد الجو بالغيوم، فهناك يقفون متربصين لا يتقدمون ولا يتاخرون، ولكن يلزمون شقة الحياد ريثما تنقشع سحابة الشك ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكُفَّارِ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِدْ عَلَيْكُمْ وَنَنْعَمُكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، ﴿وَإِنْ مَنْكُمْ لَعَنِ الْيَقِينِ فَإِنَّ أَصَبَّتُمْ مُصِيبَةً قَالَ فَدَأْنَمَ اللَّهُ عَلَى إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٦﴾ وَلَئِنْ أَصَبَّتُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَانَ

لَمْ تَكُنْ يَنْتَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَنْتَهِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفْوَزُ فَوْرًا عَظِيمًا ﴿السَّاءٌ: ٧٢، ٧٣﴾ .
ذلك أبداً دأب المنافقين في كل أمرهم؛ إن توقيعوا ربحاً عاجلاً التمسوه في أي صف وجوده، وإن توقيعوا أذى كذلك تنكروا للفترة التي ينالهم في سبيلها شيء من المكره. وإذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيداً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، أما الذي يؤمن بالله واليوم الآخر فإن له قبلة واحدة يولي وجهه شطرها، هي قبلة الحق لا يخشى فيها لومة لائم.

وليس يبالى حين يُقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعه



هنا تمت المقدمة بعد أن وصفت القرآن بما هو أهله، ووصفت متبعيه ومخالفيه كلاً بما يستحقه. ولا مرية أن وصف هذه الطوائف جميعها راجع في المال إلى الثناء على القرآن؛ فإن الشيء الذي يكون متبعلوه هم أهل الهدى والفلاح، ومخالفوه هم أهل الضلال والخسر لا يكون إلا حقّاً واضحاً لا ريب فيه . خلاصة المقدمة

فما هو ذلك الحق الذي لا يتبعه إلا مهتدٌ مفلح، ولا يعرض عنه إلا ضال خاسر؟ بل ما هو ذلك الحق الذي ضربت له الأمثال بالضياء الباهر والغيث الكثير؟

لا شك أن هذا كله تشويق أي تشويق لسماع الحقائق التي يدعو القرآن الناس إليها. فانظر على أي نحو ساق بيانها.

لقد كان ظاهر السياق يقضي بأن يقال: إن هذه الحقائق هي أن يعبدوا ربهم وحده ويؤمنوا بكتابه ونبيه «الخ» جريأاً على أسلوب الغيبة الذي جرى عليه في وصف الكتاب، وفي وصف الناس، ولكنه حوال مجرى الحديث من الأخبار والغيبة إلى النداء والمخاطبة قائلاً : ﴿يَتَّهِمُهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُم﴾ .

أتعرف شيئاً من سر هذا التحويل؟

إن ذلك الوصف الدقيق الذي وصف القرآن به الطوائف الثلاث: «متقين وكافرين ومخادعين» قد نقلتهم عند السامع من حال إلى حال، وبعد أن كانوا غيّباً

في مبدأ الحديث عنهم أصبحوا الآن بعد ذلك الوصف الشافي حاضرين في خيال السامع كأنهم رأى عين، وفي مكان ينادون منه. فاستحقوا أن يوجه الحديث إليهم كما يوجه إلى الحاضرين في الحس والمشاهدة. هذا من الناحية العامة. وأما من الناحية الأخرى فإن هذه الأمثال البلغة التي ضربت في شأن المعرضين خاصة قد أبرزتهم أمام السامع في صورة محزنة تبعث في نفسه أقوى البواعث لصحهم وتحذيرهم. حتى إنه لا يشفى صدره إلا أن يناديهم أو يسمع من يناديهم: أن افتحوا أعينكم أيها القوم وتعالوا إلى طريق النجاة. وهكذا استعدت النفس أتم استعداد لسماع هذا النداء. ﴿يَأَيُّهَا أَنْتَمْ أَغْبَدُوا رَبَّكُمْ﴾ الآيات إلى آخر المقصود الأول».

المقصد الأول من مقاصد السورة: في خمس آيات «٢١-٢٥» :

في هذه الآيات الخمس تسمع نداءً قوياً موجهاً إلى العالم كله بثلاثة مطالب:

١- أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئاً.

٢- أن آمنوا بكتابه الذي نزله على عبده.

٣- أن اتقوا أليم عذابه، وابتغوا جزيل ثوابه.

هذه المطالب الثلاثة هي الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية، تراها قد بسطت مرتبة على ترتيبها الطبيعي. من المبدأ، إلى الواسطة، إلى الغاية. وترى كل واحد من الركنين الأولين قد أقيم على أساس من البرهان العقلي القاطع لكل شبهة. أما الركن الثالث فقد جيء به مجرداً عن هذا النوع من البرهان، ولكن نفح فيه من روح الإلهاب وتحريك الوجدان بالتحذير والتبيشير ما يسد في موضعه مسد البرهان.

على أنك إذا أنعمت النظر في هذا الركن وجدته في غنى عن برهان جديد بعد تقرر سابقيه، إذ هو منهما بمنزلة النتيجة المنطقية من مقدماتها.

رأيت لو أن ملكاً عظيم السلطان نافذ الحكم وجه إليك سفيراً يحمل رسالة منه، وأيقنت أن الذي بيد السفير هو كتاب الملك المختوم بخاتمه، أكان يعوزك برهان جديد ل لتحقيق ما يحويه الكتاب من عجيب الأناء والنذر، بعد ما وقر في نفسك من العلم بأنه كلام من إذا قال صدق، وإذا وعد أنجز؟!

فكذلك ترى الحديث هنا عن السمعيات جيء به مفرعاً على ما تقرر في أمر النباتات، وبضربٍ من التخلص هو غاية في الحسن والبراعة، ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَعْلَمُوْ فَانْقُوْ أَنَّارَ﴾.



عود على بدء: في أربع عشرة آية «٣٩-٢٦»:

(١) ببدأ الكلام في السورة - كما علمت - بوصف القرآن بما فيه من الهدى إجمالاً^(١): فكان من الحق أن يعود إلى وصف طريقة القرآن في هذه الهدایة، ليقول: إنها هدایة كاملة بالبيان الوافي الشامل لكل شيء، فانظر كيف مهد لهاذا الانتقال تمهيداً يتصل من أول السورة إلى هذا الموضوع:

أما المقدمة فقد وصف فيها الفرق الثلاث وصفاً شافياً ضرب للناس أمثالهم، وحقق أن الذين كفروا اتبعوا الباطل، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم.

وأما المقصود فقد بين فيه أن لله وحده المثل الأعلى الذي لا يشاركه فيه شيء من الأنداد، ثم وضع فيه الفيصل بين النبي والمتنبى بتلك المعجزة العالمية التي لا يستطيع أحد من دون الله أن يأتي بمثلها، ثم ذكر مثل النار التي أعدت للكافرين، ومثل الجنة التي وعد المتقون.

فتراه قد تناول في هذه الأمثال ضرورياً شتى من الحقائق؛ علوية وسفلى، مادية ومعنوية . . . حتى كانت نهاية الحديث أن عرض ما في الجنة من أنواع المتع واللذائذ الشخصية والجنسية، تلك المعاني التي قد يستحبى المرء من ذكرها، وقد يخالفها الجاهل نابية عن سنن الخطاب الإلهي الأعظم، غافلاً عن أنه الحق الذي لا يستحبى من الحق، وأنه الرحيم الذي ينزل برحمته إلى مستوى العقول البشرية فيبين لهم كل ما يحتاجون إلى بيانه مما يحبون أو يكرهون، ومما يرجون أو يحذرون.

(١) سقطت من طبعة (دار القلم). (عمرو)

وهكذا انساق الحديث من ذكر هذه النماذج المتفاوتة إلى استنباط القاعدة الكلية منها، ببيان أن هذه هي طريقة القرآن في هدایته، فهو يضرب الأمثال كلها، ويبين الحقائق؛ حلوها ومرها، واضعاً كل شيء في موضعه، مسمياً له باسمه، لا يبالي أن يتناول في بيانه جلائل الأمور أو محقراتها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي﴾ أن يضرِّبَ مثلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْهَأَ﴾.

حقاً؛ إن شأن هذا الكتاب في تفصيل الحق والباطل والضار والنافع شأن كتاب الأعمال في تفصيل الحسنات والسيئات. كلامها لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وكما أن وصف القرآن بالهدى إجمالاً قد جر هناك إلى ذكر انقسام الناس في قبول هدایته، وإلى النعي على من أعرض عنه، كذلك وصف طريقته في الهدایة قد جرها هنا إلى مثل هذا التقسيم: ﴿يُضُلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ وإلى النعي على الضالين بذكر مساوئهم وتفصيل نقائصهم ﴿وَمَا يُضُلُّ بِهِ إِلَّا فَلَّاسِقِينَ﴾.

وكما أن بيان أوصافهم هناك قد جلأهم أمام السامع في صورة تحرك داعيته لسماع ندائهم بالتصح والتعليم، كذلك بيان أوصافهم هنا قد استفز النفوس إلى سماع مخاطبتهم بالتعجب والإنكار .. ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ ... الآيات.

(٢) وكذلك عاد الكلام إلى المقصود الأول بأركانه الثلاثة، ولكن في ثوب

جديد:

«أما في الركن الأول» فقد سمعته هناك يأمر بعبادة الله، وتسمعه هنا ينهى عن الكفر بالله.

وهناك ذكرهم بنعمة إيجادهم مجملة، وهنا يذكرون بها مفصلة متممة، وهناك عرفهم بنعمة تسخير الأرض والسماء لهم، وهنا يعرفهم بذلك في شيء من التفصيل.

«أما في الركن الثاني» فقد ذكر هناك نبوة هذا النبي الخاتم ﷺ وهنا يذكر نبوة ذلك النبي الأول آدم، لنعلم أن نبينا لم يكن بدعاً من الرسل، وأن أمر التشريع والنبوات أمر قديم يتصل بنشأة الإنسان. وقد مهد لهذا البيان بذكر تاريخ

تلك النشأة العجيبة وما جرى في شأنها من الحديث مع الملائكة، ذلك الحديث الدال على مزيد العناية الإلهية بهذا النوع البشري، إذ اختاره الله لخلافة الأرض وأثره على سائر الخلق بفضيلة العلم. ليكون الامتنان بذلك جاريًا مع الامتنان بالنعم المذكورة في الركن الأول على أحسن نسق، ثم اتصل من هذا التفضيل إلى شرح ما نشأ عنه من حسد إبليس وعداوه القديمة للإنسان الأول ومخادعته إياه بوساوسيه، وما انتهى إليه أمر الخادع والمخدوع من ابتلائهما وابتلاء ذريتهما بالتکاليف. وهو -كما ترى- حديث يطلب بعضه بعضًا، ويأخذ بعضه بأعناق بعض.

«وأما في الركن الثالث» فقد رأيته هناك يصف الجنة والنار بما لهما من وصف رائع أو مروع، وتراه هنا يكتفي عن وصفهما بذكر اسميهما وتعيين أهلهما ناظمًا وضع الأجزية مع وضع التکاليف في سلك واحد، ومتخلصًا أحسن تخلص من أحدهما إلى الآخر، بتقرير أن اتباع التکاليف أو عدم اتباعها هو مناط السعادة أو الشقاوة في العقى.

ولقد ختم الكلام هنا -كما ختمه في المقدمة- بشأن المخالفين؛ تمهيداً لlanتقـال مـرة أخـرى إلـى نـداء فـريق مـنهـم وـدعـوتـهم إلـى إلـاسـلام وـهو المـقصد الثاني.



المقصد الثاني من مقاصد السورة: في ثلاثة وعشرين ومائة آية «٤٠-١٦٢»: بحسبك أن تعلم أن هذه السورة هي غرة سور المدينة، وأن المدينة كان يسكنها أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وأكثرهم جداً في دينهم بما أوتوه من العلم قبلهم. بحسبك أن تعلم هذا وذاك لتعرف سر تلك العناية الموفورة بهذه الجانب من الدعوة، يعني دعوةبني إسرائيل خاصة بعد دعوة الناس عامة، ولتعلم حكمـة ذلك التـبسيط فيـ الحديث معـهم تـارة، والـحديث عنـهم تـارة أخـرى، بـألوان تـختلف هـجومـاً، وـدفعـاً، وـاستـمالـة، وـاستـطالـة، إلـى ما بـعد نـصف السـورة. وـستـرى حين تـتـقلـ فيـ هـذه الأـحدـيـث مرـحـلة ما يـملـك قـلـبك منـ جـمـال نـظـامـها وـدقـة تقـسيـمـها.

«بدأ» الكلام معهم بآية فذة [٤٠] هي على قلة كلماتها جامعة لأغراض الحديث كله: ففيها يناديهم بأحب أسمائهم وأشرف أنسابهم ويذكرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالاً، ويبني على ذلك دعوتهم إلى الوفاء بعهدهم، ويرغبهم ويرهبونهم.

«ثم» رجع إلى هذه الأغراض يفصلها على تدرج وبقدر معلوم فشرح العهد الذي طلب منهم الوفاء به، في ست آيات [٤١-٤٦]، وبين مقدار النعمة التي امتن بها عليهم في آية «٤٧»، ومقدار المخافة التي خوفهم منها في آية أخرى «٤٨».

«ثم» قسم الحديث إلى أربعة أقسام:

«القسم الأول» يذكر فيه سالفة اليهود منذ بعث فيهم موسى -عليه السلام.

«القسم الثاني» يذكر فيه أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية.

«القسم الثالث» يذكر فيه أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام.

«القسم الرابع» يذكر فيه حاضر المسلمين في وقت البعثة.

١- ذكر سالفة اليهود «٤٩-٧٤»:

استهل الخطاب في هذا القسم بشمني آيات يعرف فيهابني إسرائيل بتفاصيل المحن التي امتن بها عليهم مرة بعد مرة، وهي تلك النعم التاريخية القديمة التي اتصل أثراها وسرى نفعها من الأصول إلى الفروع، فجعل يذكرون بأيام الله فيهم؛ يوم أنجاحهم من آل فرعون، ويوم أنجاحهم من اليم وأغرق أعداءهم فيه، ويوم وادعهم بإنزال الكتاب عليهم، ويوم حقق وعده بإنزلاله، ويوم قبل توبتهم عن الردة والشرك بالله، ويوم قبل توبتهم عن التمرد على نبيهم واقتراح العظام عليهم. وإنها لنعم جليلة «سابقة للذنب ولاحقة» تلين بذكرها القلوب، وتحرك الهمم لشكر المنعم وامتثال أمره.

و قبل أن ينتقل من تذكيرهم بتلك النعم الجليلة المطممة للشاكرين في المزيد، إلى تذكيرهم بجرائمهم وما حاق بهم من ضروب النكال الموجبة للامتناع، والاعتبار جعل بين الحديدين برجحاً منزج فيه ذكر بعض النعم بذكر ما قابلوها به، بعد أن أعد النفس للسير على هذا البرزخ بالتفاتة يسيرة، فيها رمز الإعراض وعدم الرضا، وبين أنه تعالى متعمهم فوق هذا كله متعاغاً حسناً؛ إذ ظلل عليهم

الغمام، ورزقهم من الطعام والشراب رزقا هنيئاً من حيث لا يحتسبون، ومن حيث لا كدّ ولا نصب. فظلموا أنفسهم وبطروا تملك النعمة وحرفوا كلمة الشكر بتبدلها هزواً ولعباً، واقتربوا بدل ذلك الرزق الناعم عيشة الكدح والعناء، فألزمهم الله ما التزموا، وضرب عليهم الذلة والمسكنة.

وهنا محض الحديث لذكر المخالفات والعقوبات، فذكر أنهم باعوا بغضب من الله؛ لأنهم كفروا بآيات الله وقتلوا النبيين، «غير أنه استثنى المؤمنين منهم من هذا الغضب» وتمردوا على أوصيام التوراة جملة حتى أرغموا عليها، ثم تولوا عنها بعد ذلك حتى صاروا جديرين بأن ينزل بهم ما نزل بأهل السبت لولا فضل الله عليهم؛ وأنهم تباطأوا في تنفيذ أمر نبيهم، وبلغ بهم الجهل بمقام نبوته أن ظنوا في بعض تبليغه عن ربها أنه هازل فيه غير جاد..

حلقة الاتصال بين القسمين الأول والثاني «٧٤»:

وأراد القرآن أن يصل حاضرهم بماضيهم فانظر كيف وضع بينهما حلقة الاتصال في هذه الآية التي ختم بها القسم الأول: ﴿ثُمَّ قَسْتُ قُلُوبَكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فِيهِي كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ فقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كلمة حددت مبدأ تاريخ القسوة ولم تحدد نهايتها، لأنها بذلك وضعت عليه طابع الاستمرار وتركته يتخطى العصور والأجيال في خيال السامع، حتى يظن أن الحديث قد أشرف به على العصر الحاضر، ثم لم يلبث هذا الضن أن ازداد قوة، بصيغة الجملة الاسمية في قوله: ﴿فِيهِي كَالْحِجَارَةِ﴾ دون أن يقول: فكانت كالحجارة.

ثم انظر كيف كان انتهاؤه إلى وصف قلوبهم بهذا الوصف توطنةً للتغيير الأسلوب فيهم، فإن من يبلغ قلبه هذا الحد من القسوة التي لا لين فيها يصبح استمرار الخطاب معه نابياً عن الحكم، ويصير جديراً بصرف الخطاب عنه إلى غيره من له قلب سليم. وهكذا سينتقل الكلام من الحديث معهم في شأن سلفهم إلى الحديث معنا في شأنهم أنفسهم.

٢ - ذكر اليهود المعاصرين للبعثة «١٢١-٧٥»:

افتتح الكلام في هذا القسم بجملة طريفة ليست على سنن ما قبلها وما بعدها من السرد الإخباري، جملة استفهامية يكتنفها حرفان عجبيان: «أحدهما» يعيد إلى

الذاكرة كل ما مضى من وقائع القسم الأول، «والآخر» يفتح الباب لكل ما يأتي من حوادث هذا القسم. وتقع هي بين التاريخين القديم والحديث موقع العبرة المستنبطة والنتيجة المقررة، بين أسباب مضت وأسباب تأتي: ﴿أَفَنَلَمْ يُؤْمِنُوا لِكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾.

فهذه الفاء تقول لنا: أبعد كل ما قصصناه يطمع طامع في إيمان هؤلاء القوم وهم الوارثون لذلك التاريخ الملوث؟ وهذه الواو تقول هذا ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾.

ويعود السرد الإخباري إلى مجراه التفصيلي، فيقص علينا من مساوىء أو صاف الحاضرين منهم ومنكرات فأغاعيلهم وأقاويلهم زهاء عشرين سبباً لا تُبقي مطمعاً لطامع في إيمانهم، سواء منها ما كان مختصاً بهم، وما كان يشاركون فيه غيرهم من أسلافهم، أو من النصارى أو الوثنين.

ثم لا يدع زعماً من مزاعمهم إلا قفي عليه بما يليق به من الرد والتفنيد.

«وقد بدأ هذا الوصف» بتقسيمهم إلى فريقين: علماء يحرفون كلام الله ويتوادعون بكتمان ما عندهم من العلم لئلا يكون حجة عليهم. وجهلاء أميين هم أسرار الأماني والأوهام، وضحايا التضليل والتلبيس الذي يأتيه علماؤهم، فمن ذا الذي يطمع في صلاح أمة جاهمها مضلل مخدوع يأخذ باسم الدين ما ليس بدين، وعالماها مضللاً خادعاً يكتب الكتاب بيده ويقول هذا من عند الله.

«وَثَنَى» ببيان منشأ اجترائهم على كل موبقة، ألا وهو غرورهم بزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معوددة. ولقد أمر النبي ﷺ أن يوسع هذا الزعم دحضاً وإبطالاً، وأن يتدرج معهم في هذه المجادلة على درجات المنطق السليم والبحث المستقيم فيبدأ بمطالبتهم البرهان على ما زعموا. ثم ينقضه ببيان مخالفته لقانون العدل الإلهي الذي لا يعرف شيئاً من الظلم ولا المحاباة لأحد، بل الخلق أمامه سواء: كل امرئ رهين بعمله، ومن يعمل سوءاً أو حسناً يجز به. ثم يعارضه بقلب القضية عليهم مبيناً لهم أنهم من أولئك الذين كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيباتهم: ألم يؤخذ عليكم الميثاق بتقوى الله والإحسان إلى الناس فتوليتم؟ ألم يؤخذ عليكم الميثاق بترك الإثم والعدوان فاعتديتم؟ ثم آمنتم ببعض الكتاب

وكفرتم ببعض، وحكمتم أهواءكم في الشرائع فكلما جاءكم رسول بما لا تهوى
أنفسكم استنكبرتم.

«ثم أتبع ذلك سائر هناتهم» فذكر :

- ١- تصامهم عن سماع الحق بدعوى أن قلوبهم مغلقة.
- ٢- كفراهم بالكتاب الجديد لأنه أنزل على غيرهم، بعد أن كانت أعناقهم مشربة إليه يتظرون ظهوره على يدنبي ينصرهم على المشركين.
- ٣- دعواهم القيام بواجبهم وهو الإيمان بما أنزل عليهم وكفى، مع أنهم كافرون حتى بما أنزل عليهم، وتلك شنستتهم منذ عبدوا العجل وأشربوا حبه في قلوبهم.
- ٤- زعمهم أن لهم الدار الآخرة خالصة، ثم مناقضتهم أنفسهم في ذلك بكراهتهم الموت وشدة حرصهم على الحياة.
- ٥- عداوتهم لجبريل؛ لأنه أنزل الكتاب على غيرهم، مع أنه إنما أنزل بعلم الله.
- ٦- تكرر نبذهم للعهود.
- ٧- اشتغالهم بكتب السحر وترك كتب الله وراء ظهورهم.
- ٨- ليهم أسلتهم في خطاب الرسول ﷺ بكلمة^(١) تنطوي على الاستهزاء به والطعن في دينه وإن كان ظاهرها التعظيم له، أو يراد منها إحراجه بكثرة الأسئلة

(١) هي قول «راعنا» وهي كلمة ظاهرة الأدب، ولكنها في العربية لها معانٌ أخرى حمقاء. وفي العبرانية كلمة شتم قريبة منها؛ فإن لفظ «رع» عند اليهود معناه شقي شرير. ولفظ «راع» معناه الشر والشقاوة فإذا أضيف إلى ضمير المتكلمين صار ب濂هم «راعينو» ومعناه في الخطاب أنت ضرنا وشققتنا .. ولعلهم والله أعلم كانوا يلوون ألسنتهم في النطق بها ليقربوها من الصيغة العربية ستراً لنيتهم واكتفاء بالرمز المفهوم فيما بينهم. فأمر الله المؤمنين أن يخاطبوا الرسول ﷺ بقول «انظرنا» حتى لا يجد المنافقون سبيلاً إلى التلاعب بلفظ ذي وجهين، أو أيضاً فإن «راعنا» كلمة يقولها السائل المستقصي يطلب بها إصلاح المسؤول إليه حتى يفرغ هو من أسئلته. وتلك عادة اليهود عند إثارتهم من السؤال. فأمر الله المؤمنين أن يحافظوا على حسن الاستماع حتى لا يحتاجوا إلى السؤال، وأن يقولوا «انظرنا» وهي كلمة يقولها المتعلم إذا أراد التشتبث مما يقال له لا الزيادة عليه.

وال المقترفات كما سئل موسى من قبل «وقد سيق هذا في قالب تحذير المؤمنين من أن يقولوا تلك الكلمة».

٩- حقدهم وأثرتهم هم وسائر المخالفين من أهل الكتاب والمرشكين وكراهيهم أن ينزل الوحي على غيرهم، مع أن الله أن يختص بنبوته من يشاء، وله أن ينسخ شريعة ويأتي بشريعة أخرى مثلها أو خير منها.

١٠- رغبة كثير منهم في أن يردوا المؤمنين كفاراً.

١١- زعم كلُّ من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة غيرهم. أمانى يتمنونها بغير برهان.

١٢- طعن كلتا الطائفتين في أختها بقول اليهود: ليست النصارى على شيء، وقول النصارى: ليست اليهود على شيء، وطعن المرشكين في كلتيهما.

١٣- اشتراك الطوائف الثلاث في السعي لإخلاء المساجد من ذكر الله.

١٤- اشتراكهم في الجهل بالله ونسبتهم الولد إليه.

١٥- اشتراكهم في التوقف عن الإيمان بالرسول ﷺ حتى يكلمهم الله بغير واسطة أو ينزل عليهم آية ملجمة.

«ثم ختم هذه الهنات» بادعاتها إلى اليأس من إيمانهم، وهو أنهم يطمعون في تحويل الرسول ﷺ نفسه إلى اتباع أهوائهم، فكيف يطمع هو في استتباعهم إلى هداه؟ كلا ولكن حسبة أن الراسخين في العلم منهم وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته يؤمنون بهذا الهدى الذي جاء به والكافرون هم الخاسرون.

٣- ذكر قدامي المسلمين من لدن إبراهيم «١٢٢- ١٣٤»:

شأن المصلح الحكيم في دعوته شأن الزارع، يبدأ بالأرض فيقتلع أشواكها وينقيها من حشائشها الضارة قبل أن يلقي فيها البذور الصالحة أو يغرس فيها الأشجار النافعة، وكذلك الداعي الحكيم يبدأ بالآفوس فيلويها عن الباطل والفساد ثم يوجهها إلى طريق الحق والهدى. فهذا دوران يقوم في أحدهما بالتطهير والتخلية، وفي الثاني بالتمكيل والتحلية، وأنت قد رأيت الكلام في دعوةبني إسرائيل قد مضى إلى هذا الحد في بيان عوج الطريق الذي يسلكونه، ورأيته قد

أوسع البيان في ذلك حتى أتى على نهاية الدور الأول: أليس من الحق إذاً أن يبدأ الدور الثاني فيبين الطريق السوي الذي يجب أن يسلكه.

ثم رأيت كيف اختتم البيان السابق بذكر هدى الله والعلم الذي علمه لنبيه وذكر الفريق الذي يرجي إيمانهم به من أهل الكتاب، وهو الذي يتلون الكتاب حق تلاوته، أليس هذا الاختمام نفسه مطلعاً تشرف النفس منه على هذا الافتتاح؟

ثم رأيت الحديث في الدور الأول منقسمًا إلى قسمين: قسم يتحدث فيه عن ماضي اليهود، وقسم يتحدث فيه عن حاضرهم. ألا يكون من حسن التقابل أن يقسم الحديث الثاني إلى القسمين. عن ماضي المسلمين وعن حاضرهم؟

ذلك هو ما تراه فيما يلي:

بل سترٌ ما هو أتم مقابلة ومشاكلاً، فسيجري الكلام في القسم الأول هنا على سنن الخطاب مع بنى إسرائيل، والكلام في القسم الثاني على سنن التحدث عنهم، كما جرى هنالك في القسمين سواء.

وأكبر من هذا كله أنه ترى الآيتين الكريمتين اللتين صدر بهما أول الحديث هناك قد صدر بهما أول الحديث هنا؛ ليدعوهما إلى اعتناق الحق بمثل ما دعاهم به إلى اجتناب الباطل، وليتقرر في نفس السامع من أول الأمر أن الحديث سيعود كما بدأ، ولكن في طريق يقابل ذلك الطريق، وبمعنى جديد هو عدل لذلك المعنى القديم ﴿يَبْيَعِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا يَعْمَقِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَلَّتُكُمْ عَلَى الْعَالَمَيْنَ ۚ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجِدُونَ نَفْسًا شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ۚ وَإِذَا ابْتَلَاهُ إِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ بِكِيمَتِهِ﴾.

وهكذا أنشأ يدعو بنى إسرائيل إلى طريق السلف الصالح، لا بأسلوب الأمر والتحريض الذي جرب من قبل فلم ينجع فيهم، بل بأسلوب قصصي جذاب يعرض فيه ذلك التاريخ المجيد لإبراهيم عليه السلام وأبنائه وأحفاده في العصور الذهبية التي لا يختلف أحد من أهل الكتاب ولا المشركين في تعظيمها ومحبتها ومحبة الانتساب إليها. مكرراً على لسانهم جميعاً تلك الكلمة العذبة التي تركها إبراهيم باقية في عقبه، فتوارثها أبناؤه وأحفاده يوصي كل منهم بها بنيه، كلمة «الإسلام لله رب العالمين».

وتراه في أثناء عرضه لتاريخ إبراهيم عليه السلام وإمامته للناس لا ينسى أن يحكى كلماته التي دعا بها ربه أن يجعل من ذريته إماماً للناس كما جعله هو.

ثم تراه حين يروي قيام إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء البيت المعموظ الذي جعله الله حرماً آمناً ومثابة للناس قبلة لصلاتهم، لا ينسى أن يحكى تضرعهما إلى الله أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة وأن يبعث فيهم رسولاً منهم يعلمهم ويزكيهم. مماهداً بهذا وذاك لتقرير تلك الصلة التاريخية المتينة التي تربط هذا النبي وأمهاته بذينك النبيين الجليلين؛ لا صلة النبوة النسبية فحسب، بل صلة المبدأ ورابطة الوحدة الدينية أيضاً، فهم من ذريتهما، ووجودهم تحقيق لقبول دعوتهما، وملتهم ملتهم؛ وقبلتهم قبلتهم، ومثابتهم في حجتهم مثابتهم.

ومقرراً في الوقت نفسه انقطاع مثل هذه النسبة المشرفة عن اليهود الذين ينتسبون بالبنوة لإبراهيم ويعقوب، وهم عن ملتهم منحرفون ولوصييهم مخالفون. فماذا يعني النسب عن الأدب؟ ومن بطلأ به عمله لم يسرع به نسبة ﴿تِلَّكَ أُمَّةٌ قدْ خَلَّتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٤- ذكر حاضر المسلمين وقت البعثة «١٣٥-١٦٢»:

واتصل ذكر الخلف بذكر السلف، وخرج الكلام من التلویح إلى التصریح، فأقبل يقرر -في جلاء- صلة هذه الأمة المسلمة بتلك الأمة الصالحة في أصول ملتها، وفي أهم فروعها، ويقص علينا ما يحاوله سفهاء الأحلام من بني إسرائيل وغيرهم لحرمان المسلمين من تلك الصلة، وذلك بدعوتهم المسلمين إلى اتباع ملتهم تارة، وبالطعن في قبلتهم تارة أخرى، ويكر على كلتا المحاولتين بالهدم والاستئصال.

وقد رأيت الحديث الآنف كيف امترج فيه ذكر ملة إبراهيم بذكر قبلته فانظر كيف كان ذلك تأسياً قوياً لما يبني عليه هنا من ذكر ملة المسلمين وذكر قبلتهم. قال في شأن الملة إن أهل الكتاب يدعونكم -بعد هذا البيان- أن تكونوا هوداً أو نصارى. فقولوا لهم: بل نتبع ملة إبراهيم حنيقاً، وعرفوهم جلية الأمر في هذه الملة الحنيفية، وأنها إيمان بالله وإيمان بكل ما أنزل على النبيين لا نفرق بين أحد منهم، هذه عقیدتنا بيضاء ناصعة، فأي ركنيها تنقمون منا؟ وفي أيها

تخاصمنا؟ أفي الله وهو ربنا وربكم، أم في إبراهيم وبنيه، وهل كانوا هؤلاء أو نصارى؟ ﴿تَلَكَ أُمَّةٌ فَدَحَّتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْسِكُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وكان هذا التردid وحده كافياً لإفحامهم وإغلاق الباب في وجههم من هذه الناحية؛ إذ تبين أن أصول هذه الملة أمنع من أن نقبل الجدال في شيء منها.

فانتقل عنها وشيكًا إلى إبطال محاولتهم الأخرى في مسألة «الكعبة المعظمة» التي عليها يدور العمل بشعيرتين، مما أعظم شعائر الإسلام وأظهرها «الصلاه والحج»، والتي قد تقرر ما لها من الأصل الأصيل في الدين باتخاذ إبراهيم وإسماعيل إياها مثابة ومصلى. ولكن هذا لم يكن كافياً لإسكات المجادلين الذين اتخذوا من تحول المسلمين إليها وتركهم القبلة التي كانوا عليها مطعناً على النبوة فتنوا به بعض ضعفاء المؤمنين، فمست الحاجة إلى مزيد بسط في شأنها تقرر به الحجة وت遁ض به الشبهة، ولذلك تراه يوجه إليها أكبر الشطرين من عنایته:

فيأمر النبي ﷺ بادئ ذي بدء أن يجيب المتسائلين عن حكمة هذا التحويل جواب عزة وإباء، يرد الأمر فيه إلى من لا يسأل عما يفعل، قائلاً لهم: إن الجهات كلها سواء، يوجهنا الله منها إلى ما يشاء، وهو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.

ثم أخذ يأمر النبي ﷺ تارة، والمؤمنين تارة، ويأمرهما معًا تارة أخرى، في أسلوب مؤكد مفصل أن يثبتوا على هذه القبلة حيث هم، وفي كل مكان يقيمون فيه حضراً، وفي كل مكان يخرجون منه سفراً.

وطفق ينشر في تضاعيف هذه الأوامر المؤكدة ما شاء من تعريف بأسرار التشريع القديم والجديد، فيقول: إن تشريع تلك القبلة الوقتية ما كان إلا اختباراً لإيمان المهاجرين؛ ليتبين من يتبع الرسول ﷺ ومن ينقلب على عقبيه، وأما تشريع هذه القبلة الباقيه فإنه ينطوي على الحكم البالغة والمقاصد الجليلة، فهي القبلة الوسطى التي تليق بكم أيتها الأمة الوسطى، وهي القبلة التي ترضها يا أيها النبي والتي طالما قلبت وجهك في السماء مستشرفاً إلى الوحي بها، وهي القبلة التي يعلم أهل الكتاب أنها الحق من ربهم، وإن كان يكتمون ذلك حسداً وعناداً،

وهي القبلة التي يشهد الله بأنها الحق من عنده، وأخيراً هي القبلة التي لا يبقى لأحد من المنصفين حجة عليكم. أما الظالمون فلن ينقطع جدالهم في شأنها ما بقيت عداوتهم لكم، ولكن لا تخشوهם، بل وطنوا أنفسكم على التضحية في سبيل الله، واصبروا ولا تحزنوا على من سيقتل منكم في هذه السبيل؛ فإن الموت فيها هو الحياة الباقية. ثم أومأ إلى أن الجدال في هذه القبلة ليس صدّاً عن الشعائر التي في داخل المسجد الحرام فحسب، بل هو كذلك صدّاً عمّا حوله من الشعائر: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِ اللَّهِ﴾.

ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين على نحو ما أكد أمر القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعلمون أصلهما في تاريخ إبراهيم، ولكنهم يكتمون ما أنزله الله من البيانات وهم يعلمون.

رأيت هذه المراحل الأربع التي سلكها القرآن في دعوة بني إسرائيل كيف رتبها مرحلة مرحلة، وكيف سار في كل مرحلة منها خطوة خطوة.

فارجع البصر كرة أخرى إلى هذه المرحلة الأخيرة منها، لتنظر كيف استخدم موقعها هذا لتحقيق غرضين مختلفين، وجعلها حلقة اتصال بين مقصدين متباينين. فهي في جملتها مناجات من الله للنبي والمؤمنين في خاصة شأنهم وفيما يعنيهم من أمر دينهم، ولكنه جعل لهذه النجوى طرفين، لون كل طرف منها بلون المقصد الذي يتصل به، فالتحقى المقصدان فيها على أمر قد قدر.

ألم تر كيف بدأها بأن قص على المؤمنين مقالة أعدائهم في بعض حقائق الإسلام، وعمد إلى هذه الحقائق التي تماروا فيها، فجعل يمسح غبار الشبهة عن وجهها حتى جلاها بيضاء للناظرين. فكانت هذه البداية كما ترى نهاية لتلك المعارك الطويلة التي حورب فيها الباطل في كل ميدان.

ثم رأيت كيف ساق الحديث فجعل يثبت أقدام المؤمنين على تلك الحقائق النظرية والعملية، ويحرضهم على الاستمساك بها في غير ما آية... أفال تكون هذه النهاية بداية لمقصد جديد بعدها يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصلة.

بلى . . إن ذلك هو ما توحّي به سياقة هذه النجوى المتواصلة، التي مدت في خطاب المؤمنين مدًّا. وحولت مجرى الحديث معهم رويدًا رويدًا، حتى صار كل من ألقى سمعه إليها مليًّا، يسمع في طيّها نداءً خفيًّا: أن قد فرغنا اليوم من الأعداء جهادًا، وأقبلنا على الأولياء تعليمًا وإرشادًا، وأن قد طوينا كتاب الفجار، وجئنا نفتح كتاب الأبرار، وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوةبني إسرائيل لم تك إلا طليعة من كتائب الحق، تنبئ أن سيتلوها جيشه الجرار، أو شعاة من فجر الهدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار، ألا ترى الميدان قد أصبح خالٍ من تلك الأشباح الإسرائيلية التي كانت تتراهى لك في ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك. هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟

أو لا ترى هذه الأشعة الأولى من شمس الشريعة الإسلامية قد انبعثت يسوق بعضها بعضاً. أصول جامعة نظرية، تتبعها طائفة من فروعها الكبرى العملية . . . ألم يأن لسائر الفروع أن تجيء من خلفها حتى تبلغ الشمس ضاحها. هكذا تفتحت الآذان لسماع شرائع الإسلام مفصلة. فلو أنها أقبلت علينا الآن عدًّا وسردًّا ما حسبنا الحديث عنها حديثاً مقتضبًا.

لكن القرآن، وقد وضع على أدق الموازين البينية وأرفقها ب حاجات النفوس، لم يشأ أن يهجم على المقصود مكتفيًّا بهذا التمهيد بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك السفر البعيد . . وتأخذ أهيتها لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد . . فانظر فيما يلي :

المدخل إلى المقصد الثالث: في خمس عشرة آية «١٦٣-١٧٧»:

نيف وعشرين الآيات الكريمة، هي بمثابة الدليل بين الباب والدار يقطعها السائر في خطوات ثلاث: «الخطوة الأولى» تقرير وحدة الخالق المعبد. «الخطوة الثانية» تقرير وحدة الأمر المطاع. «الخطوة الثالثة» فهرس إجمالي للأوامر والطاعات المطلوبة.

«الخطوة الأولى» تقرير وحدة الخالق المعبد:

لقد جاءت هذه الخطوة في أشد أوقات الحاجة إليها بين سابقها ولاحقها، فإن

ما مضى من تعظيم أمر الكعبة والمقام والصفا المروءة كان من شأنه أن يلقى في روح الحديث العهد بالإسلام معنى من معاني الوثنية الأولى في تعظيم الأحجار والمواد، ولا سيما وهذه الأماكن المقدسة كانت يومئذ مبادرة للأصنام والأنصاب من حولها ومن فوقها؛ فوجب ألا يترك هذا التعظيم دون تحديد وتقيد، وألا نترك هذه الخلجان النفسية دون دفع وإبعاد، حتى لا يبقى شك في أن قيام المصليين عند مقام إبراهيم وتوجيه وجههم نحو الكعبة، وتمسح الطائفتين بأركانها، وطواف الحجاج والمعتمرين بين الصفا والمروءة، كل أولئك لا يقصد به الإسلام توجيه القلوب إلى هذه الأحجار والآثار؛ تزلجاً بعبادتها أو رجاء لرحمتها أو طلباً لشفاعتها، وإنما يقصد تعظيم الإله الحق وامتثال أمره بعبادته في مواطن رحمته ومطان بركته التي تنزلت فيها على عباده الصالحين من قبل، ثم تجديد ذكرى أولئك الصالحين في النفوس، وتمكين محبتهم في القلوب، باقتفاء آثارهم، والتأسي بحركاتهم وسكناتهم، حتى يتصل حاضر الأمة بماضيها، وحتى تتنظم منها أمة واحدة تدور حول محور واحد، وتجه إلى مقصد واحد هو أعلى المقاصد وأسمها ﴿وَإِلَهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أتدرون من هو...؟ إنه ليس الكعبة وليس الصفا والمروءة، ليس إبراهيم ولا مقام إبراهيم، ولكنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الذي وسع كل شيء رحمة ونعمته ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ النَّاسِ وَالنَّهَارِ وَالنَّفَلِكَ الَّتِي بَعْرِيَ فِي الْبَعْرِيِّ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخَيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَصَرِيفٍ أَرْبَيْعٍ وَالسَّحَابِ الْمُسَحَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَمَّا يَقُولُونَ﴾ والذي بيده القوة كلها والباس كله: لا يذهب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

هذا من جانب المقصد الذي وقع الفراغ منه.

وأما من جانب المقصد الذي أقبلنا عليه فإن هذه الخطوة كانت أساساً وتقديمة لا بد منها قبل الشروع في تفصيل الأحكام العملية، لتكون توجيباً للانتظار إلى الناحية التي ينبغي أن يتلقى منها الخطاب في شأن تلك الأحكام. ذلك أن المرء إذا عرف له سيداً واحداً وأسلم وجهه إليه وجوب ألا يصدر إلا عن أمره ولا يأخذ

التشريع إلا من يده. ومن كانت له أرباب متفرقون، وتنازعت فيه شركاء متشاشون تقاضاه كل واحد منهم نصيبه من طاعته، وكثرت عليه مصادر الأمر المطاع. فأمر للآباء والعشيرة، وأمر للعرف والعادات الموروثة والمستحدثة، وأمر للسادة والكبار، وأمر للشياطين والأهواء .. ولذلك عززها بالخطوة الثانية.

«الخطوة الثانية» تقرير وحدة الأمر المطاع :

وهي ركن عقيدة التوحيد في الإسلام، فكما أن من أصل التوحيد إلا تتخذ في عبادتك إلَّا من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق والضر والنفع، كذلك من أصل التوحيد إلا تجعل لغيره حُكْمًا في سائر تصرفاتك، بل تعتقد أن لا حُكْم إلا له، وأن بيده وحده الأمر والنهي والحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمته الله، ومن استحل حرامه أو حرم حلاله فقد كفر. وكما أنه لا يليق أن يكون هو الخالق ويعبد غيره، والرازق ويشكر غيره، لا يليق أن يكون هو الحاكم ويطاع غيره.

﴿يَتَأَبَّهَا النَّاسُ كُلُّهُمَا فِي الْأَرْضِ حَلَّاكَ طَيْبًا وَلَا تَنْتَعِنُوا هُنُّ الْمُحْكَمُونَ﴾.

ولقد سلك في تقرير هذه الوحدة التشريعية نحوً من مسلكه في تقرير وحدة الإلهية.

«فبدأها» بأن تعرف إلى الناس بنعمة الله الشاملة ورحمته الكاملة في سهولة الشريعة وملاءمتها للفطرة، إذ إنه في سعة الاختيار لم يحرم عليهم من الطعام إلا أربعة أشياء كلها رجس خبيث، وأحل لهم ما وراء ذلك أن ينتفعوا بسائر ما في الأرض من الحلال الطيب، وفي ضيق الاضطرار جعل المحظورات كلها تقلب مباحات مرفوعًا عنها الحرج **﴿فَمَنِ اضْطُرَّ إِغْرِيَّةً بَاغَ وَلَا عَادِ فَلَا إِنَّمَا عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**، وناهيك بهذا الأسلوب تلبيساً للقلوب وحملًا لها على الخضوع لأمر هذا رب الرؤوف بعباده. فمن يحل لكم الطيبات ويحرم عليكم البخافات أحق أن يطاع، أم من **﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**، فمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع، أم من **﴿لَا يَعْقِلُونَ كُلُّ شَيْءًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾**.

«ثم ختمها» بتعريفهم مبلغ غضبه وانتقامته ممن يكتم أمره ونهيه وبيدلهما بغير ما أمر ونهى ويأخذ على ذلك الرشا والسوحت **﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا أَنَّهُرَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.

والناظر في منهج هذا التقرير إذا تأمل في وجه اختيار حديث المطاعم والمكاسب من بين ضروب الحلال والحرام يرى من لطائف موقعه هنا ما يعرف به أنه هو العروة الوثقى التي شد بها وثاق البيان، وسدت بها الفروج بين خطواته السابقة واللاحقة.

فهو من الوجهة العملية أحد تلك الفروع التي سينتقل إليها الحديث عما قريب، فذكره هنا يعد إشعاراً بقرب الشروع في المقصد الجديد، ثم هو من الجهة الاعتقادية يتصل اتصالاً تاريخياً وثيقاً بعقيدة التوحيد التي هو بصددها، ذلك أن أهل الجاهلية من وثنين وكتابين لما اتبعوا خطوات الشيطان فأرلهم عن توحيد المعبد حتى اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله لم يطل عليهم الأمد حتى فتح لهم باب التشريك في التشريع بعد التشريك في العبادة. فجعلوا يحرمون من الحرج والأنعام حلالها، ويحلون حرامها، بل جعلوا عند ذبح أنعامهم يهلوون بها لغير الله -يهتفون بأسماء آلهتهم- ويستحلون طعمتها بذلك، فجمعوا فيها بين مفاسد ثلاث: المعصية، والبدعة، والشرك الأكبر.

كان باب التحريم والتحليل في المطاعم والمكاسب كان هو أول باب فتح في الجاهلية للتشريع بغير إذن الله، ولذلك كان هو أول باب سده القرآن بعد الشرك الأكبر. فترى النهي عنه والنص عليه وبيان الحق فيه تاليًا لذكر العقائد حتى في السور المكية كsurah al-An'ām^(١)، والأعراف، ويونس، والنحل، وغيرها.

ومما زاد موقعه هنا حسناً أن مجئه في سياق ذكر التوحيد وقع عدلاً لمحاجة حكم القبلة في سياق ذكر ملة إبراهيم، فكلاهما فرع عظيم يتصل بأصل عظيم. ألا ترى كيف ختم الكلام في شأنه بمثل ما ختم به هناك من وعيد المعاندين ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِ﴾؟ أو لا ترى كيف أن الإسلام جعل مسألتي القبلة

(١) قرأ في سورة الأنعام سبعاً وعشرين آية أولها قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ مِنَ الدُّرَّةِ وَالْأَنْعَمِ نَصِيباً﴾ الآيات [الأنعام: ١٣٦-١٥٣]، وفي سورة الأعراف قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَمَ زِيَّةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِبَاءَوْ﴾ [الأعراف: ٣٢، ٣١]، وقوله: ﴿فَخَلَقَ مِنْ بَدْرِهِمْ حَلْفٌ وَرَثُوا الْكَتَبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى﴾ [الأعراف: ١٦٩] وفي سورة يونس قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْنَا مِنْهُ زِيَّةً حَرَاماً وَلَكَلَّا﴾ [يونس: ٦٠، ٥٩] وفي سورة النحل قوله: ﴿وَلَا تَشْرُفُ بِعَمَدِ اللَّهِ ثُمَّا قَلِيلٌ﴾ [النحل: ٩٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَمَ عَيْنَكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْمَدَّ﴾ [النحل: ١١٥، ١١٦].

والذبائح كليهما من الشعائر التي يتميز بها المسلم من غيره. كما يتميز بالشهادة والصلوة: «من صلَّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله»^(١).

على أن بدعة التحرير بالرأي في هذا الباب لم تقتصر على الفئة الخارجة عن الملة، بل إن بعض المسلمين في عصر النبوة كانت تصيبهم عدوِّ الأمم قبلهم، إذ همُوا أن يترهبا، ويحرموا على أنفسهم الطيبات من الطعام وغيره، لا تحريراً لما أحل الله منها، بل زهادة فيها وحملًا للنفس على الصبر عنها بضرب من النذر أو اليمين أو العزيمة المصممة. فرد عليهم القرآن هذا الابتداع وأغلق بابه إغلاقاً، حتى لا يكون مدرجاً لما وراءه. ونبههم إلى أن من قضية توحيدهم لله أن ينزلوا على حكمه فيما أحل لهم؛ قياماً فيه بشرعية الشكر، كما نزلوا على حكمه فيما حرم عليهم قياماً فيه بشرعية الصبر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّ مِنْ طِبَّتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانُهُ تَبْدُونَ﴾.

فانظر كيف كان خطاب الناس عامة بهذا الأصل ولو احتجه توطئة لخطاب المؤمنين خاصة به وبما يستلوه من الأحكام، كما أن خطاب الناس عامة بأركان الإسلام في صدر السورة كان توطئة لما تلاه من خطاببني إسرائيل خاصة بدعوتهم إلى الدخول فيه قلباً وقالباً. هل ترى أحسن من هذا النسق المقابل المتعادل؟

والآن؛ وقد أخذت النفس أهبتها لتلقى سائر الأوامر والنواهي انظر كيف خطأ إليها الخطوة الثالثة والأخيرة.

«الخطوة الأخيرة» إجمال الشرائع الدينية:

وترى فيها عجائب من صنعة النسق:

١- انظر إلى حسن التخلص في ربطه بين المقصد القديم، والمقصد الجديد على وجه؛ به يتصلان لفظاً، وبه ينفصلان حكماً .. فهو في جمعها لفظاً كأنه

(١) عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك

المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته»، رواه البخاري: (٣٩١).

يضع إحدى قدميك عند آخر الماضي، وثانيةهما عند أول المستقبل. ولكنه في تفريقها حكمًا بأداتي النفي والاستدراك كأنما يحول قدميك جميًعا إلى الأمام: ﴿لَيْسَ أَلِّرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهُكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ﴾.

يقول: إن مسألة تعين الأماكن والجهات في مظاهر العبادات - تلك المسألة التي شغلت بالمخالفين والمؤالفين نقًداً وردًّا - ليست هي كل ما يطلب الاشتغال به من أمر البر، بل هي شعبة واحدة من جملة الشعب التي تشتمل عليها خصلة واحدة من جملة خصاله، وإنما البر كلمة جامعة لخصال الخير كلها؛ نظرية وعملية، في معاملة المخلوق، وعبادة الخالق، وتزكية الأخلاق، فبتلك الخصال جميعها فلتشغل المؤمنون الصادقون.

٢- ثم انظر إليه حين أقدم على تفصيل تلك الخصال كيف أنه لم يقبل عليها دفعه واحدة، بل أخذ يتدرج إليها في رفق ولين، فتقدم بكلمة فوق الإجمال ودون التفصيل هي بمثابة فهرس لقواعد الإيمان ولشرع الإسلام ﴿وَلَكِنَّ أَلِّرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلِئَكَةِ وَالْكِتَبِ وَالْبَيْنَ وَءَانَ الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾.

٣- وانظر إلى سرد قواعد الإيمان هنا كيف عدل بها عن ترتيبها المطبوع الذي راعاه في صدر السورة غير مرة، فترأه هنا يجمع بين الطرفين «الإيمان بالله واليوم الآخر» وختم بالواسطة «الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين»؛ ذلك لأن من هذه الوسائل تعرف الأحكام الشرعية، وعن يدها تؤخذ، فأخرها لتتصل بها تلك الأحكام؛ حتى لا يحول بين الأصل وفرعه حائل؛ ولذلك راعت ترتيب أركان هذه الواسطة فيما بينها. فصدر بالملائكة وهم حملة الوحي، وثنى بالكتاب وهو الوحي المحمول، وثلث بالنبين وهم مهبط الوحي. ومن هنا اتصل ببيان تلك الشرائع التي وصلت إلينا عن طريق النبوة.

المقصد الثالث من مقاصد السورة: في ست ومائة آية (١٧٨-٢٨٣)؛ بعد إرساء الأساس، تكون إقامة البنيان؛ وبعد الاطمئنان على سلامة الخارج، يجيء دور البناء والإنشاء في الداخل ..

نعم، لقد تم «إصلاح العقيدة» التي هي روح الدين وجوهره؛ فليبدأ «تفصيل الشريعة» التي هي مظهر الدين وهيكله .. لقد أزيلت شبهة المعاندين، وأقيمت

الحججة عليهم فلم يبق إلا إنارة السبيل للسالكين، وإيضاح المحجة بين يديهم .. كانت العناية من قبل، موجهة إلى بيان «حقائق الإيمان» فلتتوجه الآن، إلى بسط «شرائع الإسلام».

وأنت فقد رأيت كيف مهدت السورة لهذا التحول، إذ وضعت برزخاً يربط أطراف الحديث، ويلتقي في سباقها وسياقها .. ولو أنك تلتفتَ الآن التفاتة يسيرة إلى جانبك، لرأيت أدنى هذا البرزخ إليك تلك الآية الجامعة «آية البر» التي انتظمت أصول الدعوة بشرطيها: النظري، والعملي؛ ولرأيت أدنى هذين الشطرين إليك، هو هذا الشطر العملي .

فاعلم الآن، أن هذا الشطر العملي، الذي لمحناه من قبل مطويًا في فهرس موجز، سنراه فيما يلي، مبسوطًا في بيان مفصل .

ففي نيف ومائة آية، سنرى فتاً جديداً من المعاني، مهمته رسم نظام العمل للمؤمنين، وتفصيل الواجب والحرام والحلال لهم في شتى مناحي الحياة: في شأن الفرد، وفي شأن الأسرة، وفي شأن الأمة .. بياناً مؤتنفاً تارة، وجواباً عن سؤال تارة أخرى، متناولاً في جملته عشرات من شعب الأحكام .

هذه الحكمة العامة في تأخير إقامة البنيان، ريشما أرسىت قواعده، وفي تأجيل الفروع حتى أحكمت أصولها، ستبدو من ورائها حكم جزئية، وأسرار دقيقة، لمن أقبل على هذه الفروع، ينظر إلى تلاصق لبناتها في بنيتها، وتناسق حباتها في قلادتها، ثم رجع ينظر في وجه التقابل بين ذلك الإجمالي السابق، وهذا التفصيل اللاحق .
فلنأخذ في استعراض الحلقات الرئيسة لهذه السلسلة الجديدة:

لقد ختمت آية البر كما رأيت، بخصلة من خصال البر، ميّزت في إعرابها تمييزاً، فكان ذلك تنويهاً بشأنها أي تنويه .. تلك هي خلة الصبر، التي شعبتها الآية المذكورة إلى ثلاثة شعب: الصبر في البأس، والصبر في الضراء، والصبر حين البأس .. فهل تعلم أنه الآن وقد بدئ دور التفصيل، ستكون هذه الخصلة بشعبها الثالث، أول ما تعنى السورة بنشره من تلك الخصال، وأنها ستنشرها نشراً مرتبًا ترتيباً تصاعدياً على عكس ترتيب الطyi: الصبر حين البأس، ثم الصبر في الضراء، ثم الصبر في البأس .. وهل تعلم أن هذا النظام التصاعدي نفسه سيتبع في سائر الخصال: الوفاء بالعهود والعقود .

ثم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والبذل والتضحية في سبيل الله؟ . . . إليك البيان
مفصلاً:

الصبر حين البأس «١٧٨-١٨٢»:

لا تحسبيه هنا صبراً على الجروح والقروح في الحرب، فذلك معنى سلبي استسلامي؛ ولا تحسبيه صبراً في البطش والفتوك بالأعداء. فذلك جهد عملي إيجابي حقاً. ولكن مرده إلى قوة العضل والعصب. لا إلى قوة الخلق والأدب «ليس الشديد بالصرعة، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١) . هكذا سيختار الله لنا من مثل الصبر أمثلها، ومن موازينه أوزنها في معايير القيم، ذلك هو ضبط النفس حين البأس، كفأ لها عن الاندفاع وراء باعثة الانتقام، وردعأ لها عن الإسراف في القتل. ووقفاً بها عند حد التماطل والتكافؤ العادل «القصاص ١٧٨-١٧٩».

وإذ كان تداعي المعاني يسوقنا من الحديث عن القتلى إلى الحديث عنهم بشرف الموت، ناسب تتميم الكلام ببيان ما يجب على المحتضر من الوصية لأقاربه برأيهم «الوصية ١٨٠-١٨٢».

الصبر في الضراء:

وكذلك سيختار الله لنا من أبواب الصبر في الضراء أعلىها: ليس الصبر على الأمراض والألام بإطلاق. ولكنه الصبر على الظمآن والمخصصة في طاعة الله «الصوم ١٨٣-١٨٧» . . . وينساق الحديث من الصوم المؤقت عن بعض الحال، إلى الصوم الدائم عن السحت والحرام «١٨٨».

الصبر في البأساء:

وعلى هذا النمط نفسه، سنرى الصبر في البأساء هنا ليس هو ذلك الصبر الاضطراري على الفقر والأزمات المالية والجواح السماوية، ولكنه الصبر الاختياري على التضحية بالأموال؟ إنفاقاً لها في سبيل الله. والمثال الذي يختاره

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»، رواه البخاري: (٦١٤)، ومسلم: (٢٦٠٩).

التنزيل الحكيم هنا مثال مزدوج^(١)، ينتمي الصبر في البأس والضراء جميـعاً؛ إذ يجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال «الحج إلى بيت الله ١٨٩-٢٠٣».

ولا تنسـ هـا هـا أن تـنـظـرـ إـلـىـ المـعـبـرـةـ الـلطـيفـةـ التـيـ اـنـتـقـلـ بـهـاـ الـحـدـيـثـ مـنـ الصـوـمـ إـلـىـ الـحـجـ .. تـلـكـ هـيـ مـسـأـلـةـ الـأـهـلـةـ التـيـ جـعـلـهـاـ اللـهـ مـوـاقـيـتـ لـلـصـومـ وـلـلـحـجـ جـمـيـعاـ» ١٨٩.

ولنـقـفـ بـكـ هـاـ هـاـ وـقـفـةـ يـسـيرـةـ، نـشـيرـ فـيهـاـ إـلـىـ شـائـنـ عـجـيبـ مـنـ شـئـونـ النـسـقـ الـقـرـآنـيـ فـيـ هـذـاـ الـمـوـضـعـ :

ذلك أنه حين بدئ بذكر الحج، لم تتصل به أحكامه ولاه، بل فصل الشرع في الحديث عنه وعن حكمه بست آيات في أحكام الجهاد بالنفس والمال في قتال الأعداء «١٩٠-١٩٥» ... فاصلة يحسبها الجاهل رقعة غريبة في ثوب المعنى الجديد .. ولكن الذي يعرف تاريخ الإسلام وأسباب نزول القرآن، يعرف ما لهذه الفاصلة من شرف الموقع وإصابة المhz، لا لمجرد الاقتران الزمانـيـ بين تشريع الحج وبين غزوـةـ الحـديـبـيـةـ فيـ السـنـةـ السـادـسـةـ منـ الـهـجـرـةـ؛ ولكن لأنـ أـداءـ المناسـكـ فيـ ذـلـكـ الـعـامـ كـانـ عـزـماـ لـمـ يـنـفـذـ، وـأـمـاـ لـمـ يـتـحـقـقـ، إـذـ أحـصـرـ الـمـسـلـمـونـ يـوـمـئـذـ عنـ الـبـيـتـ، وـهـمـواـ أـنـ يـبـطـشـوـاـ بـأـعـادـهـمـ الـذـينـ صـدـوـهـمـ عـنـهـ؛ وـلـوـلـاـ أـنـ اللـهـ نـهـاـهـمـ عـنـ الـبـدـءـ بـالـعـدـوـانـ وـأـمـرـهـمـ أـلـاـ يـقـاتـلـوـاـ فـيـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ إـلـاـ مـنـ فـاتـلـهـمـ فـكـذـلـكـ فـلـيـنـصـرـفـ الـقـارـئـ أـوـ الـمـسـتـمـعـ هـاـ هـاـ وـهـوـ مـتـعـطـشـ لـإـتـمـامـ حـدـيـثـ الـحـجـ عـلـىـ أـنـ يـعـودـ إـلـيـهـ بـعـدـ فـاـصـلـ، كـمـاـ اـنـصـرـ الـمـسـلـمـونـ إـذـ ذـاكـ عـنـ مـكـةـ وـهـمـ إـلـيـهاـ مـتـعـطـشـونـ، عـلـىـ أـنـ يـعـودـوـاـ إـلـيـهاـ مـنـ عـامـ قـابـلـ .. هـكـذـاـ كـانـ هـذـهـ الـآـيـاتـ الـفـاـصـلـةـ تـذـكـارـاـ خـالـدـاـ لـتـلـكـ الـأـحـدـاثـ الـأـولـىـ .. وـهـكـذـاـ كـانـ الـقـرـآنـ الـحـكـيمـ مـرـأـةـ صـافـيـةـ نـطـالـعـ فـيـهـاـ صـورـ الـحـقـائـقـ مـنـ كـلـ لـوـنـ نـقـبـسـهـاـ طـورـاـ مـنـ تـصـرـيـحـ تـعبـيرـهـ، وـطـورـاـ مـنـ نـهـجـهـ وـأـسـلـوـبـهـ فـيـ تـعـجـيلـ الـبـيـانـ أـوـ تـأـخـيرـهـ. ثـمـ كـانـ هـذـهـ الـآـيـاتـ الـفـاـصـلـةـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ دـرـسـاـ عـمـلـيـاـ فـيـ صـبـرـ الـمـتـعـلـمـ عـلـىـ أـسـتـاذـهـ، لـاـ يـعـجلـهـ

(١) بل إنـ شـئـتـ قـلتـ: إـنـ مـثـلـ الـأـلـوـانـ؛ لـأـنـهـ سـيـدـخـلـ فـيـ ثـنـيـاهـ الصـبـرـ حـيـنـ الـبـأـسـ فـيـ مـجـاهـدـةـ أـعـدـاءـ اللـهـ ١٩٥-١٩٠.

بالسؤال عن أمر في أثناء حديثه؛ ولكن يتلخص قليلاً حتى يحدث له منه ذكرًا في ساعته الموقعة . . وهكذا لن يطول بنا الانتظار حتى نرى أحكام الحج والعمرة تجيء في إثر ذلك على شوق وظماء، فتشبّع وتروي بالبيان الشافي الوافي «١٩٦-٢٠٣»، ويتمام هذا البيان تتم الحلقة الأولى من الأحكام؛ أعني فرضية الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

استجمامة «٤-٢٠٤»:

وشاءت حكمة الله وتلطّفه بنا في تربية نفوسنا على طاعة أمره، ألا يصعد بنا إلى الحلقة الثانية من فورنا هذا، ولكن بعد استرواحة فيها شيء من الموعضة العامة. يثبت بها القلوب على ما مضى، ويوطئ لها السبيل إلى ما بقي . . وكان من حسن الموضع لهذه الموعضة العامة، أنها اتصلت بالموعضة الخاصة التي ختم بها حديث الحج، والتي قسمت الناس من حيث آمالهم ومطامحهم إلى فريقين: فريق يطلب خير الدنيا ولا يفكّر في أمر الآخرة، وفريق لا تنسيه دنياه مصالح أخرى «٢٠٠-٢٠٢» فجاءت الموعضة العامة تقسم الناس من حيث ما فيهم من خلق الأثرة أو الإيثار إلى فتتین: فئة لا تبالي أن تصحي في سبيل أهوائها بحياة العباد، وعمران البلاد، وفئة على العكس من ذلك لا تضن أن تصحي بنفسها في سبيل مرضاة الله «٢٠٤-٢٠٧».

وخلص الآيات الحكيمية من هذا التقسيم، إلى توجيه النصح للمؤمنين بأن يخلصوا نفوسهم من شوائب الهوى، ويستسلموا بكليتهم لأوامر الله، دون تفريق بين بعضها وبعض؛ محذرة إياهم من الرلل عنها بعد أن هدوا إليها ووقفوا عليها، معزية لهم بما قد يصيبهم من البأساء والضراء في سبيل إقامتها، ضاربة لهم المثل في ذلك بسنة السلف الصالح من الأمم السابقة «٢٠٨-٢١٤».

هنا تمت الاسترواحة بالموعضة العامة .

ستكون الحلقة الثانية في تفصيل الخصلة الثانية من الخصال العملية التي أجملت في آية البر، وهي الوفاء بالعهود والعقود؛ وستختار من بين هذه العقود أحدها بالعناية والرعاية: عقدة الزواج وما يدور حول محورها من شؤون الأسرة. أليست الأسرة هي المجال الأول للتدريب على حسن العشرة، وعلى التنزه من

رذيلة الأنانية والأثرة؟ ثم أليست الأمور متى استقامت في هذا المجتمع الصغير، استقامت بالتدرج في المجتمع الكبير، ثم في المجتمع الأكبر؟ .
تفصيل الشئون الأسرية المتشابكة: «الآيات من ٢١٥ إلى ٢٣٧» :

ترى كيف سيكون الانتقال إلى هذه الحلقة الثانية؟ هل يصعد القرآن بنا تَوَّا إلى تفصيل هذه الشئون المنزلية المشتبكة المتشعببة؟ كلا إن هذا البيان التربوي الحكيم لن يهجم بنا عليها دفعة، ولكنه سيتسطف في الوصول بنا إليها على مراحل من الأسئلة والأجوبة، تتصل أوائلها بالأحكام الماضية: الإنفاق والجهاد «٢١٨-٢١٥» وتنصل أواخرها^(١) بالأحكام التالية: مخالطة اليتامي، وشرائط المصاهرة، وموانع المباشرة «٢٢٠-٢٢٢» .. وهكذا نصل في رفق ولين، دون اقتضاب ولا ابتسار إلى صميم الحلقة الثانية «٢٢٣-٢٣٧» حيث نتلقى في شأن الحياة الزوجية دستوراً حكيمًا مؤلِّفاً من شطرين؛ وشطره الأول يعالج شئون الأسرة في أثناء اتصالها «٢٢٣-٢٢٢»، وشطره الأخير يعالج شئونها في حال انحلالها وانفصالها «٢٣٣-٢٣٧».

فخذ هذه الحلقة الجديدة من السورة الكريمة، وتعرف أسباب نزولها، وانظر كيف كانت كل قضية منها فتيا في حادثة معينة منفصلة عن أخواتها؛ ثم عد لتنظر في أسلوبها البياني جملة؛ وحاول أن ترى عليه مسحة انفصال أو انتقال، أو أن تحس فيه أثراً لصنعة لصق، أو تكلف لحام .. واعلم منذ الآن أنك ستحاول عبثاً؛ فإنك لن تجد أمامك إلا سبيكة واحدة يطرد فيها عرق واحد، ويجري فيها ماء واحد، على رغم أنها جمعت من معادن شتى.

تأمل أول كل شيء في خط سير المعاني:

انظر كيف استهل الحديث بإرساء الأساس، وذلك بتقرير حق العشرة

(١) ارجع البصر كرتين إلى هذا النظام الهندسي في البيان .. ثم سل نفسك هل كان في الإمكان أن يختلف عقد نظامه لو لم تقع الأحداث التي اتخذت منها مادته، أو لو وقع بعضها وتخلف بعضها، أو لو وقعت كلها ولم تنبت في روح القوم باعثة السؤال عن أحکامها ..؟ لقد كان القدر يسير إذاً في ركاب هذا التنظيم، فأثار مادة حوادثه، وبعث حاجات النفوس إلى طلب بيانها .. ولم يبق إلا أن تقول معي: آمنت أن الذي بيده تصريف الزمان، هو هو الذي بيده تنزيل القرآن .. ألا له الخلق والأمر. تبارك الله رب العالمين.

والمخالطة الزوجية «٢٢٣» ثم انظر كيف تلاه النهي عن إدخال اليمين في أمثال هذه الحقوق المقدسة، سواء بالحلف على منع البر عن مستحقه، أو على قطع ما أمر الله به أن يوصل «٢٢٤-٢٢٥» وكيف عقبه بحكم فرع من فروع هذا المبدأ متصل بالعلاقة الزوجية، وهو حكم من حلف على الامتناع عن زوجته «٢٢٦-٢٢٧» وكيف اتصل من هنا بأحكام الطلاق وما يتبع الطلاق من حقوق وواجبات «٢٢٨».

إذا أعجبك هذا التسلسل المعنوي، وهذا التدرج المنطقي، في شئون كانت متفرقة، ارتجلتها الحوادث ارتجالاً، فعالاً معي لأضع يدك في هذه القطعة على حرف واحد تلمس فيه مبلغ الإحکام في التأليف بين هذه المتفرقات، حتى صارت شأنًا واحدًا ذا نسق واحد:

ذلك هو موضع النقلة من فتيا الإيلاء إلى فتيا الطلاق: ﴿وَإِنْ عَزَّمُوا الظَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَيِّئُ عَلَيْهِمْ وَالْمُطَلَّقُتُ يَرَبَّصُ﴾ ألا ترى كيف أدير الأسلوب في حكم الإيلاء على وجه معين، يطل القارئ منه على أفق متلبد ينذر باحتمال الفراق؛ فلما جاء بعده الحديث عن أحکام الفراق لم يكن غريباً، بل وجد مكانه مهياً له من قبل؟ لأن خاتمة حكم الإيلاء كانت بمثابة عروة مفتوحة، تستشرف إلى عروة أخرى تشتبك معها؛ فلما جاءت فتيا الطلاق في إبانها كانت هي تلك العروة المنتظرة. وما هو إلا أن التقت العروتان حتى اعتنقتا وكانت منهما حلقة مفرغة لا يدرى أين طرافها، وهكذا أصبح الحديثان حديثاً واحداً.

ترى من علم محمداً -لو كان القرآن من عنده- أنه سوف يستفتني يوماً ما في تلك التفاصيل الدقيقة لأحكام الطلاق؟ ومن علمه أنه سيجد لهذا السؤال جواباً، وأن هذا الجواب سيوضع في نسق مع حكم الإيلاء، وأنه ينبغي لاستقامته النسق كله أن يسايق حكم الإيلاء الذي وقع الاستفتاء فيه الآن، على وجه يجعل آخر شقيقه هو أدناهما إلى حديث الطلاق الذي سوف يسأل عنه بعد حين؛ لكي ينضم الشكل إلى شكله متى جاء وقت بيانه؟ ... هيئات أن يحوم علم البشر حول هذا الأفق الأعلى؛ فإنما ذلك شأن عالم الغيب الشهادة، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وتمضي السورة في هذا النمط الجديد، مفصلة آثار الطلاق وتوابعه كلها: عدة، ورجعة، وخلعاً، ورضاعاً، واسترضاعاً، وخطبة، وصداقاً، ومتعة . . إلى تام هذه الحلقة الثانية «٢٣٧».

هناك تبدأ الحلقة الثالثة ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةُ أَوْسَطُنَّ﴾

[البقرة: ٢٣٨-٢٧٤].

لنتظر: كيف تمت النقلة بين هاتين الحلقتين؟

إننا بمقدار ما رأينا من التلبث والتمكث، والاستجمام والتنفس بين الحلقة الأولى والثانية، سرر على عكس ذلك بين الحلقة الثانية والثالثة، نقلة شبه خاطفة بين لفترة جد مبالغة، قد يحسبها الناظر اقتضاياً؛ وما هي باقتضاب إلا في حكم النظر السطحي .. أما من تابع معنا سير قافلة المعاني منذ بدايتها، وقطع معنا ثلثي الطريق الذي رسمته آية البر: من الوفاء بالعهود، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، فإنه لا ريب سوف يستشرف معنا إلى ثلثةباقي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وبذل المال على حبه في سبيل الله، وسوف يرى أن هذه الحلقة الثالثة قد جاءت هنا في رتبتها وفي موضعها المقدر لها، وفق ترتيبها في الآية الجامعة.

سيقول قائل: نعم، لقد جاءت في موضعها ورتبتها، ولكن الانتقال إليها قد تم دون إعداد نفسي، ولا تمهيد بياني.

نقول: بل كان هذا الإعداد والتمهيد، في الآية الكريمة التي ختمت بها الحلقة السابقة: ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ يُمَدِّنُ بِصَيْرُ﴾ فهذه لو تدبرت معبرة ذهبية وضعفت في وقت الحاجة إليها بعد أن استطال الحديث في تفصيل الحقوق والواجبات المنزلية؛ معبرة جيء بها لتنقلنا من ضوابط المحاسبة والمخاخصة، إلى سكون المسامحة والمكارمة؛ فكانت مراججاً وسطأ صعد بنا إلى أفق أعلى، تمهيداً للعروج بنا فيما يلي إلى الأفق الأعلى .. ألا تسمع إلى هذه الكلمات: ﴿ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ «لا تنسوا .. الفضل .. بينكم». إن كل حرف في هذه الكلمات ينادي بأنها كلمات حبيب مودع، كان قد أقام بيننا فترة ما، ليفصل في شؤوننا؛ ثم أخذ الآن يطوي صحيفة أحکامه،

ليتحول بنا عنها إلى ما هو أهتم منها؛ فقال لنا وهو يطويها: دعوا المشادة في هذه الشؤون الجزئية الصغرى، سووها فيما بينكم بقانون البر والفضل، الذي هو أسمى من قانون الحق والعدل؛ وحولوا أبصاركم معي إلى الشؤون الكلية الكبرى، التي هي أحق بأن يتتوفر عليها العزم والقصد، وأحرى أن يستغل بها العقل والقلب .. نعم، نعم. لقد كفأكم هذا حديثاً عن حقوق الزوج والولد، فاستمعوا الآن إلى الحديث عن حقوق الله والوطن:

حافظوا على الصلاة .. أنفقوا في سبيل الله .. جاهدوا في سبيل الله ..
«وبعد» فهل حديث الصلاة هنا يعتبر مقصداً أصلياً مستقلاً، أم هو جزء من مقصد آخر.

لكي نحسن الجواب عن هذا السؤال، يجعلنا أن نرجع البصر كرة أخرى،
لنظر في جملة الخصال التي جمعت في آية البر، والتي فصلت في الآيات من
بعدها إلى قرب آخر السورة، ولنقارن بين حظوظها من عناية الذكر الحكيم. فماذا
نرى؟

نرى التنويم بفضيلتي الإنفاق والجهاد في سبيل الله، لا يزال يعاد ويردد في مطالع الحديث ومقاطعه، في إجماله وفي تفصيله، ترديداً ينادي بأنه هو المقصود الأهم، والهدف الأعظم، من التشريع في هذه السورة .. فلو أننا، في ضوء هذا الأسلوب، تمثلنا تلك البيئة وأحداثها، وتمثلها القوم وهم تتلقى عليهم شرائع هذه السورة وأحكامها، لتمثلنا معسكراً ثابتاً للجهاد المزدوج؛ المالي والبدني، ولتمثلنا على رأس هذا المعسكر قائداً يقطأ حريصاً، لا يعزب عنه شأن من شئون جنوده؛ خاصتها وعامتها، ولا يفتأ يلقى عليهم أوامرها وإرشاداتها في مختلف تلك الشئون كلما فرغ من إفتائهم في نوازلهم العارضة الواقتية، رجع بالحديث إلى مجراه العتيد، في شأن مهمتهم الرئيسة.

ضع هذه اللوحة الجندي أمام عينيك .. فلن يكون عندك عجب أن ترى الحديث في شأن الجهاد يبرز الآن على إثر تلك الشئون؛ ذلك أن بساطة كان أبداً منشوراً، وأن داعيته كانت دائمًا قائمة؛ فإذا عاد ذكره بعد أن زال ما حوله من الشواغل الواقية، فإنما يجيء على أصله وسجيته؛ فلا يسأل عن علته.

ماذا نقول؟ .. شأن الجهاد!! أليس الحديث سيفتح الآن بشأن الصلاة،
وعدة الوفاة، لا بشأن الجهاد؟

بل نقول، ونحن نعني ما نقول: إن الحديث يعود الآن إلى شأن الجهاد، وإن الخطاب هنا بالصلاوة وغيرها يتوجه إلى المجاهدين من حيث هم مجاهدون، ليحل المشاكل التي يثيرها موقف الجهاد نفسه، قبل أن يوجه إليهم الأمر الصريح بالقتال.

فأول هذه المشاكل مشكلة الصلاة في الحرب: ألا يكون jihad رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله؟

يجيبنا الكتاب العزيز: لا رخصة في ترك الصلاة ولا في تأجيلها، لا في سلم ولا في حرب، ولا في أمن ولا في خوف: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةُ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] وإنما الرخصة عند الخوف في شيء واحد: في صفات الصلاة وهيأتها: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ فِرَجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَمْتُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

والصلاحة كما نعلم قوة معنوية على العدو، وعدة من عدد النصر^(١). لا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين، قبل أن يؤمرموا بالقتال أمراً صريحاً. والصلاحة في الوقت نفسه طهرة للنفس من مساوى الأخلاق، تنقيتها من دنس الشح والحرص على حطام الدنيا^(٢). لا جرم كان من الحكمة كذلك جعلها دعامة للوصية الآنفة، التي أمرتنا بالتسامح والتکارم في المعاملات .. هكذا كان وضع حديث الصلاة مزدوج الفائدة: دواءً وغذاءً معًا، ينظر إلى الأمام وإلى الوراء جميعاً. بل قل: إنه مثلث الفائدة؛ لأنه في نظره إلى الخلف لا ينظر إلى الآية الآنفة وحدها، بل ينظر كذلك إلى الآية الجامعة، ليفصل إجمالها في هذا الجانب^(٣).

(١) هكذا قال الله: ﴿وَاسْتَعِيْبُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

(٢) وهكذا قال الله في وصف الإنسان: ﴿وَإِذَا مَسَهُ الْحَيْرُ مَنْعِمًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا الْمُصَابِينَ﴾.

(٣) إذا فهمت حسن هذا التلطف، في الانتقال من المعنى القديم إلى المعنى الجديد، وأدركت جمال هذه الأوضاع الهندسية، التي تناست بها المعاني السابقة واللاحقة، فقد زالت عنك شبهة =

والجندى في الحرب تشغله على الأقل مخافتان: مخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه من أخطار الموت أو الهزيمة، ومخافة على أهله من الضياع والعلة لو قتل .. لذلك انساق البيان الكريم يطرد عن قلبه كلتا المخافتين . أما أهله فقد وصى الله للزوجة، إذا مات زوجها، بأن تتمتع حولاً^(١) كاملاً في بيته، وكذلك مطلقته سيتقرر لها حق في المتعة لا ينسى ، فليقر عيناً من هذه الناحية . (٢٤٠-٢٤٢).

وأما خوف الموت فليعلم أن الذي يطلب الموت قد توهب له الحياة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَرِهِمْ وَهُمُ الْوُفُّ حَذَرَ الْمَوْتَ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُؤْنَثٌ ثُمَّ أَعْجَبَهُمْ﴾.

أما خوف الهزيمة، فإن النصر بيد الله ﴿كَمْ مِنْ فَتَّٰةٍ فَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتلك سنة الله في المرسلين (٢٤٦-٢٥٣).

هكذا أبعدت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين، بعد أن زودت أرواحهم بزاد التقوى، وهكذا أصبحوا على استعداد نفسي كامل، لتلقي الأوامر العليا،

= الاقتضاب هنا في الانتقال إلى حديث الصلاة .. غير أنها إذا قسنا هذه النقلة إلى النقلة السابقة بين الحلقتين؛ الأولى والثانية، ألسنا نرى هذا التمهيد قصيراً وهذا التحول سريعاً؟ أليست النفس في سيرها هنا تدركها رجة خفيفة لهذا التحول السريع الذي تفرضه عليها حركة قائلها؟ ألا فاعلم، علمك الله، أن هذه سرعة مقصودة، وأن من الخير لنا أن نحس بهذه الرجة الخفيفة من أثر ذلك التحول السريع؛ فإن لذلك مغزاً عميقاً في تربية النفوس المؤمنة .. إن هذه النقلة تصور لنا ما يجب أن يكون عليه المؤمن، إذا سمع نداء الواجب الروحي وهو منهكم في معركة الحياة، فكأننا بهذا الأسلوب الحكيم ينادينا: إنه ليس شأن المؤمن أن يحتاج إلى كبير معالجة للتسامي بروحه فوق مشاغل الأهل والولد، وإنما شأنه أن يتخل نفسه من غمرتها انتشالاً فورياً، ليسع إلى تلبية ذلك النداء الأقدس، قائلاً للدنيا كلها: «دعيني أتعبد لربِّي». نعم هذا شأن المؤمنين ﴿تَجَافِ حُجُوْبِهِمْ عَنِ الْمَسَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ حَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

(١) للمفسرين في هذه الآية قولان مشهوران: أحدهما: أنها وصية مندوية لا واجبة . الثاني: أنها كانت واجبة في صدر الإسلام ثم نسخت بالآية السابقة «٢٣٤» التي توجب تربص أربعة أشهر وعشراً لا أكثر ... واضح أن كلا القولين مبني على أن آية الحول يسري حكمها على الأزواج عامة .. ولكن السياق الحكيم أوحى إلينا هذا المعنى الجديد: وهو أن تربص الحول الكامل كان خصوصية فضلت بها زوجات المجاهدين على زوجات القاعدين . والله أعلم .

فليصدر إليهم الأمر صريحاً بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم «٢٤٤-٢٤٥». ولتفصل لهم العبر التاريخية، التي ثبتت أقدامهم حين البأس، والتي تزيدهم أملاً في النصر «٢٤٦-٢٥٣».

والجهاد كما قلنا جهادان: جهاد بالنفس، وجهاد بالمال، وليس الجهاد بالمال وقفًا على شؤون الحرب، بل هو بذله في كل ما يرفة عن الأمة، ويقوى شوكة الدولة، ويحمي حمى الملة.

ولقد أخذ الجهاد بالنفس حظه من الدعوة في آية قصيرة «٢٤٤» ثم في آيات كثيرة «٢٤٦-٢٥٣». وأخذ الجهاد بالمال بعض حظه في آية قصيرة «٢٥٥» فمن العدل أن يأخذ تمام حظه في آيات كثيرة كذلك. وهكذا نرى الدعوة إليه تأخذ الآن قسطها؛ مطبوعاً بطبع الشدة تارة «٢٥٤-٢٦٠»^(٢) وطابع اللين تارة «٢٦١» وطابع التعليم المفصل لآداب البذل تارة أخرى «٢٦٢-٢٧٤».

الآيات من ٢٧٥-٢٨٣:

ثم ينساق الحديث من فضيلة التضحية والإيثار، التي هي أسمى الفضائل الاجتماعية، إلى رذيلة الجشع والاستئثار، التي هي في الطرف المقابل، أحاط

(١) من الطرائف البينية في أسلوب القرآن هنا أن النتيجة فيه تقع من المقدمات موقع المركز من الدائرة، لا موقع الطرف من الخط كما هو شأن الأسلوب التعليمي المشهور. ألا ترى هذا الأمر بالقتل في سبيل الله «٢٤٤» قد أحيط من جانبيه كليهما بدعائمه وبواعهه، إجمالاً قبل، وتفصيلاً بعد؟ .. على أن هذا المنهج الطريف لا يخص هذا الموضوع من القرآن، فإنك ستجد شواهد مثبتة في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز .. تدبر قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿أَلَيْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ [بِيَنْكُمْ] فَإِنْ كَمَلَ الدِّينُ إِسْلَامِيَ باشتماله مادياً وروحياً على كل النظم الكفيلة بإصلاح الفرد، والأسرة، والجماعة، والدولة، والإنسانية العامة، لم يذكر من دلائله قبل إلا طرف يسير. أما بقية البرهان فقد نشرت حباته على أثر ذلك إلى تمام الآية العاشرة من السورة المذكورة .. وانظر قوله تعالى في سورة النحل: ﴿لَا تَنْجِدُوا إِلَهَيْنِ أَنْتَنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَحْدَهُ﴾ فقد جاء وسطاً بين دلائل الوحدانية في التدبير، ودلائل الوحدانية في الإنعام والإحسان .. وتأمل قوله في السورة نفسها: ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فقد جاء بعد تبيان أصول العقيدة، وقبل تبيين أصول الفضيلة العملية. ومن جملة السابق واللاحق، يتالف البرهان على صدق هذه القضية، وهي أن الكتاب تبيان لكل شيء.

(٢) ففي هذه الآيات السبع تحذير شديد للبخلاء من يوم لا يبذل فيه فداء، ولا يغنى فيه خليل عن خليله، ولا تنفع فيه شفاعة الشاغعين؛ ثم تأكيد لهذا المعنى يمحو كل شبهة يتعلق بها من يعتمد على الشفاعة، ونفي كل سلطان ونفوذ لغير الله، ورفع كل ريبة عن حقيقة يوم الدين .. وذلك كله ليكون البذل عن إيمان وعقيدة سليمة، لا رباء ولا زلفي لأحد، ولكن ابتعاءً لوجه الله الواحد الأحد.

أنواع المعاملات البشرية «أعني رذيلة الربا، التي تستغل فيها حاجة الضعيف، ويتقاضى فيها المحسن ثمن المعروف الذي يبذله» **٢٧٥-٢٧٩**.

وكان هذا الاقتران بينهما في البيان إبرازاً لمدى الافتراق بين قيمتهما في حكم الصيائر الحية.

وبين هذين الطرفين المتباعددين، يقيم القرآن ميزان القسط في الحد الأوسط، جاعلاً لصاحب الحق سلطاناً في المطالبة برأس ماله كله لا يتقصّ منه شيء ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾. غير أنه يحذرنا من سوء استعمال هذا الحق بإزاء المعسرين؛ فـيأمرنا أن ننخدّ فيهم إحدى الحسنين: إما الانتظار إلى الميسرة، وإما التنازل لهم نهائياً عن الدين. وهذه أكرم وأفضل ﴿وَإِنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **٢٨٠-٢٨١**.

ولما كان الطابع البارز في هذا التشريع القرآني، وهو طابع القناعة والسماحة، قد يوحى إلى النفوس شيئاً من التهاون في أمر المال، وربما مال بها إلى التفريط في حفظه وتشميره، جاءت آياتاً الدين والرهان ^(١) **٢٨٢-٢٨٣** تدفعان عن نفوسنا هذا التوهم، وتصوغان للمؤمنين دستوراً هو أدق الدساتير المدنية، في حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل، تمهدًا لإنفاقها في أحسن الوجوه.. فمن لم يجد سبيلاً إلى التوثق بوثيقة ما، ولم يبق أمامه إلا أن يكلّ عميله إلى ذمته وأمانته ﴿فَلَيَوَدَ الَّذِي أَوْتَنَ أَمْتَنَهُ﴾.

وهكذا ختم الشرط العملي من السورة، بهذه القاعدة المثلثة، التي هي أساس كل معاملة شريفة، أعني قاعدة الصدق والأمانة، جعلنا الله من أهل الصدق والأمانة... أمين.

المقصد الرابع من مقاصد السورة: في آية واحدة **٢٨٤.**

في الآية السابقة، انتهت مهمة الأحكام التفصيلية، عند الحد الذي أراد الله بيانه في هذه السورة؛ وبها ختم الشرط الثاني من الحقيقة الدينية، وهو شطرها العملي؛ بعد أن أرسى شطرها الاعتقادي في الآية **١٢٢** وما بعدها.

(١) وآية الدين هي أطول آية في القرآن.

وهكذا تناول البيان حتى الآن:

١- حقائق الإيمان.

٢- شرائع الإسلام.

هل بقي في بيان الدين شيء فوق هذه الأركان؟

نعم؛ لقد بقى ذروته العليا، وحليله الكبرى..

بعد الإيمان .. والإسلام .. بقي الإحسان؛ وهو كما فسره صاحب الرسالة - صلوات الله وسلامه عليه - أن تراقب الله في كل شأنك، وأن تستشعر مشاهدته لك في سرك وإعلانك، وأن تستعد لمحاسبتة لك، حتى على ذات صدرك، ودخيلة نفسك .. مطلب عزيز لا يطيق الوفاء به كل مؤمن، ولا كل مسلم؛ إنما يحوم حول حماه صفة الصفوة من المتقين .. وكأنه لعنة هذا المطلب ونفاسته صان الله درته اليتيمة في هذه الآية الواحدة، التي توج بها هامة السورة: ﴿وَإِنْ ثُبُدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِّبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].



الختمة: في آيتين اثنتين «٢٨٥-٢٨٦»:

والآن وقد تناول البيان أركان الدين كلها، وألمّ بعناصره جميعها: الإيمان، والإسلام، والإحسان؛ لم يبق بعد تمام الحديث إلا طي صحيفته، وإعلان ختامه؟

فهل تعرف كيف طويت صحيفه هذه السورة، وكيف أعلن ختمتها؟
لنعد بذاكرتنا إلى الآيات الخمس التي افتتحت بها سورة البقرة؛ لنرى كيف تتجاوب تلك المقدمة مع هذه الخاتمة؛ ثم كيف يتعانق الطرفان هكذا ليلتجم من قوسيهما سور محكم يحيط بهذه السورة، فإذا هي سورة حقاً، أي بنية محبوبة مسورة.
ألم يكن مطلع السورة وعداً كريماً لمن سيؤمن بها ويطيع أمرها بأنهم أهل الهدى وأهل الفلاح؟

ألسنا نترقب الآن صدى هذا الوعد؟ بلـ؛ إننا ننتظر الآن أن تحدثنا السورة: هل آمن بها أحد، وهل اتبع هداها أحد، ثم ننتظر منها إن كان ذلك قد وقع، أن تحدثنا عن جزء من استمع واتبع ..

وهكذا سيكون مقطع السورة:

- ١ - بلاًغا عن نجاح دعوتها: ﴿إِمَّا مَنْ أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ... وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.
- ٢ - وفاة بوعدها لكل نفس بذلت وسعها في اتباعها: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أَكَسَبَتْ﴾.
- ٣ - فتحاً لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهددين. فليسيطروا إذاً أكفهم مبتلهين: «ربنا .. ربنا .. ربنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».



تلك هي سورة البقرة .. أرأيت وحدتها في كثرتها؟ أعرفت اتجاه خطوطها في لوحتها؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها، وارتفعت سماواتها بغير عمد تسندها؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها، لا أقول أحسن دمية، بل أجمل صورة حية. كل ذرة في خليتها، وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه، وكل جهاز في جسمه، ينادي بأنه قد أخذ مكانه المقسم، وفقاً لخط جامع مرسوم، رسمه مربي النفوس ومزكيها، ومنور العقول وهاديها، ومرشد الأرواح وحاديها .. فتالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام نزولها، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة، فكيف وكل نجم منها -كسائر النجوم في سائر سور - كان يوضع في رتبته من فور نزوله، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظاراً لحلوله؛ وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل؟ ثم كيف وقد اختصت من بين سور المنجمة بأنها حددت موقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام، بل بتسعة أعوام؟

لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية «معجزات» ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات!

الفهرس التفصيلي

الصفحة	الموضوع
٨	أنواع الشبهات المتعلقة بالقرآن
٨	تلخيص مركز للكتاب
١٠	بيان العمل في الكتاب
١٣	مجمل الحجج في الكتاب
١٤	إقرار محمد ﷺ أن القرآن ليس من عنده
١٦	في القرآن ما لا يستنبط بالعقل ولا بالتفكير، وفيه ما لا يدرك بالوجدان ولا بالشعور
١٨	أهمية النبي ﷺ، وعدم أخذه عن معلم من البشر، دليل على كون القرآن من عند الله
٢١	ظاهرة الوحي دليل على أن القرآن من عند الله
٢١	خلاصة الحجج الخارجية
٢٣	التحدي بالقرآن
٢٥	جديد لغة القرآن
٢٦	النظام الصوتي، والجمال التركيبية
٢٧	الخصائص البيانية للقرآن الكريم
٣١	موقف الفرق الإسلامية من القرآن الكريم
٣٥	موقف المعتزلة من حجية القرآن وقطعية ثبوته
٣٩	موقف الأشاعرة من حجية القرآن وقطعية ثبوته
٤١	موقف الرافضة من القرآن الكريم
٤٢	الاتجاهين الإخباري، والأصولي
٤٣	ردود بعض علماء الشيعة على مسألة التحريف
٤٦	القرآن في العهد النبوي
٤٧	القرآن في عهد أبي بكر

٤٨	القرآن في عهد عثمان
٥١	مصاحف الصحابة
٦٢	حياة الرسول قبلبعثة
٦٣	جمع القرآن
٦٦	النظيرية الدينية في القرآن
٦٩	القرآن، والأدب العربي
٧١	القرآن في مكة
٧٣	القرآن في المدينة
٧٨	مقدمة المؤلف للطبعة الثانية
٨٠	مقدمة المؤلف للطبعة الأولى
٨٢	معنى القرآن في اللغة
٨٣	سر تسمية القرآن: القرآن، والكتاب
٨٤	تعريف القرآن بالحدود المنطقية
٨٥	تعريف القرآن
٨٥	شرح التعريف
٨٦	الفرق بين القرآن والأحاديث النبوية
٨٦	الفرق بين القرآن، والأحاديث القدسية
٨٩	تعريف القرآن بنفسه، وبالمتكلم به
٩٠	تصريح القرآن بأنه لا صنعة فيه لمحمد ولا لغيره من الخلق
٩٠	إقرار النبي ﷺ بأن القرآن ليس من عنده من أقوى الأدلة على أن القرآن كلام الله
٩١	أحوال النبي ﷺ دليل على صدقه في قوله: القرآن كلام الله
٩٣	احتياج النبي ﷺ إلى الوحي، وتأخره، دليل على كون القرآن من عند الله
٩٣	حادثة الإفك
٩٦	دلالة آيات العتاب على مصدرية القرآن
٩٩	توقف الرسول ﷺ في بيان القرآن، ودلالته على المصدرية
١٠٠	صلاح الحديبية، ودلاته على المصدرية
١٠٥	حالته ﷺ عند نزول الوحي، ودلاتها على مصدرية القرآن
١٠٦	سيرته ﷺ العامة، ودلاتها على أن القرآن من عند الله
١٠٦	تبرؤه من علم الغيب
١٠٧	ظاهره كباطنه، لا يخون أبداً

هل يمكن أن يكون القرآن إيحاءً ذاتياً من نفس محمد؟	١٠٩
المعاني النقلية في القرآن لا تستنبط بالعقل، ولا تدرك بالوجدان	١١٠
الأخبار الغيبية في القرآن، ودلالتها على أن القرآن من الله	١١١
للعقل حد في الإدراك	١١٢
الغيب، ودلالته على مصدرية القرآن	١١٣
المستقبل، ودلالته على مصدرية القرآن	١١٣
أمثلة من إخبار القرآن بالمستقبل	١١٤
التحدي القرآني، ودلاته على المصدرية	١١٦
إخبار النبي ﷺ بعصمته من الناس، دليل على مصدرية القرآن	١١٧
هل أخذ القرآن عن معلم؟	١٣٧
نشأ محمد ﷺ بين أمة أمية، اشتق لها اسم من الجهل	١٢٨
اللقاء بالراهب بحيري، وبورقة بن نوفل لم يكن سرًا مستوراً	١٢٩
حديث التاريخ عن لقاء النبي ﷺ ببحيري وورقة	١٢٩
هل كان في العلماء يومئذ من يصلح أن تكون له على محمد وقرآنه تلك اليد العلمية؟	١٣٠
تصحيح القرآن لأغلاط أهل الكتاب في عصره، وبيان جهلهم	١٣٠
الحديث القرآن عن علماء الدين في زمانه	١٣١
كان أهل الكتاب أبخل الناس بعلمهم في زمان النبي ﷺ	١٣٢
رد القرآن على شبهة وجود معلم للرسول	١٣٣
أنواع المجادلات التي حكها القرآن عن الطاعنين فيه	١٣٧
ظاهرة الوحي، ودلالتها على المصدرية	١٣٨
تحليل ظاهرة الوحي	١٤٠
الفرق بين الوحي والتوبات المرضية أو العصبية	١٤١
أدلة معاصرة على إمكان الوحي	١٤٣
خلاصة البحث في الحجج الخارجية الدالة على مصدرية القرآن	١٤٤
إعجاز القرآن	١٤٦
كشف الشبهات حول الإعجاز القرآني	١٤٨
من امتلك ناصية البيان بانت له دلائل الإعجاز	١٤٨
عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن، فعجزُ غيرهم أولى	١٥٠
القول بالصرف	١٥٣

إعجاز القرآن في لغته ١٥٧	
أسلوب القرآن ، ودلالته على المصدرية ١٦٤	
دراسة في الأسلوب القرآني ١٦٨	
الجمال الصوتي للقرآن ١٦٨	
المقارنة بين القرآن والشعر ١٦٩	
الترتيب الصوتي للحروف القرآنية ١٧٠	
بيان بعض الخصائص البينية للقرآن الكريم ١٧٤	
أسلوب القرآن تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها ، على تباعد ما بين أطرافها ١٧٥	
مثال على الخصائص البينية للقرآن ١٨٥	
الإيجاز في القرآن ١٩٣	
هل في القرآن زائد؟! ١٩٦	
البيان في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كِمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ١٩٦	
الإعجاز بالحذف ! ٢٠٠	
مثال على إعجاز الحذف ٢٠١	
التأصيل لعلم الوحدة الموضوعية عند المؤلف ٢٠٦	
تنجيم القرآن على السنين ودلالته على الإعجاز ٢٠٨	
النظم القرآني ٢١٦	
مثال على الوحدة الموضوعية في السور القرآنية = سورة البقرة ٢١٩	
السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني ٢٢٠	
من الأخطاء الواقعية في دراسة المناسبات بين الآيات ٢٢٠	
مهمات عن البحث في النسق القرآني ٢٢٠	
أقسام سورة البقرة ٢٢٤	
خلاصة المقدمة ٢٣٢	